الجامعة الافتراضية السورية

SYRIAN VIRTUAL UNIVERSITY

# علم الاجتماع

الدكتورة رشا شعبان

ISSN: 2617-989X

Books

# علم الاجتماع

الدكتورة رشا شعبان

من منشورات الجامعة الافتراضية السورية

الجمهورية العربية السورية ٢٠١٨

هذا الكتاب منشور تحت رخصة المشاع المبدع – النسب للمؤلف – حظر الاشتقاق (CC– BY– ND 4.0)

https://creativecommons.org/licenses/by-nd/4.0/legalcode.ar

يحق للمستخدم بموجب هذه الرخصة نسخ هذا الكتاب ومشاركته وإعادة نشره أو توزيعه بأية صيغة وبأية وسيلة للنشر ولأية غاية تجارية أو غير تجارية، وذلك شريطة عدم التعديل على الكتاب وعدم الاشتقاق منه وعلى أن ينسب للمؤلف الأصلي على الشكل الآتي حصراً:

رشا شعبان، الإجازة في تقانة المعلومات، من منشورات الجامعة الافتراضية السورية، الجمهورية العربية السورية، ٢٠١٨

متوفر للتحميل من موسوعة الجامعة https://pedia.svuonline.org/

# Introduction to Sociology

Rasha Shabaan

Publications of the Syrian Virtual University (SVU)

Syrian Arab Republic, 2018

Published under the license:

Creative Commons Attributions- NoDerivatives 4.0

International (CC-BY-ND 4.0)

https://creativecommons.org/licenses/by-nd/4.0/legalcode

Available for download at: https://pedia.svuonline.org/

ISSN: 2617-989X

# الفهرس


المنظور الاجتماعي ..... ١
المنظور الاجتماعي والسياق الاجتماعي ..... ٤
علاقة علم الاجتماع بالعلوم الأخرى ..... ٥
أصول علم الاجتماع ..... ٨
القيم في الأبحاث الاجتماعية ..... ١٤
المنطلقات النظرية لعلم الاجتماع ..... ١٦
الثقافة ..... ٢٠
مفهوم الثقافة ..... ٢٢
مكونات الثقافة الرمزية ..... ٢٤
الثقافات الفرعية والمضادة والكونية ..... ٢٨
علم الاجتماع البيولوجي والسلوك الإنساني ..... ٢٩
البنية الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي ..... ٣٣
مستويات التحليل الاجتماعي ..... ٣٦
المنظور الاجتماعي واسع النطاق ..... ٣٧
المنظور الاجتماعي الصغري ..... ٤٤
الجماعات البشرية ..... ٤٧
التحول الاجتماعي ..... ٥٠
الجماعات ضمن المجتمع ..... ٥٦
ديناميكيات الجماعات البشرية ..... ٦٠
التمييز الطبقي ..... ٦٣
نظم التمييز الطبقي ..... ٦٦
محددات الطبقة الاجتماعية ..... ٧٠
أسباب شيوع ظاهرة التمييز الطبقي ..... ٧٢
كيف تحافظ الطبقات المسيطرة على السلطة ..... ٧٤
التمييز الطبقي العالمي ..... ٧٥
ابن خلدون وعلم العمران ..... ٧٨
حياة ابن خلدون ..... ٨١
التاريخ من وجهة نظر ابن خلدون ..... ٨٦
مقدمة إلى علم العمران ..... ٨٨
محور النظرية – الدولة ..... ٩٠


ISSN: 2617-989X

مقارنة علم العمران وعلم الاجتماع ..... ٩١
العمران البشري وحركة التاريخ عند ابن خلدون ..... ٩٣
جغرافية العمران ..... ٩٦
البدو والحضر ونحل المعاش ..... ٩٧
نظرية العصبية ..... ٩٨
الدولة وتطورها ..... ١٠١
الاقتصاد ..... ١٠٦
تطور النظم الاقتصادية ..... ١٠٩
وسائط المبادلة ..... ١١١
النظم الاقتصادية العالمية ..... ١١٤
عولمة الرأسمالية ..... ١٢١
مضاعفات الرأسمالية العالمية ..... ١٢٣
المجتمع المدني ..... ١٢٤
مفهوم المجتمع المدني ..... ١٢٧
المجتمع المدني ..... ١٣٤
الاختراق الخارجي للمجتمع المدني ..... ١٣٥
دور المجتمع المدني في بناء الديمقراطية ..... ١٣٦
وظائف المجتمع المدني وعلاقتها بالديمقراطية ..... ١٣٧
أنواع المجتمع المدني ..... ١٣٩
المفهوم المركزي للدولة ..... ١٤٠
الدين والمجتمع ..... ١٤٣
تعريف الدين ..... ١٤٥
النظريات الاجتماعية والدين ..... ١٤٦
الدين وروح الرأسمالية ..... ١٤٩
أديان العالم الكبرى ..... ١٥٠
التعداد السكاني والتمدن ..... ١٦٢
الانفجار السكاني ..... ١٦٥
النمو السكاني ..... ١٦٧
التمدن ..... ١٦٩
التربية والتعليم ..... ١٧٤
التربية في المجتمعات الأولى ..... ١٧٦

ISSN: 2617-989X

التربية من المنظور العالمي ..... ١٧٧
التربية في النظريات الاجتماعية ..... ١٧٩
العولمة ..... ١٨٣
صرح الحضارة الجديدة ..... ١٨٦
تدهور سوق العمل ..... ١٨٧
الأممية كشعار للرأسمالية ..... ١٨٧
الليبرالية الجديدة ..... ١٨٨
الرأسمالية والديمقراطية ..... ١٨٨
سلطة وسائل الاعلام ..... ١٨٩
عصر المدن ..... ١٩٠
تصدع العالم الواحد ..... ١٩٠
صراع الحضارات ..... ١٩١
أسواق المال – طبقة المضاربين ..... ١٩٢
الأزمة اللامحدودة في سوق العمل ..... ١٩٣
حرب تحرير رأس المال ..... ١٩٤
القطاعات المتضررة من العولمة ..... ١٩٤
التكاليف النسبية ..... ١٩٥
العائلة ..... ١٩٦
العائلة والزواج ..... ١٩٩
العائلة اختراع ينفرد به بنو الإنسان ..... ١٩٩
حفل الزفاف ..... ٢٠٠
استمرارية العائلة ..... ٢٠٠
أصول العائلة ..... ٢٠١
وظائف العائلة ..... ٢٠٢
الطلاق ..... ٢٠٥
بنية العائلة ..... ٢٠٦
كيف يجري علماء الاجتماع أبحاثهم ..... ٢٠٨
مقدمة ..... ٢١١
نموذج البحث ..... ٢١١
طرق البحث ..... ٢١٥
انتقاء طريقة البحث الأفضل ..... ٢٢٥

ISSN: 2617-989X

علم الاجتماع بين النظرية والبحث ..... ٢٢٦
كيف تلتقي النظرية مع الواقع ..... ٢٢٦
الخلاصة ربط البحث بالنظرية ..... ٢٢٨
العلوم السياسية الجزء الأول ..... ٢٢٩
تعريف العلوم السياسية ..... ٢٣٣
مجالات العلوم السياسية ..... ٢٣٤
تطور العلوم السياسية ..... ٢٣٥
الديمقراطية ..... ٢٣٨
العلاقات الدولية ..... ٢٤٣
العلوم السياسية الجزء الثاني ..... ٢٤٦
الأحزاب السياسية ..... ٢٤٩
الأحزاب الماركسية – الشيوعية ..... ٢٥٢
الأحزاب الفاشية ..... ٢٥٤
النازية ..... ٢٥٤
الأحزاب في أوربا ..... ٢٥٥
المحافظون الجدد ..... ٢٥٨
الحرب على الإرهاب ..... ٢٦٠

ISSN: 2617-989X

# الفصل الأول: المنظور الاجتماعي

## الكلمات المفتاحية

المنظور الاجتماعي – السياق الاجتماعي – المجتمع – التاريخ – السيرة الذاتية – العلم – العلوم الطبيعية العلوم الاجتماعية – علم الإنسان – الاقتصاد – السياسة – العلوم النفسية والسلوكية – علم الاجتماع – الثورة الاجتماعية – الفلسفة الوضعية – أوغست كونت – الفلسفة النظرية – هربرت سبنسر – النظرية الداروينية الاجتماعية – صراع الطبقات – كارل ماركس – البرجوازية – البروليتاريا – إميل دوركهايم – التكامل الاجتماعي – ماكس فيبر – القيم الشخصية – أهداف علم الاجتماع – مبدأ التكرار – الانحياز – التحريف – نظرية التفاعل الرمزي – الرموز – النظرية – روبرت ميرتون – التحليل الوظيفي – الوظائف الجلية – الوظائف الكامنة – الخلل الوظيفي (الكامن) – حالة المجتمع – بنية المجتمع – نظرية الصراعات.

## ملخص

يتعرّف الطلاب في هذه الوحدة على مفهوم علم الاجتماع وعلاقته ببقية العلوم الاجتماعية الأخرى – كما تلقي الوحدة الضوء على الأصول التاريخية لعلم الاجتماع وعلى أبرز العلماء الذين أثْرَوا بدراساتهم هذا العلم وأسسوا له. كما تستعرض هذه الوحدة بعض المفاهيم النظرية في علم الاجتماع.

## أهداف تعليمية

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

- المنظور الاجتماعي والسياق الاجتماعي
- تعريف العلم وأقسامه المختلفة
- علاقة علم الاجتماع بالعلوم الأخرى
- نشأة علم الاجتماع كنتيجة للثورة الاجتماعية ولنجاح العلوم الطبيعية
- الفلسفة الوضعية وعلم الاجتماع
- دور أوغست كونت في وضع مصطلح علم الاجتماع
- هربرت سبنسر والنظرية الداروينية الاجتماعية
- كارل ماركس وصراع الطبقات
- دور إميل دوركهايم في تعريف علم الاجتماع وفي تحديد مفهوم التكامل الاجتماعي
- مسالة عزل القيم الشخصية عن الأبحاث الاجتماعية
- تعريف النظرية والنظريات الأساسية في علم الاجتماع
- نظرية التفاعل الرمزي
- نظرية التحليل الوظيفي وتقسيم الوظائف في المجتمع إلى وظائف كامنة وجلية
- نظرية الصراعات – مفهوم الصراع الطبقي والصراع على السلطة في المجتمع

## المخطط

- المنظور الاجتماعي والسياق الاجتماعي
- علاقة علم الاجتماع بالعلوم الأخرى
- أصول علم الاجتماع
- القيم في الأبحاث الاجتماعية
- المنطلقات النظرية لعلم الاجتماع

## 1. المنظور الاجتماعي والسياق الاجتماعي

تلخص النقاط الآتية المفاهيم العامة للمنظور الاجتماعي والسياق الاجتماعي:

1. المنظور الاجتماعي (Social Perspective): يركز المنظور الاجتماعي (ويُسمى أحياناً الخيال الاجتماعي) على السياق الاجتماعي المعيشي، حيث يتفحص الكيفية التي يؤثر بها هذا السياق على حياة مختلف الأشخاص. ويتمركز المنظور الاجتماعي حول كيفية تأثير المجموعات على الأشخاص، ولاسيما الطريقة التي يتأثر بها كل فرد بمجتمعه. ويُعرّف المجتمع من هذا المنطلق بأنه مجموعة من البشر يتشاركون الحضارة نفسها والثقافة والأرض.
2. تعريف رايت ميللز للمنظور الاجتماعي: يعرّف عالم الاجتماع رايت ميللز (C. Wright Mills– 1959) المنظور الاجتماعي كما يلي: "يمكّننا المنظور الاجتماعي من تحديد الصلة بين التاريخ والسيرة الذاتية. "حيث يعرّف ميللز التاريخ بأنه مسار واسع من الأحداث المتنوعة التي يمر بها المجتمع. وبسبب التاريخ يكتسب كل مجتمع خصائصه المميزة، مثل الطريقة التي ينظر بها إلى الأدوار المثلى للرجال والنساء المنتمين إليه. أما السيرة الذاتية فيستخدمها ميللز إلى الإشارة إلى خبرة الأفراد الشخصية. حيث لا يقوم الأفراد ضمن أي مجتمع بأي عمل بدافع من آليات موروثة داخلية، مثل الغرائز. بل على العكس، تصبح التأثيرات الخارجية، مثل الخبرة الشخصية، جزءاً من طريقة تفكير هؤلاء الأفراد ودوافعهم. بعبارة أخرى فإن المجتمعات التي نتربى ونكبر ضمنها، ومواضعنا المحدّدة ضمن هذه المجتمعات، تحدّد ماهية أعمالنا وطبيعة تفكيرنا
3. أهمية المنظور الاجتماعي: تحرير الأفراد من النظرة الموروثة الضيقة
4. المجتمع: مجموعة من البشر يتشاركون الحضارة نفسها والثقافة والأرض.
5. الموضع الاجتماعي: يقوم علماء الاجتماع، بغية التعرّف على الدوافع التي تكمن خلف تصرفات مختلف الأفراد، بمعاينة الموضع الاجتماعي. ويعرّف هذا الموضع بأنه الزاوية التي يشغلها أي فرد في المجتمع بسبب ماهيته وموضعه في هذا المجتمع. ويعتبر علماء الاجتماع كلا من التربية، المهنة، الدخل، الجنس، العمر والسلالة من أهم العوامل التي تحدّد الموضع الاجتماعي لكل فرد. فمثلاً إن كل مجتمع ينقسم إلى فئتين متمايزتين وهما الإناث والذكور، ويؤثر هذا التقسيم على مختلف مناحي الحياة، إذ لا يقتصر تأثيره على بنات وأبناء المجتمع الواحد بل يمتد ليشمل شعور كل فرد تجاه نفسه وطبيعة العلاقات ضمن المجتمع سواء الشخصية أو العملية.

يعتبر مختلف الأفراد حول العالم وجودهم الاجتماعي أمراً بديهياً. فمن الطبيعي أن نفضّل ما يفضّله مجتمعنا وأن ننحاز إلى ما ينحاز إليه. ورغم أن هذه النقطة قد تبدو شديدة الوضوح إلا أنّها غالباً ما تضللنا. حيث أننا غالبا ما نحاكم سلوك الآخرين كما لو انه نابع عن جنسهم، أو أصلهم العرقي، أو أي من العوامل الأخرى المتعلقة بجيناتهم الموروثة. يساعدنا المنظور الاجتماعي على التخلص من هذه النظرة الضيقة وذلك بعرضه السياق الاجتماعي الأوسع الذي يحدّد سلوك الأشخاص. حيث يساعدنا هذا المنظور على إدراك الصلة بين أفعال الأفراد والعوامل الاجتماعية التي تصيغ تصرفاتهم هذه.

## 2. علاقة علم الاجتماع بالعلوم الأخرى

قام الإنسان عبر تاريخه الطويل بتطوير مجموعة من العلوم، حيث يعرّف العلم بأنه مجموعة من الطرق المنظومة المستخدمة في دراسة العوالم الطبيعية والإنسانية، بالإضافة إلى المعرفة الناتجة عن هذه الدراسات. وغالباً ما تنقسم العلوم إلى قسمين: العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية

1. تعرّف العلوم الطبيعية بأنها القوانين الفكرية والأكاديمية التي تهدف إلى تفسير أو توقع الأحداث التي تجري في البيئة الطبيعية من حولنا. تقسم هذه العلوم إلى عدة اختصاصات وحقول متمايزة وذلك وفقا إلى طبيعة الموضوع الذي يهتم كل منها بدراسته، مثل العلوم الجيولوجية، البيولوجية، الكيميائية، والفيزيائية. تقسم كل هذه الاختصاصات العريضة إلى مجموعة من الاختصاصات الأضيق، مثلاً تقسم العلوم البيولوجية إلى علم النبات وعلم الحيوان، في حين تتفرع العلوم الجيولوجية إلى علم المعادن وعلم تضاريس الأرض. كما يمكن تقسيم العلوم الكيميائية إلى العلوم الكيميائية العضوية والعلوم الكيميائية غير العضوية. أما العلوم الفيزيائية فتتفرع إلى الفيزياء العضوية والفيزياء الكوانتية وغيرها من الحقول الفرعية. يهتم كل من هذه الفروع الأكثر تخصصاً بدراسة شريحة ضيقة من الطبيعة بمفهومها الواسع والمعقد.
2. تعرّف العلوم الاجتماعية بأنها فرع العلم الذي يضطلع بدراسة كل من المجتمع والسلوك الإنساني علمياً، ويعتبر هذا العلم أحد العلوم التي طورتها الحضارة الإنسانية الحديثة. وتهتم هذه العلوم بدراسة العلاقات الإنسانية. حيث تطمح العلوم الاجتماعية إلى فهم العالم الاجتماعي (أو الانساني)، وكشف بعض العلاقات الاجتماعية بواسطة الملاحظة والقياس المستمرين

وطُورت العلوم الاجتماعية لدراسة الطبيعة البشرية بهدف فهم ماهية الحياة وذلك بعد أن اقتصر تركيز الإنسانية ولفترة طويلة من تاريخها على العلوم الطبيعية. تهتم هذه العلوم بدراسة العلاقات الإنسانية. فكما تحاول العلوم الطبيعية فهم العالم الطبيعي من حولنا، تطمح العلوم الاجتماعية إلى فهم العالم الاجتماعي (أو الإنساني). وكما أن بعض العلاقات بين مختلف العناصر الطبيعية في العالم لا تزال غامضة ولابد من كشف القوانين التي تنظمها بالدراسة والملاحظة الدقيقة. كذلك فإن بعض العلاقات الاجتماعية لاتزال غامضة، ولابد من كشفها بواسطة الملاحظة والقياس المستمرين.

## 1.2. أقسام العلوم الاجتماعية

تقسم العلوم الاجتماعية إلى عدة أقسام متمايزة يختص كل منها بدراسة موضوع اجتماعي مختلف وهذه الأقسام هي علوم الإنسان، العلوم الاقتصادية، العلوم السياسية، العلوم النفسية والسلوكية، وعلم الاجتماع ويتفرع كل من هذه الأقسام بدوره إلى عدد من الاختصاصات الجزئية حيث تتفرع علوم الإنسان إلى علوم الإنسان الحضارية وعلوم الإنسان الفيزيائية كما أن للعلوم الاقتصادية تخصصات واسعة النطاق وأخرى ضيقة النطاق أما العلوم السياسية فتنقسم إلى أفرع نظرية وأخرى تطبيقية كما أن العلوم النفسية والسلوكية قد تكون سريرية أو تجريبية في حين أن لعلم الاجتماع فرعين أساسين هما الدراسات الكمية والدراسات النوعية نتعرف فيما يلي على كل من أقسام العلوم الاجتماعية:

1. علوم الإنسان (الأنثروبولوجي – أو أصول الإنسانية): تركز هذه العلوم أساساً على فهم الحضارة، أو أسلوب الحياة العام يشمل مفهوم الحضارة كلاً من المفاهيم الجزئية التالية:

- منتجات أو مصنوعات المجموعات المنطوية ضمن هذه الحضارة: مثل الأدوات التي تستخدمها في أمور الحياة اليومية أو الأسلحة التي تقوم بتصنيعها
- بنية هذه المجموعات: أي النماذج (مثل مواضع الاحترام) التي تحدّد كيفية تفاعل أعضاء هذه المجموعات مع بعضها البعض.
- الأفكار والقيم: ولاسيما الكيفية التي تؤثر بها معتقدات الجماعة على حياة أفرادها
- أشكال الاتصال والتواصل: ولا سيما اللغة

2. العلوم الاقتصادية: وهي علوم تركز على دراسة مؤسسة اجتماعية وحيدة حيث تهتم بدارسة أساليب إنتاج وتوزيع كلا من البضائع المادية والخدمات ضمن المجتمع تهدف هذه العلوم إلى تحديد ماهية البضائع المنتجة، ومعدلات وكلف إنتاجها، بالإضافة إلى كيفية توزيعها كما يهتم الاقتصاديون بدراسة الخيارات التي تحكم عمليات الإنتاج والاستهلاك، فمثلا، يدرس هؤلاء الاقتصاديون الدوافع التي تدفع بالأفراد إلى شراء سلعة ما عوضاً عن شراء سلعة أخرى.
3. العلوم السياسية: تركز هذه العلوم على السياسة والحكومات، حيث يدرس علماء السياسة أنماط الحكومات المختلفة وعلاقة كل من هذه الحكومات بمؤسسات المجتمع الأخرى ويهتم علماء السياسة خصوصاً بطريقة وصول الافراد إلى سدة السلطة في مجتمعاتهم، وكيفية حفاظهم على هذه المناصب، وتأثير قراراتهم على حياة الأفراد الذين يحكمونهم.
4. العلوم النفسية والسلوكية: تركز العلوم النفسية والسلوكية على العمليات التي تحدث ضمن كل فرد، داخل ما يدعى بالمنظومة العضوية ضمن جلد الفرد، حيث يركز علماء النفس أساساً على العمليات العقلية (التي تحدث داخل دماغ الإنسان) فيدرس هؤلاء العلماء ذكاء الإنسان، عواطفه، ذاكرته، وحتى أحلامه وفي حين يركز بعضهم على الكيفية التي تتبلور بها شخصية الإنسان، يهتم آخرون بدراسة الاضطرابات العقلية والنفسية.
5. علم الاجتماع: يتقاطع علم الاجتماع مع بقية العلوم الاجتماعية بعدد كبير من النقاط المشتركة. إذ يقوم علماء الاجتماع بدراسة الحضارة الإنسانية مثل علماء الإنسان، كما يهتمون أيضا بدراسة بنية المجموعات الاجتماعية ونظم المعتقدات ضمنها، بالإضافة إلى كيفية تواصل الأفراد ضمن هذه المجتمعات بعضهم مع بعض كما يهتم علماء الاجتماع، مثل علماء الاقتصاد بمعرفة مصير المنتجات والخدمات في المجتمع، إلا أن تركيز علماء الاجتماع يقتصر على العواقب الاجتماعية لعدم المساواة والفروق بين مختلف أفراد المجتمع ومثل علماء السياسة، يدرس علماء الاجتماع، كيف يحكم الأفراد بعضهم بعضاً، ولاسيما تأثير الحكومات على الأفراد ومثل علماء النفس والسلوك، يهتم علماء الاجتماع بالكيفية التي يواجه بها الأفراد مختلف صعوبات الحياة.

ورغم كل هذه التشابهات، فإن علم الاجتماع يتميز عن غيره من العلوم الاجتماعية بالنقاط التالية:

- على عكس علماء الإنسان، يهتم علماء الاجتماع أساساً بالمجتمعات الصناعية ؟
- على عكس علماء الاقتصاد والسياسة، لا يركز علماء الاجتماع جل اهتمامهم على مؤسسة اجتماعية وحيدة
- وأخيراً على عكس علماء النفس والسلوك، يشدّد علماء الاجتماع على أهمية العوامل الخارجية من حيث تأثيرها على أفراد المجتمع

غالباً ما تمحورت دراسات علوم الإنسان حول المجتمعات القبلية وحيث أنه لم تتبق أي مجموعة بشرية خارج نطاق الاكتشاف والدراسة، فإن هذا التركيز على المجتمعات القبلية قد بدأ يتضاءل لمصلحة دراسة المجموعات ضمن المجتمعات الصناعية.

## 3. أصول علم الاجتماع

### 1.3. التقليد في مواجهة العلم

يتصف علم الاجتماع بالمراحل الاتية :

- بدايات علم الاجتماع: من الصعب تحديد بداية دقيقة لظهور علم الاجتماع فقد حاول الإنسان منذ القدم الإجابة على التساؤلات المتعلقة بحياته الاجتماعية إلا أن هذه الاجابات غالباً ما استندت إلى الخرافات والأساطير، لم يتخبر القدماء صحة فرضياتهم هذه بأية طريقة وهذا يناقض العلم الذي يتطلب تطوير نظريات يمكن اختبارها بواسطة أساليب البحث النظامية ووفقاً لهذا التعريف، فإن بدايات علم الاجتماع كعلم مستقل ترجع إلى منتصف القرن التاسع عشر، عندما بدأ المراقبون الاجتماعيون استخدام الطرائق النظامية في اختبار أفكارهم.
- الثورة الاجتماعية وانهيار التقاليد: ظهر علم الاجتماع كنتيجة للثورة الاجتماعية ففي منتصف القرن التاسع عشر، كانت الثورة الصناعية قد بدأت لتوها، كما كان الاقتصاد الأوروبي يمر بمرحلة الانتقال من نظام الإنتاج الزراعي إلى نظام الإنتاج الصناعي مما دفع بالبشر إلى التدفق نحو المدن بأعداد هائلة بحثاً عن لقمة العيش، الأمر الذي حطم العلاقة الوطيدة التي كانت تربطهم بأراضيهم، وبالتالي بالحضارة السابقة التي لطالما زودتهم بأجوبة جاهزة عن تساؤلاتهم الاجتماعية ورحبت بهم المدن بشروط عمل مرعبة من الأجور المنخفضة إلى ساعات العمل الطويلة والمرهقة مروراً بأنماط خطرة من العمل الجسدي المتعب ومن أجل الاستمرارية كان لابد للجميع، حتى الأطفال، من العمل تحت هذه الظروف هذه العوامل مجتمعة أدت إلى تغيير صورة الحياة عما كانت عليه سابقاً، ولم يعد بإمكان الناس الاعتماد على التقاليد، التي لطالما زودتهم بأجوبة على تساؤلاتهم الاجتماعية.

- ثورة حقوق الإنسان: واستمرت الضربات تنهال على مركز التقاليد في المجتمع، حيث شجع نجاح الثورتين الفرنسية والأمريكية الناس على إعادة النظر بحياتهم الاجتماعية فظهرت أفكار جديدة مثل الإيمان بأن البشر يتمتعون بحقوق غير قابلة للتحويل من شخص لآخر وبدأت النظم الملكية الغربية، مع الانتشار الواسع لفكرة حقوق الإنسان، تفسح المجال أما الحكومات الأكثر ديموقراطية.
- ظهور علم الاجتماع الحديث كنتيجة لنجاح العلوم الطبيعية وانهيار التقاليد: كان نجاح العلوم الطبيعية إحدى القوى الأخرى التي دفعت بتطور علم الاجتماع نحو الأمام حيث جُرِّبت الطرق العلمية المعتمدة على الملاحظات القياسية في كل من العلوم الفيزيائية والكيميائية، مما أدى إلى الكشف عن عدد كبير من أسرار الطبيعة وبانهيار التقاليد كمصدر للأجوبة حول التساؤلات الطبيعية، فإن الخطوة المنطقية التالية كانت اعتماد الطرق العلمية في الاجابة عن هذه التساؤلات، وكانت النتيجة تبني هذه الطرق ولادة علم الاجتماع.

### 2.3. أوغست كونت والفلسفة الوضعية

تعريف الفلسفة الوضعية: تطبيق الطرق العلمية في الأبحاث الاجتماعية وقد طرحت فكرة تطبيق الطرق العلمية في الأبحاث الاجتماعية، والتي تعرف باسم الفلسفة الوضعية، لأول مرة من قبل أوغست كونت (August Comte 1798–1857).

- أوغست كونت (August Comte 1798–1857) وتساؤلاته الاجتماعية: ولد أوغست كونت في أحد القرى المحافظة الصغيرة في فرنسا عام 1798، إلّا أنه غادرها بتأثير الغليان الشعبي الذي رافق نجاح الثورة الفرنسية ليستقر في العاصمة باريس وقد أدت الخبرة التي اكتسبها من هذا الانتقال، بالإضافة إلى التجربة التي عاشها جميع الفرنسيين الذين عاصروا الثورة الفرنسية، إلى تعاظم اهتمام كونت باكتشاف الرابط الذي يربط كامل المجتمع بعضه مع بعض حيث تساءل عن السبب الكامن خلف علاقات الترتيب الاجتماعية، غير الفوضى والتشوش، كما اهتم أيضا بتحديد أسباب التغيرات الاجتماعية.

- أوغست كونت وعلم الاجتماع أو السوسيولوجي: استنتج كونت من تساؤلاته السابقة أن الطريقة السليمة للإجابة على مثل هذه التساؤلات الاجتماعية لا تكون إلا بتطبيق طرق البحث العلمي على الحياة الاجتماعية أطلق كونت على هذا العلم الجديد اسم علم الاجتماع أو السوسيولوجي –أي علم دراسة المجتمع سوسيولوجي من الكلمة اليونانية لوجوس logos بمعنى دراسة شيء ما والكلمة اللاتينية سوسيوس socius بمعنى الرفقة أو التواجد مع الآخرين) وقد أشار كونت على أهمية هذا العلم الجديد ليس فقط من حيث دوره في الكشف عن المبادئ الاجتماعية ولكن أيضا من حيث استخدامه في تطبيق هذه المبادئ في عملية الإصلاح الاجتماعي، حيث يمكن لعلماء الاجتماع الاضطلاع بعملية إصلاح المجتمع وجعله مكاناً أفضل للعيش.
- فلسفة أوغست كونت النظرية وعلم الاجتماع المعاصر: إلّا أن الطريقة التي طبق بها كونت طرق البحث العلمي على الحياة الاجتماعية تُسمى اليوم بالفلسفة النظرية – غير العملية ( armchair philosophy) – أي استنتاج النتائج من ملاحظات غير قياسية حول الحياة الاجتماعية إذا لم يطبق كونت أي منهجية يمكن أن توافق البحث العلمي كما يصطلح عليه علماء الاجتماع المعاصرون، مما أدى بهم إلى التخلي عن كافة استنتاجاته إلا أننا ينبغي أن نقدّر إصرار كونت وتأكيده على ضرورة ملاحظة وتصنيف النشاطات البشرية وذلك بغية كشف القوانين الاجتماعية الأساسية وغالبا ما يشار إلى كونت كمؤسس علم الاجتماع وذلك لأنه طور هذه الفكرة وصاغ مصطلح علم الاجتماع أو السوسيولوجي.

### 3.3. هربرت سبنسر والداروينية الاجتماعية

يعتبر هربرت سبنسر (Herbert Spencer 1820–1903) المؤسس الثاني لعلم الاجتماع

- التناقض بين هربرت سبنسر وأوغست كونت. إذ آمن سبنسر بأن المجتمعات تتطور من الأشكال الدنيا المتوحشة أو البربرية إلى الأشكال الأعلى أو المتحضرة.
- النظرية الداروينية الاجتماعية أو الاصطفاء الطبيعي للأفراد الأكثر ملاءمة: مع كل جيل يمر، لا يمكن إلا لأفراد المجتمع الأكثر ذكاء وقدرة الاستمرار بالحياة، في حين يموت الأفراد الأقل قدرة وهكذا تتطور المجتمعات وتتحسن مع مرور الزمن ومن ثمّ فإن مساعدة الطبقات الدنيا تعتبر تدخلاً في عملية الاصطفاء هذه وينتج عن اصطفاء الأفراد الأكثر ملاءمة مجتمعات أكثر تقدماً سمى سبنسر هذه العملية بالاصطفاء الطبيعي للأفراد الأكثر ملاءمة.

وعلى الرغم من أن سبنسر قد صاغ هذا المصطلح، إلا أنه غالباً ما ينسب إلى معاصره تشارلز داروين (Charles Darwin)، والذي افترض بدوره أن كافة أصناف الحياة العضوية تتطور عبر الزمن مع تأقلمها مع البيئة التي تعيش فيها وبسبب تشابه أفكاره الاجتماعية مع أفكار معاصره البيولوجية أطلق على نظرية سبنسر في تطور المجتمعات اسم الداروينية الاجتماعية.

- أصداء النظرية الداروينية الاجتماعية بين معارضيها ومؤيديها أرعبت أفكار سبنسر في ضرورة عدم مساعدة الفقراء أو الإحسان إليهم الكثير من الناس إلّا أن الصناعيين الأثرياء في ذلك الوقت والذين اعتبروا أنفسهم العناصر الأكثر ملاءمة في مجتمعاتهم، وبالتالي الأكثر تفوقاً، وجدوا نظريات سبنسر جذابة كما ساعدتهم نظريات سبنسر على التحرر من الشعور بالذنب كونهم يعيشون في رفاهية شبه ملكية في حين يموت الناس من حولهم من الجوع.
- سبنسر كفيلسوف اجتماعي يُعتبر سبنسر، مثل كونت، فيلسوفاً اجتماعياً أكثر منه عالم اجتماع كما أنه، مثل كونت، لم يتم بأي دراسات اجتماعية، بل اكتفى بتطوير أفكاره حول المجتمع.
- مصير النظرية الداروينية الاجتماعية: رغم أن سبنسر اكتسب العديد من الأتباع، سواء في بريطانيا أو في الولايات المتحدة الأمريكية، إلّا أن النجاح لم يكتب رغم ذلك النظرية الداروينية التي وضعها، وسرعان ما ضعفت الثقة قبل أن تُرفضَ تماماً من قبل الباحثين.

### 4.3. كارل ماركس وصراع الطبقات

كان للفيلسوف الكبير كارل ماركس (Karl Marx 1818–1883) دور هام لا يمكن إنكاره، ليس في مجال علم الاجتماع وحسب بل في تاريخ العالم ككل ولا يزال إلى الآن من أبرز الشخصيات التاريخية في كل من علوم الاقتصاد والسياسة والتاريخ والاجتماع.

1. كارل ماركس وصراع الطبقات: آمن ماركس بأن صراع الطبقات هو المحرك الفعلي للتاريخ البشري هذا الصراع يكون بين الطبقتين الأكثر تناقصاً:
   - الطبقة البرجوازية: الرأسماليون، الذين يمتلكون وسائل الإنتاج
   - طبقة البروليتاريا: العمال المقهورين الذين لا يمتلكون أي وسيلة من وسائل الإنتاج (البيان الشيوعي)

   اعتقد ماركس مثله مثل كونت بدور الأفراد في تغيير وتطوير مجتمعاتهم حيث آمن ماركس الذي استقر في إنجلترا بعد نفيه من بلده الأصلي ألمانيا لمشاركته الفعّالة في ثورة 1848–1849، بأن صراع الطبقات هو المحرك الفعلي للتاريخ البشري حيث اعتبر أن هناك تناقضاً جوهرياً بين طبقة البرجوازية (أي الرأسماليين، الذين يمتلكون وسائل الإنتاج، مثل رأس المال، الأرض، المصانع والأدوات) وبين طبقة البروليتاريا (وهي طبقة العمال المقهورين الذين لا يمتلكون أي وسيلة من وسائل الإنتاج) وأن هذا التناقض هو أساس الصراع المرير بين الطبقتين والذي لا يمكن أن ينتهي إلا باتحاد عمال العالم جميعاً بعضهم مع بعض بهدف الثورة ضد قيود العبودية التي تطوقهم بها الطبقة البرجوازية وستكون نتيجة انتصار العمال في ثورتهم مجتمعاً خالياً من الطبقات، متحرراً من أي شكل من أشكال الاستغلال، يمكن فيه للأفراد أن يعملوا كل حسب قدرته في حين يتلقى كلٌ منهم من الأجر ما يكفي حاجته (ماركس وأنجلز 1848\1967).
2. علاقة الماركسية والشيوعية لا يمكن اعتبار الماركسية مماثلة للشيوعية فعلى الرغم من أن ماركس قد اعتبر أن الثورة هي الطريقة الوحيدة التي يمكن بهال للعمال أن يسيطروا على مجتمعاتهم، إلا أنه لم يطوّر الشيوعية كنظام سياسي كما أصبحت عليه بل إن ظهور الشيوعية كان نتيجة تطبيق لاحق لأفكار ماركس هذه.
3. دور كارل ماركس كعالم اجتماع على عكس كونت وسبنسر، لم يعتبر كارل ماركس نفسه عالم اجتماع، حيث قضى عدة سنوات درس خلالها مكتبة المتحف البريطاني في لندن، وكتب أثناءها العديد من المؤلفات الهامة في التاريخ والفلسفة، وبالطبع في العلوم الاقتصادية والسياسية إلا أن العديد من علماء الاجتماع ينظرون إلى ماركس بسبب أفكاره حول طبيعة العلاقات الاجتماعية بين أولئك الذين "يملكون" والذين لا يملكون، كأحد أبرز علماء الاجتماع الأوائل.

### 5.3. إميل دوركهايم والتكامل الاجتماعي

كان الهدف الرئيسي لأبحاث عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركهايم (Emile Durkheim 1858–1917) هو تعريف علم الاجتماع كمنهج أكاديمي مستقل ومتمايز وقام بدراسة حول أسباب الانتحار في مختلف الجماعات الاجتماعية ودور العوامل الاجتماعية التي تحافظ على نسب الانتحار ضمن كل مجموعة ثابتة نسبياً عاماً بعد عام ففي عصره كان علم الاجتماع يعتبر عموماً كفرع من فروع علوم التاريخ أو الاقتصاد إلا أن دوركهايم الذي ترعرع في شرقي فرنسا وتلقى تعليمه في كل من فرنسا وألمانيا، حقق هدفه عندما قبل أول وظيفة في علم الاجتماع في جامعة بوردو الفرنسية عام 1887 سعى دوركهايم لتحقيق هدف آخر أيضاً وهو تبيان تأثير مختلف العوامل الاجتماعية على سلوك أفراد المجتمع ولتحقيق هذا الهدف، قام دوركهايم ببحث دقيق جداً، وبمقارنة معدلات وأسباب الانتحار في عدة دول أوروبية وجد دوركهايم أن معدلات الانتحار في كل بلد تختلف عن باقي البلدان وأن هذه المعدلات تحافظ على استقرارها في هذه البلدان عاماً بعد عام

وجد دوركهايم أيضاً أن معدلات الانتحار ضمن البلد الواحد نفسه تختلف من مجموعة اجتماعية إلى أخرى، وان هذه النسب الجزئية تحافظ على استقرارها أيضاً عاماً بعد عام وقد استنتج دوركهايم من هذه الدراسة نتيجة هامة هي أن الانتحار ليس مجرد قرار فردي مبني على أسباب شخصية بمعزل عن باقي التأثيرات الاجتماعية، بل على العكس فإن هناك مجموعة من العوامل الاجتماعية مسؤولة عن تحديد كيفية الانتحار، وهي التي تحافظ على نسب الانتحار ضمن كل مجموعة ثابتة نسبياً عاماً بعد عام. يمكننا من دراسة دوركهايم حول أسباب الانتحار استخلاص المبدأ الأساسي التي تمركزت حوله أبحاثه وهو: أن سلوك الإنسان لا يمكن فهمه ببساطة ضمن سياقه الفردي فقط، بل ينبغي علينا دوما دراسة العوامل الاجتماعية التي تؤثر على حياة البشر وبخاصة التكامل الاجتماعي .

- التكامل الاجتماعي:عرف دوركهايم مفهوم التكامل الاجتماعي بأنه درجة ارتباط الأفراد بمجموعاتهم الاجتماعية، واعتبره أحد أهم العوامل الرئيسية التي تدفع الأفراد إلى الانتحار حيث استنتج أن نسبة الانتحار ترتفع بين الأشخاص ذوي الصلات الاجتماعية الأضعف وعلى الرغم من أن الروابط والالتزامات الاجتماعية القوية تمنع معظم الناس من الانتحار، إلا أن دوركهايم قد لاحظ أن هذه الروابط القوية قد تشجع في بعض الحالات على الانتحار فقد يلجأ مثلاً بعض الأشخاص الذين فقدوا أعزاءهم في حوادث مأساوية إلى الانتحار لعدم قدرتهم على تحمل الحياة بعد موت أحبائهم وذلك لأن مشاعرهم متكاملة بقوة مع أقرانهم لدرجة أنهم يفضلون الموت على الحياة بدون هؤلاء الذين يمنحون المعنى لحياتهم بعد مضي حوالي مائة سنة على إنجازها،

لا تزال دراسة دوركهايم حول أسباب الانتحار مرجعاً للعديد من الأبحاث الأخرى فقد كانت أبحاث دوركهايم عميقة لدرجة أن المبدأ الذي استخلصه منها لا يزال قابلا للتطبيق حتى وقتنا الراهن الأشخاص ذوي الصلات الاجتماعية الأضعف هم أكثر عرضة لمحاولات الانتحار من غيرهم.

## 4. القيم في الأبحاث الاجتماعية

التحرر من القيم صعوبة عزل الابحاث عن القيم الشخصية

من أهم علماء الاجتماع الذين بحثوا في مفهوم القيم ماكس فيبر (Max weber 1864–1920) وهو عالم اجتماع ألماني معاصر لأميل دوركهايم، كما كان أستاذاً لعلم الاجتماع الذي انفرد لتوه بفرع أكاديمي مستقل. يعتبر فيبر، مثل دوركهايم وماركس، أحد أبرز علماء الاجتماع وأكثرهم تأثيرا ولا تزال دراساته حول الدين وأصول الرأسمالية تثير الجدل حتى يومنا هذا.

- هل ينبغي أن يكون علم الاجتماع متحرراً من القيم؟ أثار ماكس فيبر إحدى النقاط التي لا تزال مصدر جدل بين علماء الاجتماع حتى عصرنا الراهن، حيث فرض فيبر أن علم الاجتماع ينبغي أن يكون متحررا من القيم، أي أن قيم الباحثين – مثل معتقداتهم حول ما هو جيد أو قيم في الحياة، أو الطريقة التي ينبغي للعالم أن يسير وفقها – ينبغي ألا تؤثر على أبحاثهم، حيث أراد فيبر أن يدمغ الأبحاث الاجتماعية بطابع الموضوعية والحياد التامين فاعتبر أنه إذا ما سمح علماء الاجتماع لقيمهم بالتأثير على أبحاثهم فإن هذا سيؤدي بالضرورة إلى انحياز نتائج الأبحاث.
- صعوبة عزل الأبحاث الاجتماعية عن القيم الشخصية للباحثين: إن ضرورة خلو الأبحاث من الانحياز هو أمر لا يناقشه أحد حيث يتفق جميع علماء الاجتماع على أنهم ينبغي ألا يحرفوا معطيات الأبحاث بغية جعلها موافقة لتصوراتهم المسبقة أو قيمهم الشخصية، إلا أن هؤلاء العلماء أنفسهم وبسبب كونهم أفراد في مجتمعهم ضمن سياقه التاريخي، عرضة مثلهم مثل أي فرد آخر لتأثير كافة القيم من مختلف الأنواع وبالتالي فإن هذه القيم تلعب دورا يتعذر تجنبه في أبحاث هؤلاء العلماء.
- مبدأ التكرار: يؤكد علماء الاجتماع كثيرا على مبدأ التكرار، وذلك لأن قيم الباحثين الشخصية قد تؤدي إلى تحريفات غير مدونة في طريقة تفسير النتائج، فوفق هذا المبدأ يكرر الباحثون دراساتهم عدة مرات بغية مقارنة نتائج كل تكرار مع النتائج الأصلية التي توصلوا إليها أول مرة، حيث يسمح تكرار الدراسة بواسطة باحثين آخرين بكشف وتصحيح التحريف الذي يمكن أن يكون قد نشأ بسبب قيم الباحث الشخصية.

- تأثير القيم الشخصية على اختلاف وجهات النظر حول أغراض واستخدامات علم الاجتماع
- أهداف علم الاجتماع: بين فهم الحياة الاجتماعية بشكل أفضل وبين تحمل مسؤولية التقصي حول النظم الاجتماعية التي قد تضر بأفراد المجتمع ورغم الوعي لدورها، فإن القيم التي تبقى موضع جدل عنيف في علم الاجتماع، حيث تركز وجهة النظر المناقضة لما سبق على ضرورة الحفاظ على الأهداف السليمة والاستخدامات الملائمة لعلم الاجتماع. ومن حيث أهداف علم الاجتماع، فإن كثيراً من علماء الاجتماع يعتبرون أن هدف أبحاثهم هو فهم الحياة الاجتماعية فهماً أفضل ومن ثمّ فإن مهمتهم تنحصر في تجميع المعطيات حول أي موضوع يهتمون به ومن ثم استخدام أنسب نظرية لاستخلاص النتائج من هذه المعطيات، في حين يؤمن بعض علماء الاجتماع في أنهم يتحملون مسؤولية التقصي حول النظم الاجتماعية التي قد تضر بأفراد المجتمع – مثل أسباب الفقر، الحرب، الجريمة وغيرها من أشكال الاستغلال البشري.
- استخدامات علم الاجتماع: من ناحية استخدامات علم الاجتماع، فهناك أيضا خلاف بين علماء الاجتماع حول مفهوم الاستخدام الملائم لعلم الاجتماع، فهناك من ناحية علماء الاجتماع الذين يعتبرون أن هدف أبحاثهم هو فهم الحياة الاجتماعية، وهؤلاء يعتقدون أن نتائج أبحاثهم إنما هي مجرد نتائج علمية تنتمي إلى المجتمع العلمي الأكاديمي وللعالم ككل، وبالتالي يمكن لأي كان استخدامها لأي غرض. وفي المقابل فإن علماء الاجتماع الذين يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن التقصي حول الظروف الاجتماعية المؤذية يعتقدون أن علماء الاجتماع هم بمثابة رأس الحربة في عملية الإصلاح الاجتماعي، وبالتالي ينبغي عليهم استخدام المعرفة المترتبة عن أبحاثهم لتقليل معاناة البشر وجعل المجتمع مكاناً أفضل للعيش.

## 5. المنطلقات النظرية لعلم الاجتماع

النظرية في علم الاجتماع هي عرض لكيفية ارتباط مجموعة من الأجزاء بعضها مع بعض وكيفية عملها حيث تفسر كل نظرية علاقة حقيقتين أو أكثر بعضها مع بعض وقد طور علماء الاجتماع ثلاثة نظريات أساسية نستعرضها فيما يلي :

1. التفاعل الرمزي
2. التحليل الوظيفي
3. نظريات الصراعات

### 1.5. نظرية التفاعل الرمزي

تعود أصول نظرية التفاعل الرمزي إلى الفلاسفة الأخلاقيين الاسكتلنديين في القرن الثامن عشر، حيث لاحظ هؤلاء الفلاسفة أن أفراد المجتمع غالباً ما يقيمون سلوكهم وذلك بمقارنة أنفسهم مع الآخرين.

وتدرس نظرية التفاعل الرمزي طريقة استخدام البشر للرموز لتطوير وجهات نظرهم حول العالم وللتواصل مع باقي أفراد المجتمع. وبدون الرموز، تفقد حياتنا خصوصيتها وتعقيدها اللذين يميزانها عن حياة الحيوانات، فمثلاً بدون الرموز، لا يبقى هناك في المجتمع أي أعمام أو خالات، أساتذة وأطباء، أو حتى إخوة وأخوات، حيث تلعب الرموز الدورين الأساسيين التاليين:

1. تعريف وتمييز العلاقات ضمن المجتمع: الرموز هي التي تعرف لنا ماهية العلاقة التي تربطنا بباقي أفراد المجتمع ورغم أن التكاثر الإنساني سيستمر في غياب الرموز، إلا أنه لن يعود بمقدور البشر تحديد العلاقات التي ربطهم بعضها.
2. تمييز وتعريف المجتمع نفسه: لا يقتصر دور الرمز على تعريف وتمييز العلاقات ضمن المجتمع، بل هي مسؤولة أيضاً عن تمييز وتعريف المجتمع نفسه فبدون الرموز لا يمكننا تنسيق تصرفاتنا مع تصرفات الآخرين وبالتالي لا يعود بمقدورنا وضع أي خطة مستقبلية وبالتالي فإن وجود المجتمع نفسه يصبح عرضة للزوال، حيث لا يعود بمقدور أفراده بناء أية مشاريع أو أية بنى تحتية كما لا يعود بإمكانهم القيام بأي نشاط فني أو إنساني.

تحلّل نظرية التفاعل الرمزي الكيفية التي يعتمد بها سلوكنا على الطريقة التي نعرف بها كل من أنفسنا والآخرين من حولنا حيث تدرس كل من التفاعل المباشر (وجهاً لوجه)، والكيفية التي يدير بها الأفراد علاقاتهم المختلفة والطريقة التي يدركون بها معنى الحياة ومكانهم فيها.

إن الحقائق لا تفسر نفسها ففي حياتنا اليومية نقوم بتفسير ما نلاحظه بوساطة حسنا السليم حيث نضع ملاحظاتنا أو الحقائق التي ندركها عن العالم في إطار من الأفكار المترابطة لهذه الدرجة أو تلك يقوم علماء الاجتماع بأمر مشابه لما يقوم به الإنسان العادي حيث يصيغون ملاحظاتهم ضمن أطر تُسمى نظريات، حيث تعرف النظرية بأنها عرض لكيفية ارتباط مجموعة من الأجزاء بعضها مع بعض وكيفية علمها حيث تفسر كل نظرية علاقة حقيقتين أو أكثر بعضها مع بعض.

باختصار، تحلّل نظرية التفاعل الرمزي الكيفية التي يعتمد بها سلوكنا على الطريقة التي نعرف بها كل من أنفسنا والآخرين من حولنا حيث تدرس كل من التفاعل المباشر (وجهاً لوجه)، والكيفية التي يدير بها الأفراد علاقاتهم المختلفة والطريقة التي يدركون بها معنى الحياة ومكانهم فيها ومن ثمّ فإن النفس بالنسبة لهذه النظرية هي رمز أيضاً لأنها تتألف من مجموعة من الأفكار التي نكونها حول من نكون كما أن النفس هي رمز متغير حيث أننا نتفاعل باستمرار مع بقية أفراد المجتمع، مما يؤدي بنا إلى تغيير قناعاتنا التي نبنيها على أساس تفسيرنا لردود أفعال الآخرين تجاهنا.

## 2.5. نظرية التحليل الوظيفي

تتمركز نظرية التحليل الوظيفي حول فكرة أن المجتمع هو عبارة عن وحدة متكاملة، مؤلفة من مجموعة من الأجزاء المتداخلة والتي تعمل بعضها مع بعض.وتعود جذور نظرية التحليل الوظيفي، والتي تعرف أيضا باسم الوظيفية أو الوظيفية البنيوية، إلى البدايات الأولى لعلم الاجتماع حيث نجد أن مفهوم المجتمع لدى كل من كونت وسبنسر يتجلى بشكل قريب من أشكال النظم العضوية الحية حيث يعتبر كل منهما المجتمع مثله مثل الجسم البشري أو الحيواني، مؤلفاً من عدد من الأعضاء التي تعمل بعضها مع بعض فعلى نسق الأجسام الحية، لابد أن تعمل جميع أجزاء المجتمع بشكل متوافق بعضها ما بعض حتى يمكن للمجتمع تسيير أموره بسلاسة.

لقد اعتبر إميل دوركهايم أن المجتمع يتألف من العديد من الأجزاء، لكل منها وظيفته الخاصة به وعندما يقوم كل جزء بأداء وضيفته المخصصة على النحو المطلوب يكون المجتمع في حالة عادية أما إذا لم تقم هذه الأجزاء بوظائفها بشكل ملائم يكون المجتمع في حالة شاذة أو مرضية ومن ثمّ ينبغي دراسة كل من:

- بنية المجتمع (كيفية ارتباط كافة أجزاء المجتمع لتشكل وحدة متكاملة)
- الوظيفة (وظيفة كل جزء في المجتمع، وتأثيره على كامل المجتمع).

أما روبرت ميرتون فقد استخدم مصطلح الوظائف إلى الإشارة إلى العواقب ذات النفع التي تنجم عن تصرفات أفراد المجتمع وعلى العكس، يحث الاختلال الوظيفي كنتيجة للعواقب الضارة بالمجتمع، حيث يفقِدُ هذا الاختلالُ النظامَ توازنَه ورفض روبرت ميرتون (Robert Merton 1910–2003) تشبيه المجتمع بالوحدة العضوية، إلا أنه حافظ على جوهر النظرية الوظيفية – أي صورة المجتمع ككل مؤلف من أجزاء تعمل بعضها مع بعض حيث تساعد الوظيفية على الحفاظ على توازن المجموعات (أي المجتمع أو النظام الاجتماعي). وعلى العكس، يحدث الاختلال الوظيفي كنتيجة للعواقب الضارة بالمجتمع، حيث يفقِدُ هذا الاختلالُ النظامَ توازنَه.

ويمكن أن تكون الوظائف في المجتمع جلية أو كامنة.:

1. وظائف جلية: عندما يكون القصد من التصرف مساعدة أحد أطراف المجتمع فإذا أريد من التصرف مساعدة أحد أطراف المجتمع، يكون هذا التصرف وظيفة جلية. فمثلاً، إذا أرادت الحكومة تقديم دعم مالي لمساعدة الأسر الفقيرة، فإن نية، أو الوظيفة الجلية، لهذا الدعم الذي تقدّمه الحكومة هو تحسين وضع الأسر الفقيرة.
2. وظائف كامنة: العواقب غير المقصودة التي تنجم عن هذه التصرفات وتساعد على ضبط وتسوية المجتمع وقد لاحظ ميرتون أيضاً أن تصرفات أفراد المجتمع تحمل في طياتها وظائف كامنة، وهي العواقب غير المقصودة التي تنجم عن هذه التصرفات وتساعد على ضبط وسوية المجتمع فبفرض أن الدعم الحكومي السابق قد ساعد فعلاً على رفع سوية العائلات الفقيرة في المجتمع، فإن هذا قد يرفع بدوره من مستوى البضائع التي تقدر هذه العائلات على شرائها، وترتفع بالتالي نسبة شراء البضائع الكمالية. إن هذه الزيادة غير المقصودة في مبيعات البضائع الكمالية هي بمثابة وظيفة كامنة للدعم الحكومي للأسر الفقيرة.

واخيرا نشير الى بعض تصرفات الأفراد الضارة بالمجتمع، التى غالباً ما تكون غير مقصودة. ويدعو ميرتون هذه التصرفات بالخلل الوظيفي الكامن لأن التصرفات المؤذية غالباً ما لا تكون مقصودة.

### 3.5. نظرية الصراعات :

تقدّم نظرية الصراعات وجهة نظر ثالثة حول الحياة الاجتماعية وعلى عكس أصحاب النظرية الوظيفية الذين ينظرون إلى المجتمع على أنه وحدة متآلفة تعمل أجزاؤها بشكل متناسق بعضها مع بعض، يؤكد مؤيدو نظرية الصراعات على فكرة أن المجتمع مؤلف من مجموعات متورطة في تنافس عنيف فيما بينها للسيطرة على الموارد النادرة.

عاصر، كارل ماركس، مؤسس نظرية الصراعات، الثورة الصناعية التي غيرت أوروبا بالكامل فقد شهد ظروف العمل السيئة التي رزح تحتها الفلاحون الذين هاجروا من أراضيهم بحثا عن فرص العمل في المدن وبتأثير الصدمة التي ولدتها في نفسه الفروق الهائلة بين طبقتي الملاك والعمال، طوّر ماركس نظرية الصراع الطبقي حيث استنتج ماركس أن العامل الأساسي في رسم تاريخ المجتمعات هو الصراع الطبقي ففي كل مجتمع تتحكم أقلية من الأفراد بوسائل الإنتاج وتقوم باستغلال بقية الأفراد الذين لا يمتلكون مثل هذه الوسائل وفي المجتمعات الصناعية، يقوم الصراع بين الطبقة البرجوازية أو طبقة الرأسماليين، وطبقة البروليتاريا يتحكم الرأسماليون كذلك بالسلطة السياسية في مثل هذه المجتمعات، بحيث إذا ما أراد العمال الثورة على واقعهم، أمكن لهؤلاء الرأسماليين استدعاء السلطات لإيقافهم عند حدهم.

أما اليوم فيستخدم بعض الباحثين الاجتماعيين المعاصرين نظرية الصراعات بمفهوم أوسع بكثير من المفهوم الأصلي التي بناها ماركس عليه حيث يعتبر هؤلاء الباحثين أن هناك صراعات قائمة في كافة مناحي الحياة المتعلقة بالسلطة. وبالتالي فإن السلطة، من منظور هؤلاء الباحثين، أو القوة التي يعتبرها أفراد المجتمع شرعية، تتخلل كافة طبقات المجتمع. حيث يحاول الأفراد ذوو السلطة في المجتمع فرض طاعتهم على الآخرين، مما يولد بدوره لدى هؤلاء الآخرين شعورا بالاستياء والرفض. وبالنتيجة يستمر الصراع بين كافة طبقات المجتمع للفوز بالسلطة.

# الفصل الثاني: الثقافة

## الكلمات المفتاحية

الثقافة، الثقافة المادية، الثقافة الرمزية، الصدمة الثقافية، المركزية الإثنية، النسبية الثقافية، حركات الجسد، اللغة، القيم، المعايير، القوانين، طرق السلوك، العادات، الأعراف، الثقافة الفرعية، الثقافة المضادة، علم الاجتماع البيولوجي، التفاوت القافي، التحول الثقافي، التقارب الثقافي.

## ملخص

تعرض هذه الوحدة إشكالية مفهوم الثقافة، وتجري مقاربة هذا المفهوم من خلال وصفه ودراسة مكوناته المختلفة، وذلك بالاعتماد على الملاحظة كما تتعرض الوحدة لدراسة جانبي الثقافة المادي وغير المادي (أو الرمزي)

## أهداف تعليمية

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

- مفهوم الثقافة
- مكونات الثقافة
- نسبية الثقافة
- وظائف اللغة
- مفهوم الثقافة الفرعية والثقافة المضادة
- مبدأ علم الاجتماع البيولوجي
- مفهوم التقارب الثقافي

## المخطط

- مفهوم الثقافة
- مكونات الثقافة الرمزية
- الثقافة الفرعية والثقافة المضادة
- علم الاجتماع البيولوجي والسلوك الإنساني

# 1. مفهوم الثقافة

## 1.1. ما هي الثقافة

إشكالية مفهوم الثقافة، يشكل تعريف هذا المفهوم إشكالية تواجه علماء الاجتماع، ولذلك فإنه من الأفضل مقاربة هذا المفهوم بمحاولة وصفه بدلاً من محاولة تعريفه. لنفترض أنك تصادف امرأة شابة من الهند وصلت لتوها إلى الولايات المتحدة الأمريكية للمرة الأولى في حياتها، ستلاحظ مباشرة ومن اللحظة الأولى، أن ثقافتها مختلفة عن ثقافتك، وسيسترعي انتباهك في البداية ملابسها ومجوهراتها ونمط تصفيف شعرها، وستسمع بعد ذلك كلامها، لتلاحظ بعد ذلك حركاتها، وقد تسمعها فيما بعد وهي تعبر عن معتقدات حول هذا العالم، أو حول ما تجده قيماً في هذه الحياة. وستكون هذه المعتقدات، على الأرجح، غير مألوفة بالنسبة لك. تُعتبر كل هذه الملامح مؤشرات ثقافية، وهي تشمل اللغة والمعتقدات والقيم والمعايير والسلوك، بل حتى الأشياء المادية التي تنتقل من جيل لآخر.

لكل مجموعة بشرية ثقافتها الخاصة والتي تنطوي على جانبين:

- الجانب المادي: وهو يشمل الأشياء، كالمجوهرات والمنتجات الفنية والأبنية والأسلحة والآلات، وحتى أواني الطعام والألبسة وأساليب تصفيف الشعر.
- الجانب غير المادي (أو الثقافة الرمزية): ويشمل هذا الجانب طرق التفكير التي تتبناها المجموعة (بما في ذلك المعتقدات والقيم والمسلمات الأخرى بخصوص العالم)، وطرق السلوك والتصرف (أي أنماط السلوك الشائعة، بما في ذلك اللغة وأشكال التفاعل الأخرى)

## 2.1. الثقافة والمعتقدات الراسخة

كيف تؤثر الثقافة على حياة الأشخاص؟

يتعامل كل منا مع مكونات ثقافته الخاصة على أنها مسلمات فيحترمها ويطبق ما تقتضيه دون طرح أية تساؤلات.

وتؤثر الثقافة على كل ما له علاقة بمن نكون وماذا نكون، إذ تبدأ حياة كل منا بدون لغة أو قيم أو أخلاق، وبدون أية أفكار حول الدين أو الحرب أو المال أو الحب أو غيرها؟ ونميز المراحل الآتية :

- الثقافة الداخلية
- الصدمة الثقافية
- المركزية الإثنية

- الثقافة الداخلية: هي كل ما نتعلمه أثناء الصغر من المحيط الذي نعيش فيه، ونفترض أنه طبيعي أو عادي نأخذ فيما بعد، أثناء الصغر، كل هذه المكونات من المحيط ونتعامل معها كمسلمات، لتتحول فيما بعد إلى العدسة التي نرى من خلالها ما يجري حولنا ونطلق أحكامنا عليه، ولتشكل هذه المكونات مجتمعةً ما يمكن أن نسميه ثقافة داخلية.
- الصدمة الثقافية: ويتعرض المرء عند الانتقال إلى مجتمع آخر لما ندعوه الصدمة الثقافية، وهي الإرباك الذي يشعر به الشخص عند الاحتكاك بثقافة تختلف عن ثقافته اختلافاً جذرياً، حيث يجد أنه لم يعد بإمكانه الاعتماد على مسلماته الأساسية التي يؤمن بها لمواجهة المواقف الجديدة.
- المركزية الإثنية: من أهم ما ينتج عن هذه الثقافة الداخلية ما ندعوه بالمركزية الإثنية (ethnocentrism)، وهي الميل إلى استخدام معتقدات وأساليب المجموعة التي نعيش ضمنها للحكم على الآخرين ومع ما لهذا الميل من أثر إيجابي من حيث ضمان الانسجام بين أفراد المجموعة الواحدة وضمان ولاء كل فرد لمجموعته، لكنه قد يقود بالمقابل إلى تقييم سلوك الأخرين وقيمهم ومعتقداتهم تقييماً سلبياً.

### 3.1. ملاحظات أساسية

نخلص مما تقدم إلى الملاحظات الأساسية التالية:

1. لا شيء طبيعي في الثقافة
2. تدخل الثقافة عميقاً في تفكيرنا، وتصبح مسلمات نرى الحقائق من خلالها
3. تزودنا الثقافة بطرق ضمنية مستترة تشكل أساساً لعملية اتخاذ القرارات
4. تُعرِّف الثقافة واجباً أخلاقياً من خلال تعريف الطريقة الصحيحة للسلوك
5. يشكل الاحتكاك بثقافة مختلفة جذرياً عن ثقافتنا تحدياً لمسلماتنا الأساسية حول الحياة
6. لكل شعب، دون استثناء، ثقافته
7. تعيش كل المجموعات حالة المركزية الإثنية، التي لها جوانب إيجابية وأخرى سلبية

### 4.1. النسبية الثقافية

وتعني أن نحاول فهم ثقافة ما باستخدام مفرداتها ومكوناتها ذاتها، أي بالنظر إلى كيفية تكامل وتراكب عناصرها الذاتية، دون الحكم على هذه العناصر بأنها أفضل أو أسوأ من عناصر ثقافتنا.
فعلي سبيل المثال، تختلف معايير الجمال بشدة بين ثقافة وأخرى، فما قد تعتبره مجموعة ما جذاباً، قد لا تجده مجموعات أخرى كذلك، وتعتقد كل مجموعة أن معاييرها هي الأفضل.

## 2. مكونات الثقافة الرمزية

الرمز هو ما يربط به أفراد المجموعة معنى ما ويستخدمونه للتواصل فيما بينهم.
يشير علماء الاجتماع في كثير من الأحيان إلى الثقافة غير المادية باسم الثقافة الرمزية، إذ تحتل الرموز التي يستخدمها الأشخاص موقعاً مركزياً في هذه الثقافة والرمز هو ما يربط به أفراد المجموعة معنى ما ويستخدمونه للتواصل فيما بينهم وتشكل الرموز أساس الثقافة غير المادية، وهي تتضمن حركات الجسد، واللغة، والقيم، والمعايير، والقوانين، وطرق السلوك، والعادات والأعراف.

### 1.2. حركات الجسد

قد يستخدم الأفراد أجسادهم للتواصل مع الآخرين، وتشكل هذه الحركات طرق مختصرة مفيدة لتبادل الرسائل دون استخدام الكلمات، وقد يختلف معنى الحركة نفسها من ثقافة لأخرى، مما قد يؤدي أحياناً إلى سوء الفهم لدى احتكاك فرد من مجموعة ما بأفراد من مجموعة أخرى.
بالمقابل تعبر بعض الحركات عند الإنسان عن مشاعر أساسية يشعر بها كل البشر، كالحزن والغضب والخوف، وتبدو هذه الحركات فطرية ومشتركة بين الجميع لأن أساسها يكمن في بيولوجية الجسم البشري.

## 2.2. اللغة

اللغة هي الوسيلة الرئيسية للتخاطب حيث تلعب الحركات دوراً مساعداً وهي مرتبطة بالكلمات ولكل مجموعة بشرية لغتها الخاصة

يمكننا أن نلاحظ وجود شكل من التلازم بين الحركات والكلمات، وهذا ما يتضح لنا ببساطة عندما نراقب شخصاً يتكلم. ونستخدم الحركات لإكمال ما نقوله بالكلمات، ولإعطاء فهم أعمق لما نرغب بإيصاله للآخرين.

تشكل اللغة الوسيلة الرئيسية التي يتخاطب بها الناس فيما بينهم، وهي عبارة عن مجموعة رموز يمكن تجميعها وتركيبها بعدد غير منته من الطرق بهدف التعبير عن الأفكار المجردة ونقلها.

وكل كلمة هي في الواقع رمز، أو صوت، ربطنا به معنى محدد. وتعتبر اللغة كونية من حيث أنه لكل مجموعة بشرية لغتها، لكن لا شيء عام فيما يخص المعاني التي نربطها بأصوات محددة وكما هو الحال بالنسبة للحركات، فقد يختلف معنى الصوت نفسه من لغة لأخرى.

تشكل اللغة الوسيلة الرئيسية للتخاطب بين أفراد المجموعة البشرية، وهي تؤدي نتيجة لهذا الدور المركزي مجمعة من الوظائف الهامة يمكن تعدادها فيما يلي:

- تراكم اللغة الخبرة البشرية: تمكننا اللغة من نقل الأفكار والمعارف إلى الأجيال اللاحقة بما يمكنها من الاستفادة من تجارب مر بها الأسلاف، وقد لا تمر بها الأجيال اللاحقة إطلاقاً، الأمر الذي يمكنها بالنتيجة من البناء على نتائج تلك التجارب وتسمح إجرائية البناء هذه للإنسان بأن يعدِّل سلوكه في ضوء ما تعلمته الأجيال السابقة وبدون اللغة تصبح الثقافة البشرية أفضل قليلاً من ثقافة الثدييات الدنيا، فبغيابها تصبح إمكانية التواصل بين البشر مقتصرة على أحداث تنتمي إلى مجال زمني صغير الأحداث التي تجري في الحاضر، وتلك التي حدثت للتو، أو تلك التي ستحدث في المستقبل القريب جداً.
- تحفظ اللغة التاريخ المشترك أو المجتمعي: وبدون اللغة تصبح ذاكرتنا محدودة للغاية، إذ تسمح لنا اللغة بمناقشة أحداث جرت في الماضي والتوافق بشأنها، وبذلك نكون فهماً مشتركاً لما تعنيه تلك الأحداث.
- توفر اللغة وسيلة لبناء مستقبل مشترك: توسع اللغة آفاقنا الزمنية المستقبلية، فهي تمكننا من الاتفاق على المواعيد والأمكنة، كما تمكننا من التخطيط للأنشطة التي سنقوم بها.

- تسمح اللغة بمشاركة وجهات النظر: تشكل اللغة عنصراً حيوياً بالنسبة للبشر، فهي لا تميزنا عن الحيوانات فحسب، بل تؤدي دوراً أبعد من ذلك بكثير فمن خلال الحديث نتبادل الأفكار المتعلقة بأحداث معينة، ونشارك بذلك الآخرين وجهات نظرنا فكلماتنا هي وعاء تجاربنا الذي يضعها في صيغ تسمح بتبادلها وفهمها، وهذا هو أساس الحياة الاجتماعية.
- تصوغ اللغة الأهداف وتبني سلوكا معقدا: يمكننا الفهم المشترك للقضايا من تأسيس أهداف تجمعنا، وتمكننا اللغة من توحيد سلسلة من الأنشطة المستقلة التي يقوم بها كل فرد في نشاط واحد أكبر يسمح بتحقيق هدف عام على مستوى المجموعة ككل.

وتستخدم اللغة للتعبير عن التفكير والإدراك، غير أن بعض العلماء بنوا نظريات مبالغا فيها حول دور اللغة في تحديد الوعي والإدراك. ومن هؤلاء العالمان سابير و وورف (Sapir – Whorf) اللذان بنيا نظريتهما على معطيات تبين فيما بعد انها مغلوطة. ففي عام 1930 لاحظ عالما الأنتروبولوجيا هذان أنه ليس لدى هنود جنوب غرب الولايات المتحدة كلمات للتمييز بين الماضي والحاضر والمستقبل كما هو الحل في اللغات الأخرى. وانطلاقاً من هذه الملاحظة استنتج العالمان خطأ الفكرة القائلة أن الكلمات هي علامات يقرن بها الأشخاص أشياء محددة بل تتضمن اللغة أيضاً طريقة النظر إلى العالم وبالتالي فاللغة لا تُستخدم فقط للتعبير عن التفكير والإدراك، بل أيضاً لتشكيلهما فعندما نتعلم لغة ما لا نتعلم مجرد كلمات وحسب، بل نتعلم أيضاً طرق معينة للتفكير والإدراك. وإذا أردنا دفع هذه الفرضية إلى نهايتها، نقول إن اللغة هي التي تحدد وعينا وادراكنا للأشياء والأحداث لكن تبين فيما بعد أن Sapir و Whorf كانا على خطأ. وتتلخص نظرية هذين العالمين بالنقاط الآتية:

- تتضمن اللغة طريقة المجموعة في النظر إلى العالم وإدراكه
- تُستخدم اللغة لبناء آليات التفكير وتشكيل الإدراك
- تحدد اللغة وعينا وإدراكنا للأشياء والأحداث

### 3.2. القيم، المعايير، القوانين

- القيم هي المقاييس التي يميز الناس بواسطتها بين الجيد والسيئ. أن تتعلم ثقافة مجموعة ما يعني أن تتعلم قيمها، وأن تفهم ما تعتقد هذه المجموعة أنه الأفضل لحياتها فعندما نكتشف قيم مجموعة ما نتعلم عنها الكثير لأن القيم هي المقاييس التي يميز الناس بواسطتها بين الجيد والسيئ، بين الجميل والقبيح فالقيم هي التي تحدد ما نفضله، وهي التي توجه خياراتنا، وتحدد ما له قيمة في الحياة.
- المعايير هي قواعد السلوك التي تضمن احترام قيم المجموعة. تطور كل مجموعة توقعات بخصوص الطريقة الصحيحة التي تضمن احترام قيمها، ويستخدم علماء الاجتماع كلمة المعايير للإشارة إلى هذه التوقعات، أو قواعد السلوك، التي تتطور انطلاقاً من قيم المجموعة.
- القوانين هي ردود الأفعال التي يجب أن تبديها المجموعة إزاء من يحترم المعايير أو من يخرقها (القانون الإيجابي، القانون السلبي. ويشير مصطلح القوانين إلى ردود الأفعال التي يجب أن تبديها المجموعة إزاء من يحترم تلك المعايير أو من يخرقها.

  وللقوانين شكلان، فهناك القانون الإيجابي، وهو الذي يعكس مصادقة المجموعة على احترام معيار ما وهناك القانون السلبي، وهو الذي يعبر عن عدم موافقة المجموعة على خرق معيار ما.

  يمكن أن يكون القانون الإيجابي مادياً، كمكافأة مالية، لكن يُعبر عنه عادة في الحياة اليومية بتهنئة أو ابتسامة أو مصافحة.

  كذلك الأمر بالنسبة للقانون السلبي، فقد يكون مادياً، كمحاكمة شخص في محكمة، لكنه يأخذ في الحياة اليومية صيغة رمزية أكثر، كالتأنيب.

ويشعر الناس غالباً بثقل وطأة المعايير ولذلك طورت بعض الثقافات وسيلة لتخفيف هذا الضغط عبر ما يُعرف بالعطلة الأخلاقية، وهي أوقات محددة يُسمح فيها للناس باختراق القوانين وعدم احترام المعايير لكن طبعاً ضمن حدود معينة.

### 4.2. قواعد السلوك العامة والأعراف

- قواعد السلوك العامة (أو العادات): وهي المعايير التي تتوقع المجموعة أن يلتزم بها أفرادها. ثمة معايير وقواعد لا تفرض الثقافات أو الحكومات تطبيقها بشدة، وهي ما ندعوه قواعد السلوك العامة (أو العادات)، ونتوقع عادة من الناس احترام هذه القواعد، لكن عدم احترامهم لها لا يدفع بالمجموعة إلى إبداء ردود فعل شديدة، مع أنها تستهجن خرقها.
- الأعراف: هي المعايير التي تتعامل معها المجموعة بجدية أكثر وتصرّ على احترامها، ونعتقد أنها أساسية بالنسبة لقيمنا ونصرّ على احترامها، وهي ما ندعوه بالأعراف. تجدر الإشارة إلى أن عادات مجموعة ما قد تكون أعرافاً لدى مجموعة أخرى.
- التابو (أو المحرمات): وهي المعايير المتأصلة في المجموعة، والتي يثير مجرد التفكير بخرقها ردود فعل قوية.

## 3. الثقافات الفرعية والمضادة والكونية :

الثقافة الفرعية:

هي الثقافة التي تبنيها مجموعة جزئية من المجموعة الكلية تحت تأثير تجاربها الخاصة وتمثل الثقافة الفرعية عالماً ضمن عالم ثقافي أكبر وأوسع، وهي تتألف من الناس الذين قادتهم تجاربهم إلى بناء طرق مختلفة للنظر إلى الحياة، أو إلى بعض مناحيها.

تظهر الثقافة الفرعية نتيجة لعوامل داخلية وتظهر في كل مجتمع مجموعات ثقافية فرعية تبعاً لمجموعة من العوامل الداخلية، فغالباً ما يكوِّن أصحاب بعض المهن الخاصة ثقافات فرعية خاصة بهم، ففي معظم المجتمعات، إن لم يكن في كلها، نلاحظ أن نظرة الأطباء للحياة تختلف قليلاً عن نظرتنا لها، وهو يشكلون بذلك مجموعة ذك ثقافة فرعية نلاحظ الأمر نفسه على الأغلب بالنسبة للفنانين، الذين يصل تميزهم إلى حد تسمية مجموعتهم بمجتمع الفنانين، وكأنه مجتمع خاص قائم بذاته ومن العوامل الهامة الأخرى التي تساعد على ظهور الثقافات الفرعية، نذكر الانتماءات العرقية أو الدينية، ونلاحظ في معظم المجتمعات كيف تحاول المجموعات الدينية أو العرقية (خاصة إذا كانت من الأقليات) الحفاظ على عاداتها وتقاليدها وفي بعض الأحيان لغاتها.

الثقافة المضادة:

هي الثقافة الفرعية التي تتعارض بعض قيمها مع قيم المجموعة الكلية. تنسجم في معظم الأحيان، قيم ومعايير الثقافة الفرعية مع التيار الثقافي العام في المجتمع، لكن في بعض الأحيان قد تتعارض بعض قيم المجموعة الثقافية الفرعية مع قيم الثقافة العامة المهيمنة، وتشكل عندئذ ما ندعوه بالثقافة المضادة، لكن ليس من الضروري أن تلعب الثقافة المضادة دوراً سلبياً، ففي بعض الأحيان تساهم في تغيير بعض قيم المجتمع الأساسي.

الثقافات الكونية:

في غمرة هذا التنوع المذهل من الثقافات البشرية حول العالم، هل ثمة وجود لثقافة كونية شاملة؟ هل يمكن أن نجد قيماً ومعايير، أو أية ملامح ثقافية أخرى، سائدة في كل مكان؟

للإجابة على هذا السؤال قام عالم الأنتروبولوجيا George Murdock (1945) بدراسة معطيات ومعلومات جمعها علماء الأنتروبولوجيا من مئات المجموعات حول العالم وقام بمقارنة العادات والأعراف التي تتعلق بنشاطات إنسانية معروفة كالمغازلة، والزواج، ودفن الموتى، والألعاب، والقوانين، والموسيقى، والأساطير، والمحرمات ذات الصلة بسفاح القربى وقد وجد أنه بالرغم من وجود كل هذه الأنشطة في كل الثقافات، إلا أن العادات المحددة المرتبطة بكل منها تختلف من مجموعة لأخرى إذ لا يوجد شكل عام واحد للعائلة، ولا طريقة واحدة لدفن الموتى كذلك الأمر بالنسبة للألعاب والأغاني والحكايات المرورية، فهي تختلف من ثقافة لأخرى بالمثل أيضاً تتمايز المجموعات البشرية من حيث الطهي وأنواع الأطعمة التي تأكلها.

## 4. علم الاجتماع البيولوجي والسلوك الإنساني

### 1.4. تمهيد

هناك جدل حول السؤال هل نحن أسرى جيناتنا؟ لنرى كيف يجيب علم الاجتماع على هذا السؤال.

1. علم الاجتماع البيولوجي (الداروينية الجديدة):

- إن بيولوجية الجسم البشري هي التي تحدد السلوك الإنساني، وهي تخضع لمبدأ الاصطفاء الطبيعي
- لا يقتصر مبدأ الاصطفاء الطبيعي على تفسير الخصائص الفيزيائية للحيوانات، بل يشمل أيضاً سلوكها

2. علم الاجتماع التقليدي:

- الفكرة القائلة إن السلوك الإنساني عائد كلياً للبرمجة الجينية فكرة سخيفة
- الاعتراف بأن البنية الجينية للجسم تلعب دوراً هاماً في تحديد السلوك الإنساني
- يمتلك الإنسان ذاتاً وأفكاراً مجردة

على ضوء نتيجة هذا الجدل يتحدد الموقف من بعض أنماط السلوك (مثال: مثليي الجنس).

نعرض في هذا الفصل وجهة نظر يدعمها معظم علماء الاجتماع حول العالم، ومفادها أن الثقافة هي المحرّك الأساسي للسلوك الإنساني، وهي التي تبرّر تحبيذ أفعل معينة ونبذ أفعل أخرى.

يقف، على الطرف المقابل لوجهة النظر هذه، مجموعة من علماء الاجتماع يدعمون ما يسمونه علم الاجتماع البيولوجي، ويُعرَف هذا العلم أيضاً باسم الداروينية الجديدة، وهم يتبنون وجهة نظر مثيرة للجدل، فهم يعتقدون أن بيولوجية الجسم البشري هي التي تحدد السلوك الإنساني، وهي تخضع لمبدأ الاصطفاء الطبيعي.

وقد أشار داروين، صاحب فكرة الاصطفاء الطبيعي، إلى أن جينات جنس من الأجناس ليست موزعة بانتظام بين أفراد هذا الجنس، فالخصائص التي يرثها بعض الأعضاء ترفع من قدرتهم على البقاء، ويرتفع بذلك احتمال توريثهم لهذه الملامح الجينية إلى الجيل التالي، وبمرور آلاف الأجيال تنحو الملامح التي تساعد على البقاء إلى أن تصبح شائعة بين أفراد النوع، فيما تنحو تلك التي لا تساعد على البقاء نحو الزوال.

لا يقتصر مبدأ الاصطفاء الطبيعي على تفسير الخصائص الفيزيائية للحيوانات، بل يشمل أيضاً سلوكها، فعلى مر عدد كبير من الأجيال ظهرت الغرائز وتأصلت. يؤكد Edward Wilson (1975) أن السلوك الإنساني يخضع لقانون الاصطفاء الطبيعي فالسلوك الإنساني، من هذا المنطلق، لا يختلف عن سلوك القطط والكلاب والجرذان والبعوض.

واجهت أفكار ويلسون معارضة شديدة، لكنه مضى في أفكاره إلى حد القول بتفسير مجموعة أساسية من الميول التي تظهر لدى الإنسان بالاعتماد على مبادئ علم الاجتماع البيولوجي، وقد شمل بين هذه الميول الدين، والرغبة بالمنافسة أو بالتعاون، والانقياد للعبودية أو الرغبة بالإبادة الجماعية، والميل للحرب أو للسلم، والشعور بالحسد أو بالإيثار. وإذا كان السلوك الإنساني محدداً بدقة من خلال البرمجة الجينية لأجسادنا، فلا بد أن يطغى علم الاجتماع البيولوجي على كل من علم الاجتماع وعلم النفس وحتى الأنتروبولوجيا.

وقد رفض معظم علماء الاجتماع آراء ويلسون، ليس لأنها تهدد وجود اختصاصهم فحسب، بل لأنها تتجاهل جوهر ما يركزون عليه يطور البشر ثقافاتهم الخاصة، وطرق حياتهم الخاصة بهم. لكنهم يعترفون، في الوقت نفسه، أن البنية الجينية للجسم تلعب دوراً هاماً في تحديد السلوك الإنساني، فهي، على الأقل، سبب ظهور دماغ متطور يسمح بتطوير ثقافة بشرية وأفكار مجردة، ولولا وجود اللسان والحنجرة لما كان هناك وجود للكلام.

يعتبر معظم علماء الاجتماع أن الفكرة القائلة إن السلوك الإنساني عائد كلياً للبرمجة الجينية فكرة سخيفة، فالخنازير تتصرف كخنازير لأنها لا تملك قشرة دماغية وتتحكم الغرائز بسلوكها، كذلك الأمر بالنسبة للعناكب والفيلة. بالمقابل يمتلك الإنسان ذاتاً وأفكاراً مجردة، ويناقش البشر الأسباب الكامنة وراء ما يفعلون، وهم ينخرطون في عالم من الرموز التي تسمح لهم باتخاذ خيارك مبررة.

لقد تحول هذا الخلاف إلى ما هو أبعد بكثير من مجرد جدل أكاديمي بين علماء، وأصبح البعض ينتظر نتائج هذا الخلاف، كمثليي الجنس مثلاً. فإذا كانت المثلية الجنسية خياراً لنمط حياة فإن من يعتبر هذا النمط غير أخلاقي، سيستخدم هذه النتيجة كمبرر لاستبعاد مثليي الجنس من المشاركة في الحياة الاجتماعية. أما إذا كان سبب هذه الحالة جينياً فلن يكون هناك ما يبرر استبعادهم.

وحول هذه المسالة، يشير Peter Conrad (1997) إلى أن بعض مثليي الجنس لا يحملون الجين Xq28، بينما يحمل بعض الناس هذا الجين وليسوا مثليي الجنس. وبالتالي لا يمكن أن نعتبر هذا الجين مسؤولاً عن ذاك السلوك، ولا بد لنا من البحث عن أسباب اجتماعية مقبولة.

## 2.4. التقانات والقرية الكونية

- التقانات: الأدوات، والمهارات المستخدمة للاستفادة منها
- تشكل التقانات جزءاً هاماً من الثقافة المادية
- التقانة الحديثة: هي ما يؤثر بشدة على الحياة الاجتماعية في مرحلة ما

ترسم التقانة إطاراً لثقافة المجموعة غير المادية

تشكل حركات الجسد واللغة والقيم والعادات والأعراف التي درسناها، جزءاً من ثقافة رمزية، أو غير مادية، لكن للثقافة أيضاً جانب مادي، ويتجسد بالأشياء التي تملكها المجموعة وتعتبرها قيِّمة، من المنازل وحتى الألعاب وتشكل التقانات (أو التكنولوجيا) جزءاً أساسياً من ثقافة المجموعة المادية، وتتبدى التكنولوجيا بأبسط معانيها، بالأدوات وهي تتضمن، بمعناها الأوسع، المهارات أو الإجرائيات اللازمة للاستفادة من هذه الأدوات.

يمكن أن نستخدم مصطلح التقانة الحديثة للإشارة إلى التقانات المتنامية التي تؤثر بشدة على حياتنا الاجتماعية ويطور البشر بشكل دائم تقانات جديدة هي في معظمها تغييرات على التقانات الموجودة، إلا أنهم يطورون أحيانا تقانات تؤثر بشدة على حياتهم فمنذ حوالي 500 عام شكلت الصحافة المطبوعة تقانة حديثة، أما بالنسبة لنا اليوم، فتتمثل التقانة الحديثة بالحواسيب وصحون الاتصالات الفضائية والوسائط الإلكترونية الرقمية.

تتجاوز الدلالة الاجتماعية للتقانة الأدوات نفسها، إذ ترسم التقانة إطاراً لثقافة المجموعة غير المادية، فإذا تغيرت التقانة التي تستخدمها مجموعة تتغير بالنتيجة طرق تفكير الناس وكيفية ارتباطهم فيما بينهم فعلى سبيل المثال جرت العادة عبر القرون (وهي من مكونات الثقافة غير المادية) أن يهيمن الرجل على المرأة، أما الآن، وبوجود تقانات الاتصال الآني (وهي من مكونات الثقافة غير المادية) فقد أصبح الحفاظ على هذه العادة صعباً جداً.

## 3.4. التفاوت الثقافي والتحول الثقافي

وضع William Ogburn (1922/1938) مصطلح التفاوت الثقافي للإشارة إلى الحالة التي لا تتغير فيها كل أجزاء الثقافة بالسرعة نفسها.

تتغير عادةً ثقافة المجموعة المادية أولاً وتتأخر عنها الثقافة غير المادية، لتحاول فيما بعد اللحاق بها فعلى سبيل المثال، يمكنك أثناء المرض أن تُدخِل أعراض المرض إلى قاعدة معطيات حاسوبية لتحصل على التشخيص والعلاج المقترح، وقد تبين أن الحواسيب تتفوق على الأطباء في بعض الاختبارات، لكننا ما زلنا مع ذلك نفضل الذهاب إلى عيادة الطبيب.

## 4.4. التقانة والتقارب الثقافي

كانت الاتصالات خلال معظم التاريخ الإنساني الذي نعرفه محدودة جداً، كما كانت وسائل التنقل والسفر بطيئة للغاية ونتيجة لذلك فقد طورت المجموعات البشرية، في عزلتها النسبية، طرق حياة متمايزة جداً، إذ طورت كل مجموعة طرقها وثقافتها كاستجابة للظروف الخاصة التي واجهتها من الأمثلة الشهيرة هنا، مجموعة التاسمانيون الذين عاشوا في جزيرة بعيدة عن ساحل أستراليا، وبقوا لآلاف السنوات دون أي احتكاك بأناس آخرين، وقد كانوا معزولين لدرجة أنهم لم يعرفوا حتى كيف يصنعون الألبسة أو النار.

وباستثناء حالات نادرة كهذه، كان هناك دوماً اتصال ما بين المجموعات البشرية المختلفة، وعبر هذا الاتصال تعلمت كل مجموعة من غيرها، وربما تبنت جزءاً ما من نمط حياة مجموعة أخرى خلال هذه العملية، التي ندعوها الانتشار الثقافي، تكون المجموعات أكثر انفتاحاً على تعديل تقاناتها أو ثقافتها المادية.

أما اليوم، وبفضل التقانات المتقدمة في الاتصالات ووسائل النقل، فقد أصبح الانتشار الثقافي أكثر سرعة بكثير، حتى أن عبارة "في الجهة الأخرى من العالم" لم تعد مستخدمة، ونتيجة لذلك بدأ يحدث تقارب ثقافي بين الشعوب.

# الفصل الثالث: البنية الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي

## الكلمات المفتاحية

علم الاجتماع واسع النطاق، علم الاجتماع الصغري، التفاعل الاجتماعي، التركيبة الاجتماعية، الحضارة، الطبقة الاجتماعية، المنزلة الاجتماعية، المنازل المنسوبة، المنازل المكتسبة، رموز المنزلة، المنزلة الرئيسية، تضارب المنازل، الأدوار، المجموعات، المؤسسات الاجتماعية. التكافل الميكانيكي، التكافل العضوي، مجتمع المجموعة الأساسية، مجتمع العلاقات اللاشخصية، التفاعل الرمزي، الأنماط العامة، الحيز الشخصي، إدارة الانطباع، أداء الدور، توتر الدور، مركبات الإشارة، البناء الاجتماعي للواقع، نظرية توماس.

## ملخص

يتعرف الطلاب في هذه الوحدة على مستويات التحليل الاجتماعي بشكل مفصل، حيث تتناول الوحدة كلا من علم الاجتماع واسع النطاق الذي يهتم بطبيعة التركيبة الاجتماعية، ومؤسسات المجتمع الأساسية المختلفة. وعلم الاجتماع الصغري الذي يهتم بدراسة التفاعل الاجتماعي.

## أهداف تنظيمية

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

- مستويات التحليل الاجتماعي
- المنظور الاجتماعي واسع النطاق والتركيبة الاجتماعية
- مقومات التركيبة الاجتماعية
- المنزلة الاجتماعية وأهميتها
- المؤسسات الاجتماعية وأهميتها بالنسبة للمجتمعات الإنسانية
- الترابط الاجتماعي ونظرياته الأساسية
- المنظور الاجتماعي الصغري والتفاعل الاجتماعي
- التفاعل الاجتماعي في النظرية الرمزية
- فن التمثيل في التعبير عن الذات
- البناء الاجتماعي للواقع

## المخطط

- مستويات التحليل الاجتماعي
- المنظور الاجتماعي واسع النطاق
- المنظور الاجتماعي الصغري

## 1. مستويات التحليل الاجتماعي

يتمحور اهتمام علماء الاجتماع حول مستويين أساسيين للتحليل الاجتماعي يطلق عليهما اسم علم الاجتماع واسع النطاق (أو Macrosociology) و علم الاجتماع الصغري (أو Microsociology):

وتعتبر نظرية التفاعل الرمزي من أبرز الأمثلة التي توضح طريقة التحليل الصغرية هذه، حيث أنها تركز على التفاعل المباشر وجها لوجه بين أفراد المجتمع.

يركز كل من علم الاجتماع واسع النطاق و علم الاجتماع الصغري على محور مختلف من محاور علم الاجتماع، ولذا فإن اتباع إحدى هاتين الطريقتين يفضي إلى منظور اجتماعي مختلف عن منظور الطريقة الأخرى. ولابد بالتالي من اعتماد كلتا الطريقتين بهدف فهم الحياة الاجتماعية بصورة دقيقة وشاملة، حيث لا يمكننا فهم الظواهر الاجتماعية بالاستناد إلى إحدى هاتين الطريقتين دون الأخرى. يهتم علم الاجتماع الصغري بالتفاعل المباشر بين أفراد المجتمع بينما يركز علم الاجتماع واسع النطاق اهتمامه على الميزات العامة للمجتمعات

- علم الاجتماع واسع النطاق: يركز هذا المستوى، أي علم الاجتماع واسع النطاق، على ميزات وخصائص المجتمع العريضة حيث يهتم علماء الاجتماع الذين يتبعون مثل هذه الطريقة في التحليل بمبادئ واسعة النطاق، مثل الطبقات الاجتماعية وطبيعة علاقة المجموعات ضمن المجتمع ببعضها البعض وإذا ما قام علماء الاجتماع هؤلاء بتحليل ظاهرة اجتماعية، كظاهرة المشردين المتسولين على سبيل المثال، فإنهم سيركزون جل اهتمامهم على موقع هؤلاء الأشخاص كأفراد في أدنى طبقات المجتمع وذلك وفق النظام الطبقي في المجتمع المدروس حيث يحرم الوضع الاجتماعي المتدني لهذه الفئة أفرادها من العديد من فرص العمل فهم أقل تعليما من باقي فئات المجتمع، ولا يتمتعون بالمهارات الضرورية للعديد من الأعمال، كما أنه من النادر أن يجدوا من يرضى بتوظيفهم ولكن بسبب تمتع هؤلاء المشردين بصحة جيدة لا يحق لهم الاستفادة من المعونات الاجتماعية أو من المساعدات الإنسانية وبالتالي يكون على هؤلاء المتسولين في كفاحهم للبقاء على قيد الحياة أن يمضوا جل حياتهم في الشوارع بحثا عن لقمة العيش

  وتعتبر كل من نظرية الصراع الطبقية والنظرية الوظيفية من أبرز الأمثلة التي توضح طريقة التحليل واسعة النطاق هذه، حيث أنهما يركزان على دراسة الصورة الشاملة وتهدف هاتان النظريتان إلى دراسة قوى المجتمع واسعة النطاق التي تؤثر على حياة أفراد المجتمع.

- علم الاجتماع الصغري: يهتم علماء الاجتماع في المستوى الثاني، أي علم الاجتماع الصغري، بدراسة التفاعل الاجتماعي أي سلوك الأفراد تجاه الآخرين في حضورهم عندما يقوم علماء الاجتماع هؤلاء بدراسة ظاهرة المتسولين السابقة فإنهم غالباً ما يركزون على قواعد أو شفرة الاتصال التي يستخدمها هؤلاء المشردون في التواصل فيما بينهم، أو على الاستراتيجيات التي يتبعونها للبقاء على قيد الحياة، كيف يتوازعون المال فيما بينهم، علاقاتهم مع عائلاتهم وأصدقائهم وغيرها من مظاهر التفاعل الاجتماعي المختلفة.

## 2. المنظور الاجتماعي واسع النطاق

### 1.2. التركيبة الاجتماعية ومقوماتها

التركيبة الاجتماعية هي النماذج التقليدية أو النموذجية التي تتبعها مختلف المجموعات ضمن المجتمع المدروس مثل طبيعة العلاقة بين رجال هذا المجتمع ونسائه، أو طلابه ومعلميه. وتكمن الأهمية الاجتماعية للتركيبة الاجتماعية في كونها تقود سلوك وتصرفات أفراد المجتمع وحتى نفهم طبيعة السلوك البشري بشكل أفضل، ينبغي علينا أن نفهم التركيبة الاجتماعية، وهي هيكل المجتمع المسبق والموجود قبل ولادتنا. ونبين فيما يلي هذه المقومات .

أولاً الحضارة: تعتبر الحضارة الإطار الأوسع الذي يحدد مستقبل وجودنا كأفراد في المجتمع يصيغ أفراد المجتمع سلوكهم وتصرفاتهم حسب موضعهم في التركية الاجتماعية (إذا ما كانوا منذوي الامتيازات، أو من المحرومين، أو بين بين) حيث لا ترجع الاختلافات في السلوك أو المواقف الاجتماعية إلى التركيبة البيولوجية مثل (الجنس، العرق أو أية عوامل جينية أخرى) بل إلى مواقع الأفراد ضمن التركيبة الاجتماعية.
يستخدم علماء الاجتماع مصطلح الحضارة للإشارة إلى لغة المجموعات، معتقداتها، قيمها، وسلوكها كما تشمل الحضارة أيضا المواد والأغراض التي يستخدمها أفراد هذه المجموعات في مختلف مناحي حياتهم وتعتبر الحضارة الإطار الأوسع الذي يحدد مستقبل وجودنا كأفراد في المجتمع فإذا ما رُبّينا في إطار الحضارة العربية فإننا غالباً ما سننشأ كعرب حيث سنبدو من الخارج كعرب بأزيائنا ولغتنا، كما بسريرتنا عرباً أيضاً حيث سنفكر ونشعر كباقي العرب.

ثانياً الطبقة الاجتماعية: تتحدد الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها أي فرد من أفراد المجتمع بما يلي:

1. مقدار دخل هذا الفرد
2. مستواه الثقافي
3. مقامه المهني

حتى نفهم أفراد المجتمع ينبغي علينا أن ندرس مختلف المواقع الاجتماعية التي يشغلونها على امتداد حياتهم ولاسيما فيما يتعلق بطبقتهم الاجتماعية حيث يعتمد تحديد الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها أي فرد من أفراد المجتمع على مقدار دخل هذا الفرد، مستواه الثقافي، ومقامه المهني. تعتبر الطبقة الاجتماعية من أهم مظاهر التركيبة الاجتماعية، حيث لا يقتصر تأثيرها على طبيعة سلوك أفراد المجتمع وحسب بل يمتد ليشمل أفكارهم ومواقفهم أيضاً.

ثالثاً المنزلة الاجتماعية: غالبا ما تقترن كلمة المنزلة في أذهاننا بكلمة المقام أو الهيبة، إلا أن علماء الاجتماع يستخدمون مصطلح المنزلة الاجتماعية للإشارة إلى الموقع الذي يشغله فرد ما في المجتمع وقد يتمتع هذا الموقع بمقام و هيبة عاليين، كحالة القاضي أو رائد الفضاء مثلاً، كما قد يكون لهذا الموقع القليل من الهيبة ولا يكسب من يشغله مقاماً عالياً في مجتمعه، مثل موظفي المتاجر أو طهاة المطاعم السريعة وتعتبر المنزلة الاجتماعية. مثلها مثل باقي مقومات التركيبة الاجتماعية، جزءاً من الإطار العام لحياة الأفراد ضمن مجتمعاتهم حيث تلعب دوراً هاماً في توجيه سلوك ومشاعر هؤلاء الأفراد.

غالباً ما يشغل كل فرد من أفراد المجتمع عدة مواقع في الوقت نفسه حيث قد يكون ابناً وعاملاً وطالباً في آن واحد ويستخدم علماء الاجتماع مصطلح مجموعة المنازل للإشارة إلى مجمل المواضع والمنازل الاجتماعية التي يشغلها المرء في نفس الوقت:

المنزلة المنسوبة: هي منزلة إلزامية لا طوعية حيث لا يطلب منا الانتماء إلى مثل هذه المنزلة، كما لا يعود الاجتماعية كما يعتبر بعضها الآخر جزءاً من دورة الحياة الطبيعية، كأن نكون مراهقين أو عجزة الانتساب إليها أو التخلي عنها إلى قرارنا الحر يمكن وراثة بعض المنازل المنسوبة بالولادة مثل الجنس، العرق، وطبقة الوالدين.

المنزلة المكتسبة: منزلة طوعية اختيارية، يتم الوصول إليها نتاج الجهد الذي يبذله الفرد ضمن مجتمعه حيث يمكننا أن نكون طلاباً أصدقاءً، أو وزراءً وذلك حسب رغباتنا والجهود التي نبذلها.

لتحقيقها كما يمكن أن تضيع هذه المنزلة من الفرد إذا لم يبذل ما يكفي للحفاظ عليها فقد نصبح بسهولة متخلفين عن المدارس، أصدقاء سابقين، أو وزراء سابقين بعبارة أخرى يمكن للمنازل المكتسبة أن تكون سلبية أو إيجابية، فمثلاً نعتبر كلاً من منزلتي عميد الجامعة وسارق المصارف منزلة اجتماعية مكتسبة.

رموز المنزلة الاجتماعية: قد يرغب الأفراد الذين ينتمون إلى منزلة اجتماعية ما بأن يتمايزوا عن بقية أفراد المجتمع، بحيث يمكن لبقية المجتمع أن يميز انتماءهم لهذه المنزلة بطريقة أو بأخرى ولإبراز هذا التمايز للعيان يستخدم هؤلاء الأفراد رموز المنزلة، وهي إشارات تهدف لتحديد المنزلة الاجتماعية لحامليها فمثلا يرتدي المتزوجون خواتم الزفاف لإعلام باقي أفراد المجتمع بمنزلتهم كأزواج في هذا المجتمع.

المنزلة الرئيسية: هي المنزلة التي تغلب على باقي المنازل الاجتماعية التي يتمتع بها فرد ما بعض المنازل الرئيسية منسوبة، مثل الجنس، فبغض النظر عما يفعله المرء، فإن بقية أفراد المجتمع ليس في وسعهم ألا يلاحظوا جنسه، وحتى لو كان طبيباً مثلاً، فلا يكون مجرد طبيب بل هو إما طبيب ذكر أو طبيبة أنثى وذلك حسب جنسه ويعتبر كلٌّ من العرق والعمر من المنازل الرئيسية المنسوبة أيضا ومن المنازل الرئيسية أيضاً ما هو مكتسب، فإذا ما أصبح شخص ما غنياً جداً (بغض النظر عن مصدر ثروته) فإن منزلته كفرد غني ستغلب على باقي المنازل الاجتماعية التي يتمتع بها.

تضارب المنازل: أن يشغل الفرد عدة منازل اجتماعية متضاربة فيما بينها في آن واحد على الرغم من أن المنازل الاجتماعية تتوافق غالباً مع بعضها البعض، إلا أن بعض الأشخاص قد يشغلون منازل اجتماعية متضاربة فيما بينها تعرف مثل هذه الحالات بتضارب المنازل ومن أبرز الأمثلة على مثل هذه الحالة الأطفال العباقرة الذين يدخلون الجامعة قبل أن يبلغوا العاشرة من العمر.

رابعاً الأدوار: ينظر علماء الاجتماع إلى أدوار الأفراد في المجتمع كعنصر أساسي في الحياة الاجتماعية فمنذ اللحظة التي نولد فيها، يتحدد دورنا في المجتمع – أي كل من سلوكنا، ميزاتنا، وتعهداتنا المرتبطة بمنزلتنا الاجتماعية أما الفرق بين الدور والمنزلة فيكمن في أن الفرد يشغل منزلة اجتماعية ما، في حين أنه يلعب الدور المرتبط بهذه المنزلة فمثلاً إذا كانت منزلتنا الاجتماعية هي أن نكون طلاباً، فإن دورنا هو أن نذهب إلى المدرسة، أن نحضر الحصص المختلفة وأن ندرس ونحل وظائفنا ونقدم امتحاناتنا.

- أهمية الأدوار بالنسبة للتركيبة الاجتماعية: تكمن أهمية الأدوار بالنسبة للتركيبة الاجتماعية في أنها تحدد ما هو متوقع من أفراد المجتمع القيام به فهذه الأدوار هي بمثابة سياج، حيث تسمح لنا بمقدار محدد من الحرية إلا أن هذه الحرية غالباً ما تكون مقيدة ومعظمنا يعيش داخل إطار هذا السياج الذي يفصل بين ما هو ملائم وما هو مرفوض بالنسبة للأدوار التي نلعبها في مجتمعاتنا وفي معظم الأحيان لا نكلف أنفسنا عناء التفكير في ماهية هذه القيود، حيث أن الطبيعة الاجتماعية قد تأصلت في بني البشر لدرجة أننا في معظم الأحوال لا نرغب في فعل إلا ما هو مناسب بالنسبة لأدوارنا.

- وجود الدور: لا تستمر كافة الأدوار إلى الأبد، فبعضها يدوم إلى أجل محدد كما أن بعضها قد ينتهي رغم رغبتنا باستمراره، مثل الطلاق غير المرغوب فيه من أحد الزوجين ويستخدم العلماء مصطلح وجود الدور للإشارة إلى نهاية الدور.

خامسا المجموعات: تتألف المجموعة من عدد من الأشخاص الذين يتفاعلون مع بعضهم البعض بشكل مستمر وواعٍ، وغالباً ما يتشارك عناصر المجموعة الواحدة نفس القيم، نفس القواعد السلوكية، ونفس التوقعات تلعب المجموعات دوراً أساسياً في الحياة الاجتماعية، فانتماء الفرد إلى مجموعة ما يعني أن يمنح باقي أفراد هذه المجموعة الحق باتخاذ قرارات محددة فيما يتعلق بسلوكه وعلى الرغم من أن هذا المبدأ صحيح بالنسبة لكافة المجموعات، إلا أن تأثير بعض المجموعات يقتصر على جزء ضئيل من تصرفات أفرادها، فمثلاً يقتصر تأثير المجموعة على الفرد الذي ينتمي إلى نادي هواة جمع الطوابع البريدية، على دفع هذا الفرد إلى حضور اجتماعات النادي إلا أن بعض المجموعات الأخرى، كالعائلة، تفرض سيطرتها على معظم أوجه حياة أفرادها.

## 2.2. المؤسسات الاجتماعية

تعرف المؤسسات الاجتماعية بأنها تلك الوسائط المنظمة التي يطورها كل مجتمع بحيث تلبي احتياجاته الأساسية، وتلعب هذه المؤسسات دوراً حيوياً في حياة أفراد المجتمع، حيث تصيغ هذه المؤسسات سلوك هؤلاء الأفراد، وذلك عن طريق ربطها بين مختلف أنسجة المجتمع وقولبتها ضمن كل متكامل حيث يكفي أن ننظر إلى ماهية المؤسسات الاجتماعية حتى ندرك سبب أهميتها بالنسبة لحياة كل منا، وتشمل هذه المؤسسات كلاً من العائلة، الدين، التربية والتعليم، الاقتصاد، النظام الطبي، السياسة، القانون، العلم، الجيش، ووسائط الإعلام.

خصائص المؤسسات الاجتماعية:

- تبنى المؤسسات الاجتماعية في المجتمعات الصناعية بصورة أكثر منهجية من نظيراتها في المجتمعات القبلية فإذا أخذنا مثلاً نظم التربية والتعليم في المجتمعات الصناعية الأكثر تطوراً فإننا سنجدها عالية التنظيم ومتماسكة البنية لحد كبير، أما في المجتمعات القبلية فإن مثل هذه النظم تعتمد إلى حد كبير على تعلم سلوكيات البالغين بصورة غير منهجية
- لكل مؤسسة من مؤسسات المجتمع الأساسية قيمها، أدوارها وأعرافها الخاصة بها.
- إن للمؤسسات الاجتماعية تأثيراً بعيد المدى على كافة مناحي الحياة.

لا يمكننا أن نفهم المؤسسات الاجتماعية بشكل كامل إلا إذا أدركنا طبيعة الدور الذي تلعبه هذه المؤسسات في حياتنا حيث أن تأثير هذه المؤسسات يكون غالباً خارج نطاق إدراكنا المباشر فعلى سبيل المثل، حددت المؤسسات الاقتصادية في المجتمع ساعات العمل بثمانية ساعات يومياً، وخمسة أيام في الأسبوع حيث لا توجد هناك أية حاجة بيولوجية أو طبيعية تفرض مثل هذا التوزيع، ورغم ذلك أصبح هذا التوزيع النظام الأكثر رواجاً رغم أنه مجرد تقسيم اعتباطي لساعات العمل والراحة ويمتد هذا التأثير الذي تفرضه مؤسسة واحدة من المؤسسات الاجتماعية ليشمل العديد من جوانب الحياة، حيث لا يقتصر على كيفية تنظيم المرء لعمله ونشاطاته المختلفة، بل يتسع ليشمل أيضاً طبيعة علاقته بعائلته وأصدقائه. تؤثر كافة المؤسسات الاجتماعية الأخرى على حياتنا مثل هذا التأثير بعيد المدى حيث تشكل سياق معيشتنا، كما تتحكم بسلوكنا وتصرفاتنا وتصيغ أفكارنا.

المؤسسات الاجتماعية في النظرية الوظيفية:

يؤكد باحثو النظرية الوظيفية أنه لا يمكن لأي مجتمع أن يستمر بدون المؤسسات الاجتماعية وهذا لأن هذه المؤسسات تلعب دوراً حيوياً لا غنى عنه في المجتمع فقد تكون جماعة ما ضمن المجتمع صغيرة إلى حد لا يمكنها معه أن تؤسس نظاماً تعليمياً مستقلاً خاصاً بها، ومع ذلك فلا بد أن يكون لهذه الجماعة طرقها الخاصة لتعليم مهاراتها ونقل أفكارها إلى الأجيال الشابة فيها وفي الحقيقة ينبغي لكل مجتمع أن يلبي احتياجاته الأساسية (أو متطلباته الوظيفية) حتى يستطيع الاستمرار بالوجود ومن وجهة نظر باحثي النظرية الوظيفية فإن تلبية هذه الاحتياجات هي الهدف الفعلي وراء وجود المؤسسات الاجتماعية ويعرف هؤلاء الباحثون خمسة متطلبات وظيفية أساسية ينبغي على كل مجتمع تلبيتها حتى يستمر وهي:

- استبدال الأفراد: إذا لم يستبدل المجتمع أفراده لا يعود بإمكانه الاستمرار بالوجود وبسبب الأهمية المطلقة للتكاثر بالنسبة لاستمرارية المجتمعات، طورت كافة الجماعات البشرية مفهوم العائلة بشكل أو بآخر حيث تمنح العائلة لأعضاء المجتمع الجدد حس الانتماء وذلك عن طريق تزويد هؤلاء الأفراد بنسب عائلي يحدد صلات قرابتهم مع باقي أفرد المجتمع.
- تنمية حس الأفراد الجدد الاجتماعي: ينبغي أن يُعلَّم كل طفل في المجتمع ماذا يعني أن يكون فرداً من أفراد هذا المجتمع ولتحقيق هذا الهدف على كل مجتمع أن يطور وسائطه الخاصة التي تضمن أن يتعلم كافة أفراده الجدد ما هو متوقع منهم كأعضاء في هذا المجتمع تلعب العائلة في هذا السياق دوراً أساسياً بوصفها حاضنة حضارة المجتمع إلا أن هناك مؤسسات اجتماعية أخرى، كالدين والتربية والتعليم تساعد بدروها على تحقيق هذا الهدف.

- إنتاج وتوزيع البضائع والخدمات: ينبغي على كل مجتمع أن ينتج ويوزع الموارد الأساسية من الطعام والثياب إلى المسكن والتعليم وبالتالي لا بد لكل مجتمع أن ينشئ مؤسسته الاقتصادية الخاصة به والتي يمكنها إنتاج البضائع والخدمات الضرورية بالإضافة لتأمين سبل توزيع هذه البضائع والخدمات.
- تلبية الأوامر: يواجه النظام في أي مجتمع تهديدين أساسيين أحدهما داخلي، وهو خطر الفوضى الكامنة في كل مجتمع، والآخر خارجي وهو خطر التعرض لهجوم خارجي وبغية حماية نفسه من الاعتداءات الخارجية، ينبغي على المجتمع أن يطور وسائط دفاعية، أي نمط ما من أنماط الجيش أما بالنسبة للأخطار الداخلية فينبغي على المجتمع بناء نظام شرطة لحماية أفراده من بعضهم البعض.
- تحفيز الحس الغائي: يحتاج كل شخص أن ينمي حس الغائية كي يتعاون مع بقية أفراد المجتمع وأن يضحي بمصلحته الشخصية لصالح العمل مع الآخرين حيث ينبغي على أفراد المجتمع أن يقتنعوا بأهمية تضحياتهم ودورها في تحقيق المصلحة العامة وقد طورت المجتمعات البشرية العديد من الطرق لتنمية مثل هذا الحس لدى أفرادها، إلا أن الدين يعد أبرز هذه الطرف وأهمها على الإطلاق، حيث يجلب عن الأسئلة المتعلقة بالمعاني المطلقة.

المؤسسات الاجتماعية في نظرية الصراعات:

يشدد باحثو نظرية الصراعات على أن القوى المهيمنة في المجتمع هي التي تتحكم بمختلف المؤسسات الاجتماعية بشكل يلبي مصالح هذه القوى.

مقارنة بين النظرية الوظيفية ونظرية الصراعات

تنظر كل من النظرية الوظيفية ونظرية الصراعات إلى المؤسسات الاجتماعية من وجهة نظر مختلفة عن النظرية الأخرى على الرغم من أن وجهة نظر باحثي نظرية الصراعات تقارب وجهة نظر نظرائهم أصحاب النظرية الوظيفية حول أن المؤسسات الاجتماعية قد طُورت أساساً لتلبية احتياجات المجتمع الأساسية، إلا أنهم لا ينظرون إلى هذه المؤسسات على أنها كل متكامل يعمل بشكل متجانس لتحقيق المصلحة العامة بل على العكس يشدد باحثو نظرية الصراعات على أن القوى المهيمنة في المجتمع هي التي تتحكم بمختلف المؤسسات الاجتماعية بشكل يلبي مصالح هذه القوى.

يطرح باحثو نظرية الصراعات كدليل على وجهة نظرهم هذه مشكلة تفاوت الثروة في المجتمع، حيث تتمتع فئة قليلة بحصة الأسد من ثروة المجتمع، وتتحكم هذه الفئة بمعظم مرافق المجتمع، فهي التي تتخذ قرارات السلم والحرب وفقاً لمصالحها الاقتصادية والسياسية.

## الترابط الاجتماعي

كيف تحافظ المجتمعات، التي تتألف من عدد كبير من الجماعات البشرية، التي غالباً ما تكون متصارعة فيما بينها، على استمراريتها، ولاسيما في ظل التغيرات الكبيرة التي تطرأ على هذه الجماعات بمرور الزمن؟ يجيب علماء الاجتماع على هذا السؤال الجوهري بطريقتين حيث توجد هناك مدرستان أساسيتان لدراسة الروابط التي توحد المجتمعات. وهما : مدرسة (إميل دوركهايم) ومدرسة (فيرديناند تونيس)

1. التكافل العضوي والميكانيكي (إميل دوركهايم):

- التكافل الميكانيكي: وجد عالم الاجتماع إميل دوركهايم أن مفتاح التماسك الاجتماعي – أي إلى أية درجة يشعر أفراد المجتمع بالترابط فيما بينهم على أساس القيم المشتركة وغيرها من الروابط الاجتماعية – يكمن فيما سماه التكافل الميكانيكي وقد استخدم دوركهايم هذا المصطلح للإشارة إلى أن وعياً مشتركاً لابد أن يتشكل بين الأشخاص الذين يضطلعون بمهام متشابهة، أي بعبارة أخرى يتطور شكل من أشكال الإحساس بالتماثل بين هؤلاء الأفراد، مما يوحدهم في كل واحد لا تشمل المجتمعات التي تعتمد على التكافل الميكانيكي على أفكار واتجاهات واسعة الطيف وذلك لأن وحدتها تقوم على مبدأ التماثل في التفكير.
- التكافل العضوي: يغدو تقسيم العمل، مع نمو المجتمعات، أكثر تخصصاً مما يؤدي بأفراد المجتمع إلى الاعتماد على بعضهم البعض – حيث يصب كل عمل يقوم به أي منهم في مصلحة المجتمع العامة ككل يدعو دوركهايم هذا النمط من التكافل بالتكافل العضوي وذلك لأنه يقوم على العلاقات التي تربط بين الأفراد حيث يصبح المجتمع من وجهة النظر هذه أشبه بكائن حي تقوم فيه كل مجموعة من الأفراد بدور أحد أعضائه، ولابد أن تعمل كافة هذه الأعضاء بصورة سليمة حتى يستمر المجتمع.

إن الانتقال إلى مفهوم التكافل العضوي عوضاً عن التكافل الميكانيكي يؤدي إلى تطور تغيير مفهوم التكافل بشكل جذري، حيث لم يعد قائماً على وجهات النظر المتماثلة، بل على مجموعة من الفعاليات المستقلة عن بعضها البعض، والتي يساهم كل منها بدوره في تحقيق المصلحة المشتركة للمجتمع ككل.

2. المجموعة الأساسية والعلاقات اللاشخصية (فيردناند تونيس):

قام فيردناند تونيس (Ferdinand Tonnies 1887/1988) بدوره بتحليل الانتقال من التكافل الميكانيكي إلى التكافل العضوي استخدم تونيس مصطلح المجموعة الأساسية (Guh–MINE–shoft)، للإشارة إلى الحياة القروية، أي ذلك النمط من المجتمعات الذي يعرف فيه كل فرد كافة أفراد المجتمع الآخرين حيث لاحظ تونيس في المجتمعات التي كانت في طور النشوء في حينه، أن كلاً من العلاقات قصيرة الأمد، الانجازات الشخصية، والاهتمام بالذات تزاحم بل وتطغى على العلاقات القروية الشخصية، الروابط الأسرية، و الصداقات طويلة الأمد دعى تونيس هذا النمط من المجتمعات بمجتمعات العلاقات اللاشخصية (Guh–Zell–shoft) طبعاً هذا لا يعني أن المجتمعات الحديثة خالية تماماً من علاقات الصداقة أو الروابط العائلية، إلا أن أهمية هذه العلاقات قد تقلصت إلى حد كبير في هذه المجتمعات

## 3. المنظور الاجتماعي الصغري

يهتم علم الاجتماع الصغري بالتفاعل المباشر بين أفراد المجتمع. نتناول فيما يلي أهم المجالات التي يخوض فيها دارسو علم الاجتماع الصغري.

### 1.3. التركيب الاجتماعي للواقع

التفاعل الرمزي: يعتبر أصحاب نظرية التفاعل الرمزي، التفاعل الاجتماعي أهم مظاهر الحياة الاجتماعية على الإطلاق، ويركز هؤلاء الباحثون اهتمامهم على الرموز التي يستخدمها الأفراد في التواصل فيما بينهم نستعرض فيما يلي بعض أبرز جوانب الحياة اليومية التي يهتم بها باحثو علم الاجتماع الصغري.

- الأنماط العامة في الحياة اليومية: جميعنا يدرك أهمية الانطباع الأول ودوره في تحديد مسار التفاعل بين الأشخاص، حيث ليس بوسعنا أن نتجنب ملاحظات العلامات والمميزات الفارقة في كل شخص نتعرف إليه للمرة الأولى، ولاسيما جنسه، سنه، أصله ومظهره الخارجي ورغماً عنا فإن هذه الملاحظات هي التي تحدد انطباعنا الأول تجاه هذا الشخص أو ذاك كما أن هذه الملاحظات تحكم سلوكنا تجاه الأشخاص الذين نتعرف عليهم للمرة الأولى مما يؤثر بدوره على سلوكهم ومواقفهم تجاهنا.

- الحيز الشخصي: كل منا يحيط نفسه بما يشبه الفقاعة الشخصية والتي نبذل جهدنا بشكل مستمر لحمايتها، إلا أننا نفتح هذه الفقاعة من حين لآخر للأشخاص المقربين منا– كالأصدقاء، الأبناء أو الأهل – إلا أننا نسعى دوماً للحفاظ على هذه الفقاعة، التي تمثل قضاءنا الشخصي، بعيداً عن متناول معظم الناس تختلف مساحة الفضاء الشخصي من حضارة إلى أخرى، فسكان أمريكا الجنوبية مثلاً يفضلون الاقتراب من بعضهم البعض عند تبادل الحديث أكثر بكثير من باقي الحضارات.
- اللمس: لا يقتصر الاختلاف بين الحضارات على تواتر لمس أفرادها لبعضهم البعض، بل يشمل أيضاً معنى في كل من هذه الحضارات، وبشكل عام يلمس الأشخاص الذين يحتلون المنازل الاجتماعية العالية بعضهم بشكل أكثر تواتراً من غيرهم من أفراد المجتمعات.
- لقاء الأعين: يمكننا حماية فقاعاتنا الشخصية بالتحكم بأعيننا بحيث لا تلتقي بأعين الآخرين، حيث غالباً ما يفسر تحديقنا إلى أعين الآخرين مباشرة على أنه علامة إعجاب بهم أو انجذاب إليهم.

### 2.3. فن التمثيل: التعبير عن الذات في الحياة اليومية

طور عالم الاجتماع إيرفنغ غوفمان (Erving Goffman 1922/1982) علم الاجتماع الصغري بإدراجه مفهوم فن التمثيل (أو التحليل التمثيلي) إلى هذا العلم عام 1959 استخدم غوفمان هذا المصطلح للإشارة إلى أن حياتنا تشبه إلى حد كبير المسرحيات الدرامية حيث يولد كل منا على خشبة المسرح ونتعلم عبر مختلف مراحل حياتنا كيف نقوم بأداء دورنا على هذه الخشبة ورغم أننا لا نملك أدنى فكرة حول الطريقة التي ينظر إلينا بها الآخرون على الخشبة، إلا أننا نستفيد من الأدوار التي نلعبها في حياتنا اليومية لنعرِّف صورتنا في أذهان الآخرين.

- إدارة الانطباع: دعى غوفمان الجهود التي نبذلها للتحكم بالانطباع الذي نثيره لدى الأخرين بإدارة الإنطباع.
- أداء الدور: تتطلب منا الحياة اليومية أن نلعب الأدوار المخصصة لنا، حيث نقوم بتأدية هذه الأدوار على خشبة المسرح، وغالباً ما نقضي جل أوقاتنا على هذه الخشبة، إلا أننا قد نقضي بعض الوقت في كواليس المسرح، وهي الأماكن التي يمكننا فيها أن نتحرر من الضغط الاجتماعي فمثلاً عندما نغلق على أنفسنا باب الحمام أو غرفة النوم نكون قد دخلنا إلى كواليس حياتنا اليومية قد يلعب كل منا عدة أدوار مختلفة في حياته، إلا أن أسلوبنا في أداء هذه الأدوار يختلف من دور لآخر، يدعى الأسلوب الذي يتبعه كل شخص في أداء الأدوار المنوطة به أداء الدور.

- تناقض الأدوار وتوتر الدور: غالباً ما تتوازع أدوارنا بشكل لا يفضي إلى أي تناقض، إلا أنه في بعض الحالات قد يسند إلينا دور يتعارض تماماً مع أحد الأدوار الأخرى التي نقوم بأدائها وقد يكون في الدور الواحد نفسه تناقض كامن، وتعرف هذه المشكلة باسم توتر الدور، فمثلاً، أحياناً قد يسأل الأستاذ في الصف سؤالاً صعباً للغاية، إلا أن أحد الطلاب في الصف يعرف الإجابة على هذا السؤال، سيجد هذا الطالب نفسه في موقف حرج، فإذا ما رفع يده فإن هذا سيظهر رفاقه في الصف بمظهر الأغبياء، أما إذا لم يرفع يده فلن يعرف الأستاذ أنه يعرف الجواب.
- أحد أهم الخصائص المميزة الأدوار أننا غالباً ما نتجه لنصبح الأدوار التي نلعبها أي أن الدور الذي نلعبه يتغلل إلى ذواتنا، ولاسيما في حالة الأدوار التي تعتبر جزءاً من حياتنا اليومية. وأحياناً قد تستمر الأدوار كجزء من نفس الإنسان حتى بعد أن ينقطع عن أدائها.
- مركبات الإشارة: نستخدم في تواصلنا مع المجتمع ثلاثة أنواع من مركبات الإشارة وهي: إعدادنا الاجتماعي، مظهرنا الخارجي، وتصرفاتنا.
  - الإعداد الاجتماعي: هو المكان الذي تتكون فيه التصرفات والأفعال، أي المكان الذي نتفاعل فيه مع الآخرين، مثل غرفة الجلوس في المنزل، المكتب، والشارع.
  - المظهر: فهو الكيفية التي نبدو عليها أثناء أدائنا لأدوارنا، ويشمل المظهر الإشارات التي نحملها لتدل على ماهية الدور الذي نلعبه، كعصاة شرطي المرور مثلاً.
  - طريقة التصرف: وهي المواقف التي نظهرها أثناء أدائنا لأدوارنا،، ونستخدمها لإبراز مشاعرنا وأمزجتنا، كالغضب أو الحزن.

## 3.3. البناء الاجتماعي للواقع

يؤكد أصحاب النظرية الرمزية على أهمية الدور الذي تلعبه أفكارنا في بناء صورة الواقع في أذهاننا وقد أصبح هذا المفهوم يعرف باسم تعريف الوضع، أو نظرية توماس، حيث قال عالما الاجتماع توماس (Thomas) ودوروثي (Dorothy) بأنه إذا ما عرف الإنسان وضعاً ما على أنه وضع حقيقي، عندئذ تكون عواقب ونتائج هذا الوضع حقيقية بدوره حيث لا يتحدد سلوكنا وفق الوجود الموضوعي للأشياء من حولنا، إنما يتحدد وفقاً لتفسيرنا الموضوعي لهذه الأشياء أو ما يدعوه علماء الاجتماع "تعريف الواقع.

ونستنتج أن البناء الاجتماعي للواقع هو وجهة النظر الإجمالية للمجتمع الذي نعيش فيه حول مختلف مناحي الحياة حيث نتعلم من مجتمعنا الطريقة التي ينبغي أن ننظر بها إلى الحياة أي أننا نبني الواقع عبر تفاعلنا مع الآخرين.

# الفصل الرابع: الجماعات البشرية

## الكلمات المفتاحية

الجماعة البشرية، مجتمعات الصيد والالتقاط، المجتمعات الرعوية، مجتمعات البستنة، الثورة الاجتماعية، ثورة التدجين، اللاعدالة الاجتماعية، المجتمعات الزراعية، المجتمعات الصناعية، المجتمعات ما بعد الصناعية، مجتمعات الاقتصاد الحيوي، الكتلة، الفئة، الجماعة الأولية، الجماعة الثانوية، جماعات الداخل، جماعات الخارج، الجماعة المرجعية، المقياس المعياري، الزمرة، الشبكة الاجتماعية، ظاهرة العالم الصغير، ديناميكيات الجماعة، الجماعة الصغيرة، حجم الجماعة، القيادة.

## ملخص

يتعرف الطلاب في هذه الوحدة على مفهوم الجماعة البشرية، بدءاً بالمجتمع الذي يعد أكبر هذه المجموعات وأكثرها تعقيداً، حيث تلقي هذه الوحدة الضوء على التطور التاريخي للمجتمعات البشرية. كما يتعرف الطلاب أيضاً في هذه الوحدة على أنماط وديناميكيات الجماعات البشرية.

## أهداف تعليمية

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

1. تعريف الجماعة البشرية والفرق بينهما وبين المجتمع
2. المراحل الرئيسية في تطور المجتمعات البشرية
   - مجتمعات الصيد والالتقاط البدائية
   - المجتمعات الرعوية ومجتمعات البستنة
   - المجتمعات الزراعية
   - المجتمعات الصناعية
   - المجتمعات ما بعد الصناعية
   - مجتمعات الاقتصاد الحيوي
3. الجماعات ضمن المجتمع الواحد
   - الجماعات الأولية والجماعات الثانوية
   - جماعات الداخل وجماعات الخارج
   - الجماعات المرجعية
   - الشبكات الاجتماعية
4. ديناميكيات الجماعة
   - حجم الجماعة
   - مفهوم القيادة

## المخطط

- التحول الاجتماعي
- الجماعات ضمن المجتمع
- ديناميكيات الجماعات البشرية

# 1. التحول الاجتماعي

## 1.1. مقدمة

- تعرف الجماعة البشرية: مجموعة الأشخاص الذين يتفاعلون مع بعضهم البعض والذين يعتبر كلٌ منهم نفسه جزءاً من هذه الجماعة.
- المجتمع: يعتبر المجتمع أكبر الجماعات البشرية التي يهتم علماء الاجتماع بدراستها وأكثرها تعقيداً، ويتألف المجتمع من مجموعة من الأفراد الذين يعيشون في نفس المنطقة الجغرافية ويتشاركون الإرث الحضاري نفسه.
- دور المجتمع المحيط بنا في صياغة خبرتنا الحياتية: يلعب المجتمع المحيط بنا الدور الأكبر في صياغة خبرتنا الحياتية، حيث لا يقتصر تأثيره على سلوكنا فحسب، باعتباره الإطار العام لهذا السلوك، إنما يمتد ليشمل حتى الطريقة التي نفكر أو نشعر بها تجاه مختلف شؤون الحياة بسبب أهمية الدور الذي يلعبه المجتمع في حياتنا، فلا بد من إلقاء الضوء على التحولات التي مرت بها المجتمعات البشرية عبر تاريخها الطويل.

## 2.1. مجتمع الصيد والالتقاط البدائي

تدعى المجتمعات التي تشمل أقل عدد ممكن من التقسيمات الاجتماعية بمجتمعات الصيد والالتقاط تعتمد الجماعات البشرية ضمن هذه المجتمعات، كما يشهر اسمها، على صيد الحيوانات البرية والتقاط الثمار بغية المحافظة على بقائها. ويختلف دور كل من الرجال والنساء والأطفال من جماعة لأخرى ضمن هذه المجتمعات، إلا أنه غالباً ما يكون في كل من هذه الجماعات من يقوم بدور الساحر، والساحر هو أحد أفراد الجماعة والذي يعتقد بقية الأفراد بأنه يمتلك قدرات سحرية، بحيث يتمتع بالقدرة على مخاطبة القوى الروحانية التي تسيطر على الطبيعة، لكن اضطلاع فرد ما بهذا الدور لا يعفيه من باقي مهامه حيث يبقى من واجبه المشاركة في عمليات الصيد أو الالتقاط. كانت مجتمعات الصيد والالتقاط صغيرة نسبياً وذلك لأنها كانت محدودة بالمساحة، حيث لا يمكن للمساحة الواحدة أن توفر الحيوانات والنباتات الكافية لإمداد الجماعات الأكبر بالغذاء وغالبا ما كانت هذه المجتمعات تقتصر على خمسة وعشرين وحتى أربعين فرداً ولم تكن هذه المجتمعات مستقرة، بل كانت بدوية تنتقل من مكان لآخر بحثاً عن الطعام، كما كانت مشاركة الطعام بين جميع أفراد الجماعة أساسية في بقاء مثل هذه الجماعات.

تعتبر العائلة اللبنة الأساسية التي تقوم عليها هذه المجتمعات البدائية، حيث يرتبط معظم أفراد المجتمع ببعضهم البعض بوساطة علاقات النسب أو الزواج وتقوم العائلة، بوصفها المؤسسة الاجتماعية الوحيدة في هذه المجتمعات، بمختلف الأدوار التي تضطلع بها باقي المؤسسات الاجتماعية في مجتمعاتنا المعاصرة، حيث تهتم العائلة بتوزيع الطعام بين أفرادها، بتربيتهم وتعليمهم، بعيادة المرضى وبباقي احتياجات الجماعة.

تعتبر مجتمعات الصيد والالتقاط البدائية أكثر المجتمعات مشاعية على الإطلاق، وذلك لأن الحيوانات والنباتات التي تقوم عليها حياة أفراد هذه المجتمعات هي مواد قابلة للفساد بسرعة وسهولة، ولأن مفهوم المال لم يكن بعد قد وجد في تلك المجتمعات، كما أنه لم يكن لدى أفراد هذه المجتمعات الكثير من الممتلكات، وبالتالي لم يكن هناك في هذه المجتمع من هو أغنى من الآخر أو أفقر، كما لم يكن هناك حكام، حيث كانت معظم القرارات تتخذ من خلال التشاور بين أفراد الجماعة.

كانت كافة الجماعات البشرية مجتمعات صيد والتقاط في مرحلة ما من تاريخها، كما أن هذه الجماعات كانت لا تزال شائعة حتى بضع مئات من السنين خلت، وقد انقرضت هذه الجماعات بسبب المجتمعات الأكثر تقدماً والتي استولت على الأراضي التي كانت هذه الجماعات تعتمد عليها في بقائها.

### 3.1. المجتمعات الرعوية ومجتمعات البستنة

منذ حوالي عشرة آلاف عام اكتشفت بعض الجماعات أنه يمكنها تدجين وتربية بعض أنواع الحيوانات التي اعتادوا على اصطيادها، وخاصة الماشية مثل الأبقار، الأغنام، الماعز والجمل. كما اكتشفت جماعات أخرى أنه بإمكانها تنمية النباتات عوضاً عن جمعها وكنتيجة لذلك تفرعت مجتمعات الصيد والالتقاط البدائية إلى نمطين متمايزين من المجتمعات:

- المجتمعات الرعوية: يكمن المفتاح لفهم النمط الأول من المجتمعات، التي تفرعت عن مجتمعات الصيد والالتقاط، في كلمة الرعي، حيث اعتمدت المجتمعات الرعوية على رعي الحيوانات وقد تطورت هذه المجتمعات أساساً في الأقاليم الجافة التي لم تكن معدلات هطول الأمطار فيها كافية لتعتمد الجماعات البشرية على تنمية المحاصيل لسد حاجاتها الغذائية، وقد بقيت المجتمعات التي سلكت هذا الاتجاه في تطورها بدويةً وذلك لأنها تابعت الانتقال من مكان لآخر لتأمين الغذاء للقطعان التي كانت ترعاها.
- مجتمعات البستنة: يكمن المفتاح لفهم النمط الثاني من المجتمعات، التي تفرعت عن مجتمعات الصيد والالتقاط، في كلمة البستنة أو تنمية النباتات، حيث اعتمدت مجتمعات البستنة على تنمية النباتات بوساطة أدوات يدوية الصنع، وبسبب اعتمادها على هذه النباتات التي تقوم بتنميتها كأساس لوجودها اضطرت هذه المجتمعات إلى الاستقرار في المناطق التي كانت تقوم بتنمية النباتات فيها، وتحولت بذلك إلى مجتمعات مستقرة.

ونستعرض فيما يلي الثورة الاجتماعية الأولى ونتائجها التي قامت في هذه المجتمعات:

الثورة الاجتماعية الأولى – ثورة التدجين: يمكننا أن ندعو قيام الإنسان للمرة الأولى بتدجين الحيوانات وتنمية النباتات بالثورة الاجتماعية الأولى، حيث نقلت هذه الثورة المجتمعات البشرية من مستواها البدائي إلى مستوى أعلى. وعلى الرغم من أن ثورة التدجين هذه قد قامت بشكل تدريجي على امتداد عدة آلاف من السنين، إلا أنها تعتبر تحولاً أساسياً حيث غيرت تاريخ الإنسان ككل حيث شمل أثرها كافة مناحي الحياة الإنسانية، فبادئ ذي بدء أصبحت المجتمعات البشرية أكبر حجماً، وذلك لأن توفير الغذاء الضروري لحياة أفرادها أصبح أسهل، كما لم يعد من الضروري أن يقوم كل فرد في المجتمع بتأمين أو إنتاج غذائه، مما أدى إلى حدوث تقسيم في العمل ضمن الجماعة الواحدة، حيث اختص بعض الأفراد بتأمين غذاء الجماعة، في حين بدأ الأخرون بتطوير مهن مستقلة مثل صناعة الأدوات، الأسلحة أو غيرها من ضروريات وكماليات الحياة.

- ظهور اللاعدالة الاجتماعية: أدت التغيرات التي نجمت عن ثورة التدجين إلى تهيئة الظروف الملائمة لظهور اللاعدالة الاجتماعية، حيث فاقت احتياجات بعض العائلات (أو القبائل) الغذائية حاجات غيرها، مما أدى إلى نشوب الحروب والخلافات بين هذه العوائل وذلك لأن قيمة ملكية الجماعات المادية كانت قد أصبحت للمرة الأولى في التاريخ كبيرة بما يكفي لكي تنشب الحروب لأجل الحفاظ عليها. وقد فتحت هذه الحروب بدورها الباب أمام استعباد الطرف المغلوب. إلا أن اللاعدالة الاجتماعية بقيت محدودة وذلك لأن فوائدها كانت لا تزال محدودة في هذه المرحلة من التاريخ البشري.
- السمة الأساسية للثورة الاجتماعية الأولى: يمكننا أن نلاحظ أن النموذج الرئيسي السائد على امتداد هذا التحول الذي شهدته الجماعات البشرية هو الانتقال من الملكية المادية الضيقة والمحدودة إلى ملكية مادية أكبر وعن العدالة الاجتماعية المطلقة إلى اللاعدالة الاجتماعية حيث أصبحت مواقع الأفراد في مجتمعاتهم ذات تأثير على مسار حياتهم ككل .

## 4.1. المجتمعات الزراعية

أدى اختراع المحراث، منذ حوالي خمسة أو ستة آلاف عام إلى تغيير تاريخ الحياة البشرية مرة أخرى. حيث تمكن الإنسان باستخدامه الحيوانات في جر المحاريث من زراعة مساحات أوسع من الأراضي. كما أن حراثة الأرض وبذرها جعلاها أكثر إنتاجيةً وعطاءً، وأصبح الفائض الغذائي الذي نجم عن هذه الثورة الزراعية الأكبر في تاريخ البشرية، الأمر الذي سمح للعديد من الأفراد بالتخصص بمهن مختلفة في الزراعة وفي إطار هذه المجتمعات الزراعية الناشئة طوَّر الإنسان مدنه الأولى، كما طور مظاهره الحضارية الأولى، مثل الفلسفة، الفنون، الأدب والعمارة. وقد ترافقت الثورة الزراعية مع اختراع الإنسان لكل من العجلة، الكتابة، والأرقام، الأمر الذي جعل من أثر هذه الثورة عميقاً إلى الحد الذي دفع ببعض المؤرخين لاعتبارها فجر الحضارة الإنسانية.

وفيما يلي أهم الخصائص التي سادت المجتمعات الزراعية:

- اللاعدالة الاجتماعية الميزة السائدة في المجتمعات الزراعية: أصبحت اللاعدالة الاجتماعية الميزة السائدة في المجتمعات الزراعية، حيث تمكنت قلة من الأفراد من السيطرة على موارد المجتمع النامية، وقد عمدت هذه النخبة إلى إحاطة نفسها بجيوش من الرجال المسلحين وذلك بغية حماية ميزاتها وقواها المتوسعة. كما فرضت هذه الفئة الضرائب على باقي أفراد المجتمع الذين أصبحوا مجرد سلع تباع وتشترى بالنسبة لهذه النخبة يعتبر باحثو نظرية الصراع الطبقي أن تمركز القوى والميزات في أيدي قلة من نخبة المجتمع، بالإضافة إلى استغلال هذه النخبة لباقي أفراد المجتمع الذين لا يملكون مثل هذه القوى أو الميزات، كانا الأساس في نشوء النظم الإقطاعية لاحقاً.
- هيمنة الرجل على النساء في المجتمعات الزراعية: رغم أن أحداً لا يعرف كيف أو متى، إلا أن النساء أصبحن في سياق الثورة الزراعية خاضعات للرجال. وترى الباحثة الاجتماعية إليز بولدينغ (Elise Boulding) أن هذا التغير في طبيعة المجتمع قد حدث نتيجة لتحمل الرجال مسؤولية الحراثة والاهتمام بالحيوانات، في حين تقلصت مسؤوليات النساء لتقتصر على المهام الثانوية مثل جلب الماء إلى الحقول إلا أن هذا الشرح يثير بدوره من الأسئلة أكثر مما يجيب عليه، فلم اضطلع الرجل بمهام الحراثة في بادئ الأمر؟ ولم لم تقم النساء بذلك؟ كما أنه لا يوضح السبب الذي من أجله سيطر الرجل على النساء في المجتمعات التي تتولى فيها النساء مهام تربية الحيوانات. بعبارة أخرى فإن السبب الحقيقي الذي مكن الرجال من السيطرة على المجتمع البشري لا يزال سراً من أسرار التاريخ البشري التي تنتظر من يكتشفها.

## 5.1. المجتمعات الصناعية

أدى اختراعٌ آخر من اختراعات الإنسان إلى تغير التاريخ البشري رأساً على عقب مرة أخرى. ففي القرن الثامن عشر، وتحديداً في العام 1756، بدأت الثورة الصناعية وذلك عندما استُخدم المحرك البخاري للمرة الأولى لتسيير الآلات في المملكة المتحدة فقبل هذا التاريخ اقتصرت الآلات التي استخدمها الإنسان على بضعة آلات لتسخير قوى الطبيعة لمصلحته (كالطواحين المائية أو طواحين الرياح)، بالإضافة إلى مجموعة من الآلات الأخرى التي اعتمدت في تسييرها على قواه أو قوى الحيوانات التي يمتلكها.

وقد عرَّف عالم الاجتماع هربرت بلمر (Herbert blumer) المجتمع الصناعي بأنه المجتمع الذي يعتمد فيه الإنتاج على الآلات المسيرة بمختلف أنواع الوقود، وذلك عوضاً عن الآلات المسيرة بوساطة قوى الإنسان أو الحيوان الفيزيائية. وفيما يلي أهم خصائص المجتمعات الصناعية:

- مشكلة اللاعدالة الاجتماعية في المجتمعات الصناعية: أدى اختراع المحرك البخاري إلى تفاقم مشكلة اللاعدالة الاجتماعية، فقد فاقت فعالية هذه التقنية المكتشفة حديثاً كل ما سبقها من اختراعات واكتشافات، حيث كان فائض الإنتاج الناجم عن استخدامها ضخماً وكذلك كان تأثيرها على المجتمع البشري ككل، وقد تمكن الرواد الأوائل في استخدام هذه التقنية من تحقيق ثروات خيالية فاقت حتى ثروات العائلات الملكية الحاكمة، وباحتلالهم مواقع الصدارة في الأسواق، أصبح بمقدور هؤلاء الصناعيين توسيع سلطتهم التي لم تعد تقتصر على السيطرة على وسائل الإنتاج (مثل المصانع والآلات) بل تعدتها لتشمل التحكم بشروط العمل، وقد ساعد انهيار النظام الإقطاعي الصناعيين على استغلال العمال، حيث طرد آلاف الأشخاص من أراضيهم التي لطالما زرعوها ومن قبلهم آباؤهم وأجدادهم، فغدوا بذلك مشردين، مما دفعهم إلى الهجرة إلى المدن، التي واجهوا فيها بضعة خيارات أحلاها مر، فإما السرقة أو الجوع أو العمل بشروط قاسية لا ترحم.
- ظروف العمال القاسية في المجتمعات الصناعية: لم يتمتع العمال في تلك المرحلة بأية حقوق قانونية تمكنهم من المطالبة بظروف عمل مقبولة إنسانياً، كما لم يتمتعوا بحق تشكيل الاتحادات والنقابات. حيث كان توظيف العمال يقوم على أساس عقود خاصة بين الشركات الموظِّفة وبين كل عامل على حدة، وعندما كان العمال يقومون بأي إضراب أو احتجاج لهذا السبب أو ذاك، كانوا يطردون مباشرة وبلا رحمة من أعمالهم.
- دور التطور الصناعي في تحقيق العدالة والمساواة: إلا أن العمال تمكنوا رغم كل الظروف والعوائق من تحقيق العديد من الإنجازات الإيجابية، واليوم يتمتع العمال في المجتمعات الصناعية المتقدمة بمستوى معيشي مرتفع، سواء من ناحية المقدرات المادية أو من ناحية الرضى الاجتماعي. بعبارة أخرى مكن التطور الصناعي من قلب النموذج الأولي الذي قامت عليه الثورة الصناعية وذلك باتجاه مجتمع أكثر عدالة ومساواة.

### 6.1. المجتمعات ما بعد الصناعية (مجتمعات المعلومات)

تعتبر التغيرات المتلاحقة السمة الأساسية المميزة لمجتمعاتنا المعاصرة، إلا أن السبب الرئيسي وراء هذه التغيرات يمكن في الحقيقة في تقنية الرقاقات الصغرية التي فتحت المجال أمام تطوير العديد من التقنيات الأخرى التي أثرت في حياتنا إلى هذا الحد أو ذاك. وقد أصبح تواتر هذه التغيرات سريعاً إلى الحد الذي دفع ببعض علماء الاجتماع إلى القول بأن نمطاً جديداً من المجتمعات قد نشأ بتأثير هذه التغيرات يدعى باسم المجتمع ما بعد الصناعي (أو مجتمع المعلومات). وفيما يلي أهم خصائص المجتمعات مابعد الصناعية:

- أهمية المعلومات: على العكس من المجتمعات الصناعية فإن الميزة الأساسية لمجتمعات المعلومات لا تكمن في المواد الأولية أو في عمليات التصنيع، وإنما في المعلومات التي تشكل اللبنة الأساسية في بناء هذه المجتمعات. كما لم يعد دور الأفراد في المجتمع الاضطلاع بعمليات الإنتاج المختلفة، بل على العكس أصبح دورهم يتمركز حول بث أو استخدام المعلومات في توفير مختلف الخدمات التي يمكن بيعها لبقية أفراد المجتمع.
- ثورة المعلومات – الثورة الاجتماعية الرابعة: كانت التغيرات الناجمة عن التطور التقني الناجم عن اختراع الرقاقة الإلكترونية عميقة ومؤثرة لدرجة أنها أدت إلى قيام الثورة الاجتماعية الرابعة. فقد استبدلت الرقاقة الإلكترونية أساليب الحياة التقليدية بأساليب جديدة تتناسب مع التطورات التقنية المتسارعة فمثلاً أصبح بمقدورنا اليوم إنجاز أعمالنا دون أن نغادر منازلنا، كما يمكننا الوصول إلى كم هائل من المعلومات في غضون ثوان، أو الاتصال بالطرف الآخر من العالم بالصوت والصورة، بالإضافة إلى ذلك فقد غيرت هذه التطورات العديد من مناحي حياتنا الأخرى سواء أكانت اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية.

### 7.1. مجتمعات الاقتصاد الحيوي

حققت الأبحاث الجينية العديد من الانتصارات العلمية في العقود الماضية، حيث أصبح بمقدور الإنسان تنمية محاصيل ذات صفات غذائية محسنة، أو إنتاج مواشٍ أكثر إدراراً للحليب أو دواجن ذات بيض أكثر، وغير ذلك من التعديلات الوراثية التي يدخلها العلماء إلى مختلف سلالات الكائنات الحية.

إن تأثير تقنية التعديل الوراثي هذه ثورية لدرجة أنها ستؤدي إلى نشوء نمط جديد من المجتمعات يدعى بمجتمع الاقتصاد الحيوي، الذي يتميز بأن الاقتصاد فيه يتمحور حول تطبيق تقنية التعديل الوراثي، سواء على الحيوانات أو النباتات، لإنتاج مختلف الأغذية والأدوية الضرورية لحياة الإنسان.

ويمكن اعتبار عام 1953 نقطة الانطلاق التقريبية لمجتمعات الاقتصاد الحيوي، ففي هذا العام تمكن كل من فرانسيس كريك (Francis Crick) و جيمس واطسون (James Watson) من تحديد بنية الـ DNA، كما يعتبر اكتشاف الشفرة الوراثية البشرية عام 2001 بمثابة خطوة عملاقة نحو مثل هذه المجتمعات، حتى أن العديد من الباحثين يعتبرون هذا العام بمثابة بداية لمجتمعات الاقتصاد الحيوي هذه.

## 2. الجماعات ضمن المجتمع

### 1.2. مقدمة

قام عالم الاجتماع إميل دوركهايم بدراسة الأسباب التي تدفع بعض الناس للشعور بعدم الانتماء إلى مجتمعاتهم، وقد وجد دوركهايم أن حل هذه الظاهرة يكمن في الجماعات الصغيرة التي تشكل صلة وصل بين الفرد وبين مجتمعه الواسع النطاق. فبدون هذه الجماعات يشعر الإنسان بالضياع ضمن التجمع الضخم الذي يدعى المجتمع، وعلى العكس من ذلك فإن وجود مثل هذه الجماعات يوفر للإنسان الجو المناسب لتطوير علاقات إنسانية متنوعة، كما أنه يعطي لوجود الإنسان غايةً ومعنىً. غالباً ما يخلط المرء بين مصطلح الجماعة ومصطلحي الكتلة والفئة:

1. الكتلة: تتألف الكتلة من مجموعة من الأفراد الذين يتشاركون مؤقتاً نفس الحيز الفيزيائي، ولا يمكن لأي منهم الإحساس بالانتماء لهذه الكتلة فمثلاً يمكن اعتبار مجموعة السائقين المتوقفين عند إحدى الإشارات الحمراء كتلة واحدة.
2. الفئة: هي عبارة عن مفهوم إحصائي حيث تتألف من مجموعة من الأشخاص ذوي الخصائص المتماثلة، فمثلاً يمكن اعتبار أن كافة طالبات الجامعة اللاتي يضعن نظارات طبية هن عبارة عن فئة واحدة وعلى النقيض من الجماعات لا يتفاعل أفراد الفئة الواحدة مع بعضهم البعض ولا يهتمون لوجود بعضهم البعض.
3. الجماعة: تتألف الجماعة من مجموعة الأفراد الذين يشعرون بالانتماء لبعضهم البعض، ويتفاعلون مع بعضهم البعض بشكل أو بآخر.

### 2.2. الجماعات الأولية والجماعات الثانوية

1. الجماعة الأولية: عرف عالم الاجتماع كريس كولي (Chris Cooley) الجماعة الأولية بأنها الجماعة التي تتميز بالتفاعل والتعاون المباشرين وجهاً لوجه بين أفرادها، فهي التي تمنحنا هويتنا المميزة، وهي التي تصيغ إحساسنا بذاتنا ككائنات متمايزة. وتعتبر مثل هذه الجماعات أولية لأنها الأساس في تحفيز الطبيعة والقيم الاجتماعية في ذك كل فرد. وتُعتبر العائلة من أبرز الأمثلة عن الجماعات الأولية.
2. الجماعة الثانوية: هي جماعة أكبر وذات طابع رسمي ولا شخصي أكثر من الجماعة الأولية. تقوم الجماعات الثانوية على اهتمام أو نشاط مشترك بين أفرادها، كما أن أفرادها غالباً ما يتفاعلون مع بعضهم البعض وفق أدوار محددة مثل عامل – مدير أو طالب – أستاذ.

نستعرض الآن دور كل عن الجماعات الأولية والثانوية في المجتمعات المعاصرة، حيث يمكن في إطار مجتمعات الصيد والالتقاط البدائية وحتى مجتمعات الرعي والبستنة اللاحقة، النظر إلى المجتمع ككل على أنه جماعة أولية. إلا أن الجماعات الثانوية أصبحت جزءاً لا يتجزأ من المجتمعات الصناعية وما بعد الصناعية الأكثر تقدماً، وذلك لأنها ضرورة لا غنى عنها لتحقيق المصلحة العامة، فهي تشكل الإطار الذي يحتوي كافة نشاطات أفراد المجتمع والذي يلبي كافة احتياجاتهم. إلا أن الجماعات الثانوية، ورغم ضرورتها لاستمرار الحياة الاجتماعية، تفشل في معظم الأحيان في تلبية حاجتنا إلى العلاقات الأكثر حميميةً، الأمر الذي يؤدي بدوره إلى انقسام الجماعات الثانوية إلى عدة جماعات أولية تشكل صلة وصل بين أفرادها وبين الجماعة الثانوية الأصلية.

### 3.2. جماعات الداخل وجماعات الخارج

نستعرض فيما يلي تعريف وخصائص جماعات الداخل والخارج:

1. جماعات الداخل: هي الجماعات التي نشعر بالولاء لها والانتماء إليها.
2. جماعات الخارج: هي الجماعات التي نشعر بالعداء والخصومة تجاهها.
3. الولاء، التفوق والتنافس: عندما تحدد هويتنا في إطار مجموعة بشرية محددة فإن تأثير هذه الهوية لا يقتصر على شعورنا بالانتماء إلى هذه الجماعة فحسب، بل تولد فينا أيضاً الإحساس بالولاء للجماعة التي ننتمي إليها وإحساساً بالتفوق والسمو نتيجة لهذا الانتماء، وهذا بدوره يؤدي إلى اشتعال المنافسة ضمن الجماعة الواحدة. وغالباً ما تكون هذه المنافسة معتدلة الشدة، وتقتصر على المنافسات الرياضية أو الفنية في إطار الجماعة، إلا أن نيران المنافسة قد تحتدم وتصل إلى حدودها القصوى عندما تتعرض الجماعة لاعتداء إحدى جماعات الخارج.

4. التأثيرات على المجتمعات ذات الطيف الاجتماعي الواسع: من الطبيعي أن يؤدي الانتماء إلى إحدى جماعات الداخل أو الخارج إلى التمييز بين أفراد المجتمع، حيث يدفعنا إحساسنا الجارف بالانتماء إلى جماعاتنا الداخلية والولاء لها إلى تفضيل أعضاء جماعاتنا هذه عن باقي أفراد المجتمع أدى هذا التمييز بين أعضاء جماعات الداخل والخارج إلى العديد من المشاكل في معظم المجتمعات، وقد لاحظ عالم الاجتماع روبرت ميرتون (Robert Merton) أن هذا التمييز يؤدي إلى ازدواجية في المعايير حيث ينحى أفراد جماعات الداخل إلى النظر إلى سمات جماعاتهم على أنها فضائل ومناقب مميزة إلا أنهم يعتبرون هذه السمات نفسها، عند قياسها على جماعات الخارج، رذائلاً وعيوباً.

## 4.2. الجماعات المرجعية

نبين فيما يلي مفهوم الجماعات المرجعية وخصائصها:

1. الجماعة المرجعية: إنها الجماعة التي ننظر إليها كمعيار نقيم أنفسنا على أساسه، مثل العائلة، الأصدقاء، وزملاء العمل ويمكن أن يعتبر المرء جميع الجماعات، حتى تلك التي لا ينتمي إليها، بمثابة جماعة مرجعية له في هذ السياق أو ذاك.
2. المقياس المعياري: تتمتع الجماعات المرجعية بتأثير هائل على حياتنا الاجتماعية. فملاً إذا أراد أحدنا أن يصبح مديراً تنفيذياً فإنه سرعان ما يغير طريقة لباسه بحيث تتوافق مع أزياء المدراء الرسمية، و طريقة حديثه لتصبح أكثر رسمية، كما قد يبدأ بقراءة الصحف والمجلات الاقتصادية ليجري مع عادة المدراء التنفيذيين في قراءة مثل هذه الدوريات.
3. تضارب المقاييس المعيارية في المجتمعات ذات الطيف الاجتماعي الواسع: تقوم المقاييس المعيارية التي توفرها الجماعات المرجعية بدور نظام تحكم اجتماعي إلى حد ما، فطالما نعتبر أنفسنا متوافقين مع هذه المعايير فإننا لن نشعر بأي تناقض، إلا أنه بمجرد أن نفشل في تلبية متطلبات هذا المقياس أو ذاك، نصبح عرضة لاضطراب هائل كما أن تركيبة المجتمعات الواسعة التنوع، وسهولة الانتقال من مجتمع لآخر تعرضان الجيل المعاصر لمشاكل تضارب العديد من الأفكار والمعايير وتناقضها بين الجماعات المختلفة التي نشعر بالانتماء إليها.

## 5.2. الشبكات الاجتماعية

نبين فيما يلي كيفية تشكل الشبكات الاجتماعية وخصائصها:

1. الزمرة: غالباً ما يقتصر تفاعل أفراد الجماعات الكبيرة على قلة من أفراد الجماعة الآخرين، ويمكن في هذا السياق تعريف الزمرة بأنها مجموعة الأفراد الذين اختاروا التفاعل مع بعضهم البعض ضمن الجماعة الأكبر التي ينتمون إليها.
2. الشبكة الاجتماعية: هي مجموعة الصلات بين المرء وبين أعضاء زمرته، عائلته، أصدقائه وحتى أصدقاء أصدقائه.
3. ظاهرة العالم الصغير: رغم أننا نعيش في مجتمع هائل الاتساع، إلا أن حياتنا الاجتماعية لا تبحر بنا في عوالم الغرباء الذين لا نميز وجوههم أو نعرف أسماءهم، بل على العكس، حيث نتفاعل مع مجتمعاتنا بوساطة الشبكات الاجتماعية التي يمكن اعتبارها بمثابة بوابتنا إلى المجتمع الواسع.
4. دراسة ستانلي – ظاهرة العالم الصغير: يهتم علماء الاجتماع بدراسة مدى كثافة الصلات بين الشبكات الاجتماعية، وقد طرح عالم الاجتماع ستانلي ميلغرام (Stanley Milgram) طريقة مثيرة للاهتمام لتحديد هذه الصلات بشكل دقيق، ففي دراسته المعنونة ظاهرة العالم الصغير أرسل ميلغرام رسالة إلى شخص ما دعاه الهدف، كما أرسل عدة رسائل أخرى إلى مجموعة من الأشخاص الذين لا يعرفون الأهداف معرفة شخصية داعياً في هذه الرسائل هؤلاء الأشخاص إلى أن يرسل كل منهم رسالة إلى شخص ما يعرفونه معرفة شخصية ويعتقدون أنه قد يعرف الهدف، ويدعونه فيها إلى أن يكرر هذه العملية وذلك بإرساله رسائل مشابهة وهكذا، وكان الهدف من هذه الدراسة التي قام بها ميلغرام معرفة إذا ما كانت إحدى هذه الرسائل ستصل إلى الهدف أم لا؟ وقد وجد ميلغرام أنه رغم أن أي من الأشخاص الذين أرسل لهم رسائل في بادئ الأمر لا يعرف الهدف، إلا أن الرسائل وصلت في النهاية إلى الهدف بمعدل نقلات لا يتجاوز ستة نقلات.
5. هل يمكن اعتبار ظاهرة العالم الصغير طريقة أكاديمية؟ وجدت بعض الدراسات اللاحقة للدراسة التي قام بها ميلغرام أنه لا يمكن اعتبار النتائج التي توصل إليها صحيحة بالمطلق، ففي أغلب الأحيان لا تصل معظم الرسائل إلى الأهداف المنتقاة، وهذا يؤدي إلى نتائج متعارضة مع نتائج ميلغرام، حيث يمكن النظر إلى الأشخاص الذين لا يعرفون بعضهم البعض على الإطلاق على أنهم معزولين عن بعضهم البعض بحواجز اجتماعية صعبة الاختراق.

6. التأثيرات على المجتمعات ذات الطيف الاجتماعي الواسع: يمكن اعتبار الدراسة التي قام بها ميلغرام دليلاً على الحواجز الاجتماعية التي تقسم المجتمع إلى مجموعة من العوالم الصغيرة، وذلك على الرغم من الاستنتاجات المعاكسة التي توصل إليها وتكن صعوبة القفز فوق هذه الحواجز في أن الشبكات الاجتماعية التي ننتمي إليها تلعب دوراً في تعزيز التمايز بين أبناء المجتمع الواحد.

## 3. ديناميكيات الجماعات البشرية

### 1.3. مقدمة

يعني مصطلح ديناميكيات الجماعة الكيفية التي تؤثر بها الجماعات التي ننتمي إليها علينا بالإضافة إلى التأثير الذي نمارسه كأفراد على هذه الجماعات.

كلنا يعرف من خبرته الشخصية أن التفاعل الحي بيننا وبين بقية أفراد الجماعات التي ننتمي إليها يؤثر تأثيراً عميقاً على الطريقة التي نسير بها حياتنا. يستخدم علماء الاجتماع مصطلح ديناميكيات الجماعة للإشارة إلى الكيفية التي تؤثر بها الجماعات التي ننتمي إليها علينا بالإضافة إلى التأثير الذي نمارسه كأفراد على هذه الجماعات.

### 2.3. حجم الجماعة

يستخدم علماء الاجتماع مصطلح الجماعة الصغيرة لوصف الجماعات التي تتألف من عدد قليل من الأفراد، والذين يتفاعل كل منهم بشكل مباشر مع بقية أفراد الجماعة الآخرين و يمكن أن تكون الجماعات الصغيرة أولية أو ثانوية على حد السواء فمثلاً تُعتبر العائلة المؤلفة من الأب الأم وأطفالهما جماعة صغيرة أولية، في حين يشكل مجموع الضيوف في إحدى الحفلات جماعة صغيرة ثانوية.ونبين فيما يلي تأثير حجم الجماعة على استقرارها وألفتها:

الجماعة الزوجية: أدرك عالم الاجتماع جورج سيمل (George Simmel) أهمية حجم الجماعة واستخدم مصطلح الجماعة الزوجية لوصف أصغر جماعة ممكنة، وهي الجماعة التي تتألف من شخصين فقط، تشمل الجماعات الزوجية كلاً من علاقات الزواج، العلاقات العاطفية، وعلاقات الصداقة المقربة تتمتع الجماعة الزوجية بخصائص تميزها عن باقي أنماط الجماعات فهي:

- أولا: تتألف من شخصين وحسب، وبالتالي فإن التفاعل يتركز بين هذين الشخصين
- ثانياً: تعتبر أقل أنماط الجماعات استقراراً على الإطلاق، وذلك لأنها تتطلب من طرفيها الالتزام الكامل بالجماعة، فإذا فقد أحد الطرفين اهتمامه بالجماعة، فإنها تنهار تماماً

الجماعة الثلاثية: كما عرف سيمل الجماعة الثلاثية بأنها الجماعة التي تتألف من ثلاثة أشخاص، وقد لاحظ سيمل أن إضافة شخص ثالث تغير كثيراً من بنية الجماعة، حيث يقل التفاعل بين الشخصين الأولين كثيراً، وهذا الأمر قد يؤدي بدوره إلى توتر في الجماعة، فمثلاً تغير ولادة الطفل الأول حياة الزوجين، لا بل تقلبها تماماً، حيث ينصب اهتمامهما على الطفل الوليد على حساب العلاقة بينهما مما يحد من التفاعل المباشر بين الزوجين، إلا أنه رغم الصعوبات التي يفرضها وجود الطفل الجديد فإن الزواج ككل يغدو أقوى، وذلك على الرغم من أن درجة الألفة بين الزوجين لا بد وأن تتضاءل مع قدوم المولود الأول إلا أن سيمل لاحظ أيضاً أن الجماعات الثلاثية لا تتمتع بالكثير من الاستقرار، حيث قد يشعر طرفين من أطراف الجماعة بصلات أقوى فيما بينهما مما هي عليه مع الطرف الثالث، مما يدفعهما لتشكيل ائتلاف في مواجهة هذا الطرف، ويصبحان بذلك بمثابة جماعة زوجية ضمن إطار الجماعة الثلاثية الأصلية تتميز الجماعات الثلاثية أيضاً بأنها غالباً ما تجبر أحد أطرافها على لعب دور الوسيط أو المفاوض، وتكون مهمته حل الخلافات والمشاكل التي قد تطرأ بين الطرفين الآخرين.

ويمكن، عموما التعبير عن المبدأ العام للجماعات بالعبارة: تصبح الجماعة الصغيرة مع ازدياد حجمها أكثر استقراراً إلا أن درجة الألفة أو الحميمية تتضاءل بين أفرادها.

### 3.3. القيادة

نستعرض فيما يلي المفاهيم الأساسية للقيادة وأساليبها:

1. القائد: هو الفرد القادر على التأثير في سلوكيات، أراء، ومعتقدات بقية الأفراد.
2. شروط القيادة: غالباً ما يختار أعضاء الجماعة الواحدة قادتهم بحيث يمثل هؤلاء القادة بقية الأفراد خير تمثيل، أو حسب قدرتهم على إخراج الجماعة من الأزمات التي قد تواجهها.
3. أنماط القادة: هناك نوعان من القادة:

- القائد الآلاتي: وهو القائد الذي يبذل جهده لدفع الجماعة إلى متابعة السير قدماً لتحقيق أهدافها.حيث يحاول منع بقية أفراد الجماعة من الانحراف وذلك بتذكيرهم بما يحاولون انجازه معاً كجماعة
- القائد التعبيري: وهو على العكس من النمط الأول، لا يميز كقائد ضمن المجموعة، وهو الشخص الذي يضطلع بالمهام المتعلقة بالحفاظ على المزاج الجيد للجماعة ككل

4. أهمية نمطي القيادة الآلاتي والتعبيري بالنسبة لاستمرار الجماعة: يعتبر كلٌ من نمطي القيادة، الآلاتي والتعبيري، ضرورياً لاستمرار الجماعة، حيث يبقيها الأول على المسار الصحيح، في حين يزودها الثاني بالطاقة النفسية الضرورية لاستمرارها إلا أنه من الصعب أن يضطلع شخص واحد بهذين النمطين من القيادة في آن واحد وذلك لأن متطلبات كل دور تتناقض مع متطلبات الآخر.

5. أساليب القيادة: هناك ثلاثة أساليب أساسية يمكن للقائد أن يتبعها في قيادة جماعته وهي:

- القيادة الفاشستية: حيث يجمع القائد الذي يمارس مثل هذا الأسلوب في القيادة بقية أفراد الجماعة ويملي عليهم المهام التي ينبغي عليهم أداؤها، دون أن يكون عليه تقديم أي شرح أو تفسير لما يطلبه.
- القيادة الديمقراطية: يتبادل القائد الذي يتبع مثل هذا الأسلوب الحوار مع بقية أفراد الجماعة حول مختلف القرارات التي يريد تنفيذها.
- القيادة المتساهلة: حيث يمنح القائد الذي يتبع مثل هذا الأسلوب أفراد جماعته الحرية المطلقة في أداء مهامهم بالطريقة التي يرغبون دون أي قيد أو شرط.

# الفصل الخامس: التمييز الطبقي

## الكلمات المفتاحية

الطبقية، التمييز الطبقي، العبودية، الفرق المنغلقة، المنزلة الاجتماعية، الطبقة الاجتماعية، الصراع الطبقي، الوعي الطبقي، البورجوازية، البروليتاريا، محددات الطبقة الاجتماعية، النظرية الوظيفية، نظرية الصراع الطبقي، السلطة، الأيدولوجية، النزعة الاستعمارية، ثقافة الفقر، النظام العالمي.

## ملخص

يتعرف الطلاب في هذه الوحدة على مفهوم التمييز الطبقي، حيث تعرف الوحدة الطبقة الاجتماعية وتحدد الكيفية التي ينتمي بها المرء إلى هذه الطبقة أو تلك، كما تلقي الضوء على الأسباب التي دفعت بظاهرة التمييز الطبقي لتصبح ظاهره عالمية.

## أهداف تعليمية

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

1. تعريف التمييز الطبقي:والتعرف على نظمه الأربعة الأساسية
   - العبودية
   - نظام الفرق المنغلقة
   - المنازل الاجتماعية
   - النظام الطبقي
2. محددات الطبقة الاجتماعية:
   - كارل ماركس ووسائل الإنتاج
   - ماكس فيبر والملكية الهيبة والقوة
3. أسباب شيوع ظاهرة التمييز الطبقي:
   - تفسيرات النظرية الوظيفية
   - تفسيرات نظرية الصراع الطبقي
4. كيف تحافظ الطبقات المسيطرة على السلطة
   - التمييز الطبقي العالمي
   - العوالم الثلاث نظريات
   - انظريات التمييز الطبقي العالمي

## المخطط

- نظم التمييز الطبقي
- محددات الطبقة الاجتماعية
- أسباب شيوع ظاهرة التمييز الطبقي
- كيف تحافظ الطبقات المسيطرة على السلطة؟
- التمييز الطبقي العالمي

# 1. نظم التمييز الطبقي

## 1.1. مقدمة

- الطبقية الاجتماعية: تُعرف بأنها انقسام المجتمعات والأمم إلى طبقات متمايزة، وذلك تبعاً لثروة أو فقر كل طبقة. تؤثر الطبقة الاجتماعية التي ننتمي إليها بشكل مباشر على فرص نجاحنا في الحياة، كما تؤثر أيضاً على تقديرنا لذواتنا وعلى نظرتنا إلى الحياة بالمجمل.
- التمييز الطبقي الاجتماعي: هو النظام الاجتماعي الذي نتقسم فيه المجتمعات إلى طبقات تتمايز عن بعضها البعض وفق قوتها النسبية، ممتلكاتها، ونفوذها.ومن المهم أن نلاحظ أن مفهوم التمييز الطبقي لا يشير إلى الأفراد، بل هو طريقة لتقييم الجماعات ذات العدد الكبير من الأفراد وفق بنية هرمية تُظهِر المقام النسبي لكل فئة على حدة.
- التمييز الطبقي الاجتماعي ظاهرة عالمية وتاريخية: ومن المهم أن نلاحظ أن كل مجتمع يميز بين أفراده. ففي بعض المجتمعات، كالمجتمعات الزراعية، يقوم الأفراد بإقامة أسوار تحد أراضي كل منهم وتفصلها عن أراضي بقية الأفراد، كما تظهر مجتمعات أخرى، كمجتمعات الصيد والالتقاط البدائية، درجة أعلى من العدالة الاجتماعية إلا أن ظاهره التمييز الطبقي على اختلاف درجاتها تبقى ظاهره عالمية كامنة في كل مجتمع على سطح الأرض.

## 2.1. نظم التمييز الطبقي الاجتماعي:

يقوم التمييز الطبقي الاجتماعي على واحد أو أكثر من النظم الأربعة التالية: العبودية، نظام الفرق المنغلقة، المنازل الاجتماعية، النظام الطبقي. وفيما يلي شرح تفصيلي لهذه النظم.

### 1.2.1. العبودية

نستعرض اولا مفهوم العبودية ومراحل تطورها:

1. العبودية: لطالما كانت العبودية، التي تعرف بأنها امتلاك بعض أفراد المجتمع غيرهم من بني البشر، ظاهره شائعة في التاريخ البشري، حتى أن الكتب السماوية تناولت موضوع العبودية بشيء من التفصيل في طياتها، كما أن العبيد كانوا جزءاً أساسياً في الدولتين الرومانية والإغريقية، حيث كانت مسؤولية العمل في هاتين الدولتين تقع على كواهلهم.
2. أسباب ظاهرة العبودية: على العكس مما يعتقده معظم الناس لم تنشأ ظاهرة العبودية بسبب عنصرية بني البشر، إنما بسبب أحد الأسباب الثلاثة التالية:
   - الدَّين: حيث عمد المدينون في بعض المجتمعات إلى استعباد دائنيهم الذين لم يستطيعوا دفع ديونهم في مواعيد سدادها المستحقة.
   - الجريمة: فعوضاً عن سجن اللصوص أو القتلة، كانت عوائل الضحايا تستعبدهم كتعويض عما فقدوه بسبب جرائمهم.
   - الحرب: ففي كل حرب كان الطرف الغالب يعمد إلى استعباد بعض أو معظم أفراد الطرف المهزوم.
3. استعباد النساء: وقد كانت النساء أول من استُعبد عن طريق الحرب في تاريخ البشرية، فعندما كانت الجيوش تحتل قرية ما، كانت تعمد إلى قتل الرجال وسبي النساء وأخذهن أسرى معهم إلى مواطنهم الأصلية، حيث كُنَّ يعاملن كجوارٍ.
4. العبودية في الدولتين الإغريقية والرومانية: كانت العبودية ظاهره شائعة في دولة الإغريق المدنية التي تأسست منذ حوالي ألفين وخمسمائة عام وأكثر من هذا، فقد استعبدت مدن هذه الدولة بعضها بعضاً، فعندما كانت الحرب تنشب بينها، كانت المدن المنتصرة تستعبد معظم مواطني المدن المغلوبة، وهذا ما أدى إلى العبودية ضمن المجتمع الواحد، ففي الدولة الاغريقية كان كل من العبد والمستعبد إغريقياً، إلا أن الفرق أن أحدهما انتصر في حربه والآخر خسر. وكذلك الأمر عندما استولت الامبراطورية الرومانية على السيادة العالمية منذ حوالي ألفين عام إذ لم يوفر الرومان جهداً لاستعباد الإغريق الذين استطاعوا أسرهم في الحروب بين الدولتين. وقد أصبح بعض هؤلاء الأسرى، الذين كانوا أكثر علماً وثقافة بكثير من سجانيهم، معلمين في المنازل والقصور الرومانية.

5. شروط العبودية: اختلفت شروط العبودية من منطقة لأخرى حول العالم.

- العبودية المؤقتة و العبودية الدائمة: في بعض الحالات كانت العبودية تقوم على أسس مؤقتة، فقد كان العبيد الرومان مثلاً يتمتعون بحق شراء حريتهم وذلك بدفعهم مبلغاً يساوي أو يفوق المبلغ الذي دفعه مالكيهم لشرائهم.إلا أن العبودية كانت في معظم الحالات تدوم طيلة حياة العبد.
- توريث العبودية: لم تكن العبودية تورَّث بالضرورة من الآباء إلى الأبناء، إلا أن معظم المجتمعات كانت تعتبر أبناء العبيد عبيداً بالوراثة.لكن في بعض الحالات كان أبناء العبيد يربون مع أبناء وبنات مالكي آبائهم، كما أن أبناء العبيد في الحضارة المكسيكية كانوا يعاملون دوماً كأحرار.
- ظروف العبيد المعيشية: لم يكن العبيد فقراء ومحرومين بالضرورة، إلا أن هذه كانت الحالة العامة، حيث كان العبيد يعاملون كممتلكات لا حول لها ولا قوة في معظم المجتمعات، لكن بعض المجتمعات كانت تسمح لعبيدها بامتلاك بعض الممتلكات أو الارتقاء إلى مناصب ذات أهمية فيها.

### 2.2.1. نظام الفرق المنغلقة

في نظام الفرق المنغلقة، تتحدد منزلة كل فرد في المجتمع منذ ولادته وتبقى ثابتة لا تتغير حتى مماته أي يقوم نظام الفرق المنغلقة وفق مصطلحات علم الاجتماع على أساس المنازل الموروثة، حيث لا يمكن للمنازل المكتسبة أن تغير موضع الفرد في النظام.

تعمل المجتمعات، التي تتبع مثل هذا النمط في التمييز الطبقي، على المحافظة على الحدود بين كل فرقة وأخرى، وغالباً ما نلاحظ شيوع الزواج بين الأقارب في مثل هذه المجتمعات، بل أكثر من هذا تعمد هذه المجتمعات إلى وضع قواعد لصيانة التقاليد بحيث تبقى الحدود بين الفرق واضحة.

نستعرض فيما يلي مثالين عن نظم الفرق المنغلقة:

- الفرق الدينية في الهند: تقدم لنا الهند أحد أهم الأمثلة التي توضح بنية نظم الفرق المنغلقة، حيث يقوم النظام الطبقي في الهند على أساس طائفي ديني وليس على أساس عرقي. تعود جذور هذا النظام إلى ثلاثة آلاف عام خلت، حيث ينقسم المجتمع الهندي إلى أربعة طوائف أساسية، تنقسم كل منها إلى أكثر من ألفي طائفة فرعية تتخصص كل منها في مهنة محددة. ورغم أن الحكومة الهندية عملت على إلغاء الطائفية الدينية رسمياً عام 1949 إلا أن المجتمع كان قد تشرب تقاليد التمييز الطائفي إلى درجة لا يمكن معها إزالتها بقرار سياسي.

- التمييز العرقي في جنوب أفريقيا: كانت جنوب أفريقيا لا تزال حتى بضعة عقود خلت خاضعة لتأثير الفرق المنغلقة، حيث كانت جميع مؤسسات الدولة خاضعة لسلطة الأقلية البيضاء التي استخدمت هذه السلطة لاستغلال الغالبية السوداء.وقد كان المجتمع الجنوب أفريقي يقسم إلى أربعة فرق أساسية حسب العرق، حيث كان كل مواطن يصنف حسب لونه فيكون إما أوروبي أبيض، أفريقي أسود، من عرق مختلط أو من أصل آسيوي. ورغم أن الأغلبية السوداء استطاعت انتزاع حقوقها من الطغاة البيض إلا أن أوضاعهم المعيشية لا تزال حتى اليوم أقل مستوى من أقرانهم البيض، كما أن أجواء التوتر والضغينة لا تزال تغلب على العلاقة بين العرقين في جنوب أفريقيا.

### 3.2.1. المنازل الاجتماعية

طور الأوروبيون في العصور الوسطى نظام التمييز الطبقي على أساس المنازل الاجتماعية، حيث انضم المجتمع إلى ثلاث جماعات أو منازل اجتماعية رئيسية:

1. منزلة النبلاء: أي العائلات الثرية التي كانت تحكم مختلف أنحاء القارة، وقد امتلك النبلاء معظم الأراضي الزراعية التي كانت المصدر الأساسي للثروة في ذلك الوقت. إلا أن النبلاء لم يكونوا ليقوموا بأي عمل بأنفسهم، حيث كانوا ينظرون إلى العمل على أنه من مهام الكائنات الأدنى منزلة منهم، وبالتالي فقد حصروا مسؤولياتهم في إدارة أراضيهم وممتلكاتهم وفي التمتع بمستوى العيش المتوافق مع مكانتهم كطبقة عليا. في المجتمع عمد النبلاء، للحفاظ على وحدة أراضيهم وتجنب تقسيمها إلى أراضي صغيرة ومتفرقة، إلى تطبيق حق البكورة، حيث كانت ملكية كافة الأراضي تنتقل عند موت الأب إلى الابن البكر في حين كان على بقية الأبناء أن يجدوا وسائل أخرى لكسب عيشهم وقد كان الانتساب إلى الكنيسة والترهبن أحد أفضل البدائل المتاحة وذلك لأن رجال الدين كانوا يحتلون موقعا متميزاً في المجتمع يمكنهم من التمتع بمستوى معيشي مرتفع وبمهابة باقي أفراد المجتمع.
2. منزلة رجال الدين: حيث كانت سلطة الكنيسة الكاثوليكية السياسية لا تزال تتحكم بأوروبا أثناء العصور الوسطى. كما كانت الكنيسة تمتلك مساحات شاسعة من الأراضي وكانت تفرض الضرائب على كل فرد يعيش ضمن هذه الأراضي.
3. منزلة العامة– الأقنان: وكانوا أشبه بملحقين بالأراضي الزراعية، فعندما كان نبيل ما يشتري أرضاً زراعية كان الأقنان جزءاً من صفقة الشراء. لم يكن بإمكان الأقنان الارتقاء بمنزلتهم الاجتماعية إلا بإحدى طريقتين، الأولى هي إبراز شجاعة نادرة في ساحات القتال مما يخول المقاتل الحصول على لقب فارس، والطريقة الأخرى هي بالانتساب بوسيلة ما إلى الكنيسة.

### 4.2.1. نظام الطبقات

كما لاحظنا فإن نظم التمييز الطبقي القائمة على العبودية، الفرق المنغلقة أو المنازل الاجتماعية هي نظم صارمة ذات حدود واضحة بين مختلف الفئات، كما أن الانتقالات بين طبقات مثل هذه النظم غالباً ما تكون محدودة، هذا إن سُمح بها أصلاً وعلى العكس فإن نظام الطبقات أكثر انفتاحاً من باقي نظم التمييز الطبقي حيث يعتمد في تقسيماته على الثروات والممتلكات المادية التي يمكن لأي كان كسبها ورغم أن هذا النظام يرافق الإنسان منذ ولادته، حيث ينتسب الوليد إلى طبقة والديه إلا أنه يمكنه مع تقدمه بالعمر الارتقاء بطبقته الاجتماعية وذلك حسب الانجازات التي يحققها بجهده وعمله، كما أن هذا النظام لا يتضمن أي قانون أو تشريع يمايز بين الأفراد وفق طبقاتهم.

إن الخاصية الأساسية التي تميز نظام الطبقات هي المرونة النسبية للحدود بين طبقاته حيث يسمح هذا النظام بحرية الحركة بين الطبقات والانتقال صعوداً أو هبوطاً على السلم الاجتماعي.

## 2. محددات الطبقة الاجتماعية

### 1.2. كارل ماركس ووسائل الإنتاج

كان كارل ماركس شاهداً على إحدى الثورات الهامة التي شهدها المجتمع البشري، حيث عاصر انهيار النظام الإقطاعي وما رافقه من تهجير للفلاحين من أراضيهم وإجبارهم على العمل في المصانع تحت أسوأ الظروف وأكثرها لا إنسانية، الأمر الذي دفع بماركس إلى الاستنتاج بأن الطبقات الاجتماعية تتمايز وفق عامل واحد وواحد فقط هو وسائل الإنتاج – أي المصانع، الأدوات، ورأس المال.

اعتبر ماركس أن الخصائص التي يتبناها الناس لتمييز بعضهم عن بعض مثل طبيعة المهنة أو المستوى الثقافي هي مجرد تقسيمات سطحية، ولا تفعل أكثر من تورية الحد الحقيقي في المجتمع والذي يقسمه إلى طبقتين هما طبقة البوروجوزايين أي مالكي وسائل الإنتاج، وطبقة البروليتاريا أي العمال الذين يعملون لدى الملاك أي باختصار فإن العلاقة بين الأفراد ووسائل الإنتاج هي التي تحدد طبقتهم الاجتماعية.

وفيما يلي أهم المحددات من وجهة نظر ماركس:

- أهمية الوعي الطبقي: رغم أن ماركس لم ينفِ وجود جماعات أخرى في المجتمع مثل الفلاحين، المشردين والطبقة الوسطى التي تتألف من أصحاب المهن. إلا أنه لم يعتبر هذه الجماعات طبقات اجتماعية وذلك لأنها تفتقر إلى الوعي الطبقي – أي إلى الهوية المشتركة المستقاة من مواقع أفرادها ضمن عملية الإنتاج، حيث أن أفراد هذه الجماعات لا يدركون كينونتهم كطبقات مستغلة يمكنها أن تحرر نفسها بالثورة على مستغليها. وقد دفع هذا الأمر بماركس إلى اعتبار هذه الفئات غير ذات أهمية بالنسبة للثورة التي سيقوم بها العمال على الطبقة البورجوازية المستغلة.
- نهاية الصراع الطبقي: أكد ماركس على أن الطبقة البورجوازية ستزداد ثراءً مع مرور الأيام، إلا أن العمال لا بد أن يدركوا يوماً أن الرأسماليين هم سبب شقائهم، وسيدفعهم هذا الوعي إلى الاتحاد في كتلة واحدة في مواجهة مستغليهم، وبعد ثورة دامية سيستولي هؤلاء العمال على ملكية وسائل الإنتاج وسينتهي الصراع الطبقي ببناء مجتمع لا طبقي تسوده العدالة الاجتماعية.
- دور الوعي الزائف في استمرار استغلال العمال: إلا أن الوعي الزائف، حسب ماركس، هو ما يمنع العمال من الانطلاق بثورتهم، حيث يتوهم العمال أنفسهم أصحاب رأس المال في حين أنهم مجرد أدوات تستغلها الطبقات الرأسمالية.

### 2.2. ماكس فيبر والمحددات الثلاث

كان ماكس فيبر من أشد المعارضين لماركس، حيث اعتبر أن الملكية هي مجرد جزء من الصورة الكلية. تتحدد الطبقة الاجتماعية من وجهة نظر فيبر وفق ثلاثة محددات أساسية هي الملكية، الهيبة والقوة:

1. الملكية (أو الثروة): لم ينكر فيبر أهمية الدور الذي تلعبه الثروة في تحديد الطبقة التي ينتمي إليها المرء، وهو في هذا يتفق مع ماركس، إلا أنه أكد على أن الملكية ليست الجانب الأهم للثورة، حيث يمكن لبعض الأشخاص أن يتحكموا بوسائل الإنتاج ويسخروها لمصلحتهم دون أن يمتلكوا هذه الوسائل بشكل مباشر.
2. الهيبة: غالباً ما تتبع الهيبة مقدار الثروة التي يمتلكها المرء، إذ يميل المجتمع إلى احترام أفراده الأغنى من سواهم، إل أن فيبر يشير إلى أن الهيبة يمكن أن تستند إلى أسباب أخرى مثل أن يحقق المرء إنجازات تفوق ما يحصله الأفراد عادة سواء علمياً، فنياً، أدبياً أو رياضياً.
3. القوة: والقوة هي المقدرة على التحكم بالآخرين، ويتفق فيبر مع ماركس في أن الملكية هي من أهم العوامل التي تكسب المرء القوة إلا أنه يؤكد على أن القوة لا تعتمد على الثروة فقط، فالهيبة يمكن لها أن تفضي إلى القوة. وبالتالي فإن هناك علاقة متبادلة بين محددات الطبقة الاجتماعية الثلاثة.

## 3. أسباب شيوع ظاهرة التمييز الطبقي

### 1.3. النظرية الوظيفية

اختلفت آراء علماء الاجتماع حول الأسباب الكامنة وراء انتشار ظاهرة التمييز الطبقي في معظم المجتمعات الإنسانية، وذلك تبعاً للنظرية الاجتماعية التي يتبناها هؤلاء العلماء، حيث طرح كل من أتباع النظرية الوظيفية وأتباع نظرية الصراع الطبقي طرحاً خاصاً بهم فيما يتعلق بهذا الموضوع:

يعتبر أصحاب النظرية الوظيفية (تحفيز الأشخاص ذوي الكفاءات) أن نماذج السلوك التي تميز كل مجتمع عن سواه إنما توجد في الحقيقة لتلبية وظائف وحاجات هذا المجتمع ويخلص هؤلاء العلماء إلى أن عالمية ظاهرة اللاعدالة الاجتماعية تقتضي أن هذه الظاهرة ضرورية بهذا الشكل أو ذاك لضمان استمرارية المجتمعات البشرية أما كيف يتم هذا؟ فهذا ما يناقشه التفسير الآتي :

درس عالما الاجتماع كينغسلي دافيس (Kingsely Davis) وفيلبرت مور (Wilbert Moore) هذه المعضلة بتمعن وخلصا إلى أن ظاهرة التمييز الطبقي إنما هي ظاهرة حتمية يتعذر اجتذابها وذلك للأسباب التالية:

- ينبغي على المجتمع أن يضمن بطريقة ما تعبئة كافة مراكزه على اختلافها
- تتمتع بعض هذه المراكز بأهمية نسبية أعلى من سواها
- ينبغي أن يشغل الأفراد الأكثر كفاءة في المجتمع مراكزه الأكثر أهمية
- بغية تشجيع أفراده الأكثر كفاءة كي يشغلوا المراكز الأكثر أهمية، ينبغي على المجتمع أن يعرض على هؤلاء الأفراد ميزات تفوق ما يقدمه لبقية أفراده

وبالتالي فإن تفسير دافيس ومور يقوم على فكرة أساسية بسيطة، وهي أن المجتمعات تسير بشكل أفضل عندما تسلم المراكز الحساسة فيها إلى الأشخاص ذوي الكفاءات العالية.

نقد تومين (Tumin) لتفسير دافيس (Davis) ومور (Moore): كان عالم الاجتماع ميلفن تومين ( Melvin Tumin) أول منتقدي تفسير دافيس ومور، حيث عمل على تحليل نقاط ضعف هذا التفسير الوظيفي فجاءت كما يلي:

- بالنسبة لأصحاب النظرية الوظيفية ينبغي أن تمنح المراكز الأكثر أهمية في المجتمع أكبر الامتيازات، ولكن بالمقابل كيف نعرف أن المراكز التي تقدم أكبر الامتيازات هي المراكز الأكثر أهمية في المجتمع؟ أي حتى نحدد الأهمية النسبية لمراكز المجتمع ينبغي أن تتوافر لدينا طريقة مستقلة لقياس هذه الأهمية، وهذا ما نفتقر إليه في الوقت الراهن.

- إذا ما كان التمييز الطبقي يقوم فقط على الأسس التي طرحها دافيس ومور فإن هذا يعني أن كافة المجتمعات إنما هي مجتمعات استحقاقية، أي أن توزيع المراكز فيها يتم على أساس الأهلية والجدارة فقط، إلا أن هذا ليس واقع الحل، فمثلاً غالباً ما يتلقى أبناء العوائل الثرية تعليماً أعلى مستوى من أقرانهم أولاد العوائل الأفقر والذين قد يتمتعون بجدارة أكبر، وهذا بدوره يفتح أبواب الفرص أمام أبناء الأثرياء في حين يغلقها أمام فناء الفقراء.
- إذا ما كان التمييز الطبقي وظيفياً إلى الحد الذي يدعيه دافيس ومور ينبغي إذاً أن يعود بالفائدة على معظم أفراد المجتمع، إلا أن التمييز الطبقي غالباً ما يؤدي إلى الاختلال الوظيفي، حيث يغير هذا التمييز حياة الطبقات الأدنى كلية ويحرمها من فرص التطور والارتقاء على السلم الاجتماعي

## 2.3. نظرية الصراع الطبقي

يؤكد أصحاب هذه النظرية على أن الصراع الطبقي هو السبب الوحيد لظاهرة التمييز الطبقي.ونستعرض فيما يلي أهم الطروحات حول هذه النظرية:

1. طرح موسكا (Mosca): اعتبر عالم الاجتماع الايطالي غيتانو موسكا(Gaetano Mosca) أن التمييز الطبقي انما ينشأ عن اختلال توزيع السلطة في المجتمع، وهذا الاختلال حتمي وذلك للأسباب التالية:

- لا يمكن لأي مجتمع الاستمرار بالوجود إلا إذا كان منظماً وفق هيكلية ما، وهذا يقتضي نمطاً ما من أنماط القيادة وذلك لتنظيم بقية أفراد المجتمع وتوجيه أفعالهم بحيث تصب في المصلحة العامة
- تؤدي القيادة إلى توزيع غير عادل للسلطة حيث يتولى بعض الأفراد قيادة المجتمع في حين على بقية الأفراد اتباع أوامرهم
- إن البشر بطبيعتهم لا يفكرون إلا بأنفسهم أولاً ولذا فإن الأفراد الذين يتمتعون بالسلطة في مجتمعاتهم لا يوفرون جهداً في استغلال مناصبهم لتحقيق مصالحهم الشخصية

2. طرح ماركس (Marx): نظر ماركس إلى التاريخ البشري على أنه تاريخ للصراع الطبقي بين أصحاب السلطة، والذين يستغلون هذه السلطة للسيطرة على موارد الإنتاج وتحقيق مصالحهم واستغلال الطبقات الدنيا، وبين الطبقات المستغلة التي تناضل للوصول إلى السلطة.واعتبر أن طروحات النظرية الوظيفية لا تتعدى أن تكون مجرد أيدولوجية تستخدمها الطبقات البرجوازية لخداع العامة والحفاظ على استقرار المجتمع.

3. الطروحات المعاصرة:

- تحليل انتصار الرأسمالية الحديثة العالمي يتبع بعض دارسي نظرية الصراع الطبقي المعاصرين خطى ماركس حيث يصبون جل اهتمامهم على تحليل انتصار الرأسمالية الحديثة العالمي، ويحلل هؤلاء الباحثون الكيفية التي تستخدم بها الرأسمالية القوة العسكرية في الحفاظ على هيمنتها ونقل تركيزها من استغلال عمال الدول الصناعية الأكثر تقدماً إلى عمال الدول النامية الأكثر فقراً.
- دراسة التنافس بين الجماعات التي تنتمي إلى نفس الطبقة الاجتماعية في المقابل ينكب بعض دارسي نظرية الصراع الطبقي المعاصرين على دراسة التمييز الطبقي أينما وجد، حيث يركزون على دراسة التنافس بين الجماعات التي تنتمي إلى نفس الطبقة الاجتماعية، أو حتى التي تنتمي إلى نفس الصناعة وذلك للسيطرة على الحصة الأكبر من السوق.

لا يكتفي أصحاب نظرية الصراع الطبقي بانتقاد طروحات النظرية الوظيفية إنما يهاجمون هذه النظرية من أساسها، حيث يؤكدون أن الصراع الطبقي، وليس الوظيفة، هو السبب الوحيد لظاهرة التمييز الطبقي ففي كل مجتمع، تناضل الجماعات المختلفة وتتصارع مع بعضها البعض بغية السيطرة على الحصة الأكبر من موارد المجتمع وعندما تسيطر جماعة ما على السلطة في المجتمع فإنها تستخدم هذه السلطة لتحقق لنفسها المزيد من المكاسب وذلك على حساب الجماعات الأخرى التي تتموضع تحتها في الهرمية الاجتماعية، كما تسخر جماعات النخبة هذه مختلف مؤسسات المجتمع لتبقي السلطة في عهدتها.

## 4. كيف تحافظ الطبقات المسيطرة على السلطة؟

تقدم لنا أوروبا الصور الوسطى مثالاً عن قوة الأيدولوجية فقد كانت الأراضي الزراعية هي المصدر الوحيد للثروة في نظام المنازل الذي كان سائداً في أوروبا في تلك العصور، وانحصرت ملكية هذه الأراضي في أيدي النبلاء والكنيسة، في حين كان بقية أفراد المجتمع مجرد عوام (أو أقنان) يُباعون ويُشتَرَوْن مع الأراضي، ورغم ذلك استمر هؤلاء الأقنان بزراعة الأرض بعرق جبينهم وعن ثم تقديم خيراتها لسادتهم عاماً بعد عام وعلى امتداد القرون، فما السبب الذي دفعهم إلى الخضوع لهذا الاستغلال؟ في الحقيقة يمكن إرجاع نجاح الطبقات المسيطرة في السيطرة على المجتمع على امتداد العصور إلى الأسباب التالية:

1. السيطرة على الأفكار: لم يكن بإمكان الفئات المسيطرة الاعتماد على القوة وحدها في إخضاع طبقات العوام لهذه الفترة الطويلة، وذلك لأن اللجوء العنف كان سيؤدي إلى الثورة، لذا عمدت هذه الفئات إلى استخدام الأيدولوجيات (أي المعتقدات التي تحكم نظرة الإنسان إلى العالم من حوله) وذلك لإقناع الأقنان بالخضوع لسيطرتهم طورت الفئات المسيطرة لهذه الغاية أيدولوجية حق الملوك الإلهي أي أن الخالق هو من يمنح الملوك سلطتهم الدنيوية، ويمنح هؤلاء الملوك هذه السلطة لمن يشاؤون من النبلاء،

والذين كانت طاعتهم واجبة أما عصيانهم فهو بمثابة عصيان للخالق يستوجب معه عقاب المذنب في الآخرة.

2. التحكم بالمعلومات: تلجأ الطبقات المهيمنة في العديد من الحالات إلى السيطرة على حركة المعلومات ضمن المجتمع وذلك للحفاظ على سيطرتها على أفراده، حيث نجد مثلاً أن النظم الديكتاتورية تمارس هذه السيطرة من خلال التهديد باستخدام القوة، حيث يتم خنق أي صوت معارض بأعنف الوسائل، في حين تعمد النظم الديمقراطية إلى تمويه هذه السيطرة وذلك من خلال توجيه وسائل الإعلام بحيث لا تبث إلا ما ينسجم مع مصلحة هذه النظم.
3. استخدام التقنية الحديثة: تعتبر التقنيات الحديثة سلاحاً في يد الطبقات المسيطرة حيث يمكنها مثلاً التنصت على الهواتف لمعرفة ما يجري داخل المجتمع بشكل مباشر، إلا أن هذه التقنية سيف ذو حدين، فرغم أنها تسهل سيطرة السلطة إلا أنها تجعل التحكم بالمعلومات أصعب بكثر، وهذا ما نشهده اليوم مع تطور الإنترنت وتقنياتها المرافقة التي تجعل من شبه المستحيل على الطبقات المسيطرة أن تتحكم بها.

تحافظ الطبقات المسيطرة على مواضعها في الهرمية الاجتماعية وذلك بالسيطرة على الأفكار والمعلومات وتسخيرها لمصلحتها، وذلك وفق العديد من الطرق التي يُعتبر استخدام القوة أقلها فعالية.

## 5. التمييز الطبقي العالمي

### 1.5. العوالم الثلاثة

لا يقتصر التمييز الطبقي على التمييز بين أفراد المجتمع الواعد بل يتعداه إلى التمييز بين الأمم والدول ونشوء مايسمى بالتمييز الطبقي العالمي، وحتى وقت قريب كان العالم مقسوماً إلى ثلاثة معسكرات أساسية دعيت العالم الأول، الثاني والثالث:

- تألف العالم الأول من الدول الصناعية الرأسمالية الغنية
- وشمل العالم الثاني الدول الشيوعية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي
- في حين استخدم مصطلح دول العالم الثالث للإشارة إلى كافة الدول التي لا تنتمي إلى أي من المعسكرين السابقين

إلا أن هذا التقسيم تغير بعد انهيار المنظومة الشيوعية، وأصبحت دول العالم تصنف تبعاً لتقدمها الصناعي إلى الدول الصناعية الأكثر تقدماً، الدول النامية، والدول النامية الأقل تقدماً:

1. الدول الصناعية الأكثر تقدماً: تشمل هذه الفئة كلاً من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا في أمريكية الشمالية، فرنسا، إنكلترا، ألمانيا، ايطاليا، سويسرا وبقية الدول الصناعية في أوروبا، اليابان في آسيا بالإضافة إلى أستراليا ونيوزلندة في القارة الأوقيانوسية وتعتبر كل واحدة من هذه الدول دولة رأسمالية مهما كانت التسمية التي تطلقها على نظام الحكم الذي تتبعه لا تمتد هذه الدول إلا على 31% من مساحة العالم كما أن مواطنيها لا يشكلون أكثر من 16% من سكان العالم إلا أنهم يتمتعون بالقسم الأعظم من ثروته.
2. الدول النامية: تشمل هذه الفئة معظم أمم الاتحاد السوفيتي السابق وبقية الدول والنظم التي تحالفت معه في أوروبا الشرقية، تمتد هذه الأمم على مساحة لا تتعدى 20% من مساحة الأرض ولا تتجاوز نسبة مواطنيها 31% من سكان العالم وفي الحقيقة من الصعب تصنيف الدول بحيث تقع ضمن هذه الفئة وبالمختصر يمكننا القول أن سكان هذه الدول يتمتعون بمستوى دخل أعلى من مستوى دخل سكان الدول الأفقر، إلا أنه يبقى أقل من مستوى دخل مواطني الدول الأكثر تقدماً.
3. الدول النامية الأقل تقدماً: يعمل معظم سكان هذه الدول بالزراعة وهم يشكلون النسبة الأكبر من سكان العالم حيث تتجاوز نسبتهم 53% من سكان العالم كما أن مساحة هذه الدول مجتمعة تعادل تقريباً 49% من مساحة العالم يعيش معظم سكان هذه الدول تحت خط الفقر أو أعلى منه بقليل في ظروف معيشية سيئة، بالإضافة إلى ذلك فإن سيطرة الدول الرأسمالية المباشرة أو غير المباشرة على هذه الدول غالباً ما تعيق أي محاولة للتطوير والإصلاح يمكن أن تقوم بها أي منها.

## 2.5. النظريات

هناك ثلاث نظريات تشرح الأسباب التي تدفع ببعض الدول إلى استغلال الدول الأخرى، مما يؤدي بالتالي إلى التمييز الطبقي بين الأمم، وهذه النظريات هي:

1. النزعة الاستعمارية: تشرح نظرية النزعة الاستعمارية كيف استطاعت الدول الرائدة في مجال الصناعة أن تهيمن على باقي دول العالم. فمنذ انطلاق الثورة الصناعية في بريطانيا حوالي عام 1750، ومع انتشارها في باقي الدول الأوروبية، بدأت هذه الدول، التي استغلت شيئاً من عائداتها المتزايدة في تطوير السفن السريعة والمعدات الحربية، باحتلال الأمم الأضعف منها وتحويلها إلى مستعمرات تابعة لها.

لم تكتفِ الدول المستعمرة بمجرد السيطرة السياسية والاقتصادية على الأمم التابعة لها بل عمت أيضاً إلى إعادة رسم خريطة العالم بالشكل الذي يتوافق مع مصالحها حيث أعادت رسم الحدود بين الدول دون أن تراعي أي من الاعتبارات الوطنية، القبلية أو الحضارية التي توحد عادة بين مواطني الدولة

الواحدة. وهذا ما فعلته كل من بريطانيا وفرنسا عندما أعادتا رسم خريطة الوطن العربي، وهذا يفسر لماذا تبدو حدود بعض الدول مثل ليبيا والكويت شديدة الاستقامة.

2. نظرية النظام العالمي: وضع إيمانويل والترشتاين (Immanuel Wallterstien) نظرية النظام العالمي بهدف تفسير ظاهره التمييز الطبقي العالمي حيث لاحظ أن عملية التصنيع تقسم الأمم إلى أربعة فئات أساسية هي:

- دول النواة: وهي الدول التي تحولت إلى دول صناعية قبل غيرها من الدول (وهي بريطانيا، هولندا، فرنسا وألمانيا لكن في مرحلة لاحقة) وسرعان ما أصبحت هذه الدول الأغنى والأقوى في العالم.
- الدول شبه المحيطية: وهي دول منطقة حوض البحر المتوسط والتي استطاعت أن تطور اقتصاداً مستقراً وثروة لا بأس بها عن طريق التبادل التجاري مع دول النواة.
- الدول المحيطية: وهي دول أوروبا الشرقية التي بقي اقتصادها معتمداً على بيع المحاصيل الزراعية إلى دول النواة وبالتالي كان تطورها أبطأ من تطور الفئتين السابقتين.
- دول المنطقة الخارجية: وتشمل معظم دول آسيا وأفريقيا.

وقد أدى تطور الرأسمالية إلى تغير هذه الفئات فلم تعد آسيا مثلاً خارج العجلة الرأسمالية. وأدت عولمة الرأسمالية – أي تبني معظم دول العالم للاقتصاد الرأسمالي – إلى تقوية الروابط والصلات بين مختلف دول العالم، حيث أصبحت العلاقات الإنتاجية والتجارية متداخلة إلى درجة أن ما يحدث في أي مكان في العالم، يؤثر على العالم ككل، وبالتالي أصبحت جميع مجتمعات الأرض جزءا من النظام العالمي الجديد ولا يمكنها أن تنفصل عنه.

3. ثقافة الفقر: طرح جون كينيث غالبرايث (John Kenneth Gallbraith) نظرية مخالفة تماماً لكل ما سبق في تفسير ظاهره التمييز الطبقي العالمي، حيث افترض أن ثقافة وحضارة الدول النامية هي السبب في تخلف هذه الدول وقد ادعى غالبرايث أن بعض الدول لا تزال عالقة في ثقافة الفقر – وهي أسلوب معيشي يساهم في توارث الفقر عبر الأجيال. وقد شرح غالبرايث نظريته كما يلي بما أن معظم سكان الدول الفقيرة لا يعدون أكثر من مجرد فلاحين، فإن حياتهم ترتبط بالأرض بشكل وثيق ولا تتحمل أي مخاطرة أو خطأ من أي نوع، وهذا ما يدفعهم إلى الالتزام بالطرائق التقليدية التي يعرفونها وتجنب تجربة الطرق الأكثر تقدماً والتي يخافون أن يفشلوا في استخدامها، الأمر الذي يؤدي إلى تقهقر الإنتاج ككل وتراجع مستواهم المعيشي.

# الفصل السادس: ابن خلدون وعلم العمران

## الكلمات المفتاحية

ابن خلدون – المقدمة – التاريخ – علم العمران – حضارة التاريخ – باطن التاريخ – العلم البرهاني – الموضوع – الأعراض الذاتية – المسائل – المقدمات – المنهج – المنهج الاستقرائي التاريخي – الاستنباط المقدمات – الدولة – معنى الملك:

## ملخص

يتعرف الطلاب في هذه الوحدة على العالم العربي الكبير ابن خلدون، وذلك على امتداد حياته الخصبة والغنية بالأحداث. كما تلقي هذه الوحدة الضوء على علم العمران، وهو العلم الذي أسسه ابن خلدون بهدف دراسة الدول وتاريخها بشكل علمي دقيق.

## أهداف تعليمية

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

1. موجز حياة ابن خلدون ومراحلها الأساسية
   - مرحلة التلمذة
   - مرحلة المغامرات السياسية
   - مرحلة العزلة والتأليف
   - مرحلة التدريس والقضاء
2. التاريخ من وجهة نظر اين خلدون
   - حضارة التاريخ
   - باطن التاريخ
   - معيار تصحيح الأخبار – مدخل إلى علم العمران
3. مقدمة إلى علم العمران
   - العلم البرهاني
   - تعريف علم العمران كعلم برهاني
   - منهج علم العمران
   - مقدمات ابن خلدون
   - محور النظرية – الدولة
4. مقارنة علم العمران وعلم الاجتماع

## المخطط

- حياة ابن خلدون
- التاريخ من وجهة نظر ابن خلدون
- مقدمة إلى علم العمران
- محور النظرية – الدولة
- مقارنة علم العمران وعلم الاجتماع

## 1. حياة ابن خلدون

ان خلدون هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الذي ولد وتوفي في الفترة بين (732 – 808 هـ) وهو مؤرخ وفيلسوف اجتماعي، عربي مسلم، ينتهي نسبه إلى وائل بن حجر من عرب اليمن وفي وصف المؤرخين لشخصية ابن خلدون يتجلّى بأنه كان واسع الاطلاع، غزير العلم، عميق الاستقراء والاستنتاج، كما كان قوي الحدس في التحليل والمقارنة، موفقاً في ضبط العلل والعوامل، وإقرار الأصول والأحكام والقواعد والأسس

لقد جرى الباحثون، والمعنيون بالدراسات الخلدونية على تقسيم أطوار حياة ابن خلدون كما يلي:

- مرحلة التلمذة: تونس 732 – 753 هـ.
- مرحلة المغامرات السياسية:المغرب والجزائر والأندلس 754 – 776 هـ.
- مرحلة العزلة والتأليف: قلعة ابن سلامة في الجزائر 776 – 780 هـ.
- مرحلة التدريس والقضاء وتنقيح وتتميم مؤلفه: تونس 780 – 784 هـ ثم القاهرة 784 – 808 هـ (سنة وفاته).

أشهر مؤلفاته: ألف ابن خلدون العديد من المؤلفات الهامة نذكر منها:

1. ديوان العبر: يتحدث فيه ابن خلدون عن حياة الأغالبة وتاريخ تعمير صقلية، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى عدة لغات أجنبية وبالأخص الفرنسية.
2. كتاب تاريخ ابن خلدون ذو المقدمة الشهيرة: اشتهر ابن خلدون بمقدمته التي هي جزء من كتابه الضخم الذي ألفه في التاريخ العام وسماه كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، وهذا الكتاب يشمل المقدمة ومعها:
   - الكتاب الأول: في العمران وطبيعته
   - الكتاب الثاني: ويشتمل على أخبار العرب وأجيالهم
   - أما الكتاب الثالث: فيعرض لنا أخبار البربر ومن يليهم

وقد عالج ابن خلدون في هذه المقدمة واقعات العمران البشري، التي تشمل كل القواعد في الاتجاهات العامة التي يسلكها أفراد المجتمع في تنظيم شؤونهم الجماعية، وضبط العلاقات وتنسيقها أي بعبارة أخرى الظواهر الاجتماعية.

### 1.1. مرحلة التلمذة

ولد ابن خلدون في تونس عام 732 هـ (1332 م)، وقضى طفولته في بيت والده الذي كان بيت علم ورئاسة. نزح أهله من الأندلس أوساط القرن السابع للهجرة، وذلك عندما بدأت أطراف الأندلس تسقط في يد الأسبان.

بدأ ابن خلدون دراسته مبكراً، واستهلّها، على يد والده وبعض أساتذة تونس آنذاك، بحفظ القرآن، لينتقل بعد ذلك إلى دراسة العلوم اللغوية الدينية من حديث وفقه ونحو وآداب.

على أن بداية تفتح فكره كانت على يد أبي عبدالله بن إبراهيم الآبلي، الذي لطالما اعتبره ابن خلدون فيلسوف عصره بلا منازع، وقد حصل أول اتصال بينهما عندما كان عمر ابن خلدون لا يتجاوز السادسة عشرة، وذلك بفضل الزمالة التي ربطت بين الآبلي ووالد ابن خلدون، وقد اهتم ابن خلدون في هذه المرحلة المبكرة من حياته بدراسة العلوم العقلية ولاسيما العلم الإلهي، وإن كان موقفه من هذه العلوم سيتغير لاحقاً أثناء كهولته وشيخوخته.

وقد استطاع ابن خلدون خلال المدة التي لازم فيها أستاذه الآبلي في تونس أولاً وفي فاس ثانياً أن يتعرف على جوانب مهمة من الفكر الفلسفي في الإسلام إلا أن مغادرة الآبلي لتونس، وخلو البلاد من المشايخ والأساتذة بسبب عودتهم إلى المغرب الأقصى، أو بسبب الطاعون الجارف الذي ذهب بحياة الكثيرين منهم، كل هذا جعل صاحبنا يشعر بالوحدة والفراغ، مما دفعه إلى الرحيل إلى فاس للالتحاق بأستاذه، خاصة الآبلي.

عندما عزم ابن خلدون على الرحيل حاول أخوه منعه، إلا أنه استطاع التحايل على أخيه وتحقيق رغبته بالسفر إلى فاس ويحدثنا ابن خلدون في كتابه التعريف عن حرب قامت بين أبي زيد الحفصي، المطالب بعرش تونس، وبين ابن تافراكين المستبد يومئذ بهذا العرش، وأن هذا الأخير كان بحاجة لمن يكتب العلامة عن سلطانه، فاستدعى ابن خلدون وأسند المهمة إليه فقبلها على الفور ليتمكن من اللحاق بأستاذه، وفعلاً وصل ابن خلدون إلى المغرب عام 753 هـ، وبمجرد وصوله انكب على الدراسة والتحصيل غير مهتم بوظيفة الكتابة والتوقيع التي أسندها إليه سلطان فاس آنذاك أبو عنان المريني، والذي رأى فيها منصباً لا يتناسب مع ما تقلده أجداده من وظائف عليا.

قضى ابن خلدون خمس سنوات في فاس، كرجل من حاشية السلطان في ثلاثة منها وكسجين في السنتين المتبقيتن، وقد عكف في السنوات الخمس على دراسة ما استطاع من المعارف والكتب، وكان أساتذته في فاس خليطاً من علماء مهتمين بالعقليات وآخرين منكبين على الفقهيات وفريق ثالث يهتم بالأدب وعلوم اللغة ويمكن القول إن ابن خلدون قد حصل في فاس على بغيته من العلوم والنقلية معاً فهو من جهة أتم دراسته الفلسفية على يد أستاذه الآبلي، كما عاد من جهة ثانية إلى العلوم الدينية واللغوية ليدرسها بعمق وتفصيل في أمهات الكتب، بعد أن كان قد بدأ بدراستها في المتون والمختصرات أيام تلمذته في تونس.

### 2.1. مرحلة المغامرات السياسية

لم تكن مدينة فاس في عهد أبي عنان مدينة علم فقط، بل كانت كذلك عاصمة سياسية، تضم سياسيين محترفين وهواة، داخل حاشية السلطان وخارجها، كما كانوا من مختلف الجنسيات والخلفيات وكان من الطبيعي أن يتصل ابن خلدون، وهو الشاب المرموق، بهؤلاء السياسيين ويحتط بهم ويشاركهم أحاديثهم ومؤامراتهم على السواء.

كان أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء الحفصي على رأس من تعرف عليهم ابن خلدون من رجال السياسة، المنتظمين في سلك حاشية السلطان، والذي كان أمير بجاية، إحدى عواصم المغرب الأوسط الذي قامت فيه إمارات متنافسة متطاحنة (ولاسيما تلماسان، بجاية، قستنطينة) ولقد تنازل هذا الأخير مكرهاً عن ثغر بجاية السلطان أبي عنان الذي أنزل فيها عماله ونقل الأمير معه إلى المغرب وجعله من حاشيته.

إلا أن علاقة ابن خلدون بالأمير أثارت غيرة السلطان، واستغل بعض أفراد حاشيته هذه الغيرة ليملؤوا صدر السلطان تجاه كل من الأمير وابن خلدون، ومن ثمّ كان أن سقط السلطان مريضاً فرفع إليه بعض هؤلاء المنافسين أثناء مرضه خبراً عن أن الأمير يسعى للفرار إلى بجاية وأن ابن خلدون يساعده في ذلك بعد أن وعده الأمير بأن يوليه الحجابة ما إن يستعيد بجاية، وقد أثار هذا الخبر غضب السلطان فأمر باعتقال كل من الأمير وابن خلدون.

كانت هذه هي النكبة الأولى التي تعرض لها ابن خلدون وقد أطلق سراح الأمير محمد، أما هو فبقي في السجن مدة سنتين 758 – 759 هـ إلى أن رفع إلى السلطان خلال مرضه قصيدة يستعطفه فيها مما جعله يعد بالإفراج عنه غير أن المنية عاجلت السلطان آخر سنة 759 هـ واستبد بالدولة من بعده الوزير الحسن بن عمر الذي بادر إلى إطلاق سراح جماعة من المعتقلين كان ابن خلدون واحداً من بينهم وقد طلب ابن خلدون من الوزير المذكور السماح له بالعودة إلى بلاده تونس، فرفض وأعاده إلى ما كان عليه من قبل، مكرماً إياه محسناً له.

ولما ثار زعماء بني مرين على الحسن بن عمر وسلطانه السعيد بن أبي عنان وولوا عليهم منصور بن سليمان أحد حفدة يعقوب بن اسحق جد ملوك بني مرين، دخل ابن خلدون في خدمته إلى أن عاد أبو سالم، شقيق أبي عنان من الأندلس التي كان أخوه قد نفاه إليها يوم انتزع الملك من والده وقد قام أبو سالم هذا بالمطالبة بعرش أبيه مستعيناً بوزيره الخطيب بن مروق الذي استعان بدوره بابن خلدون في إقناع شيوخ بني مرين لما كان بينه وبينهم من محبة وائتلاف وعندما استقر أبو سالم على عرش أجداده لم ينس مساندة ابن خلدون فأسند إليه خطة المظالم وهو منصب قضائي رفيع لا يتولاه عادة إلا كبار الفقهاء.

غير أن عهد السلطان أبي سالم لم يدم طويلاً (760 – 762 هـ) إذ سرعان ما استبد عليه وزيره ابن مرزوق ليصبح الآمر المطلق، الأمر الذي دفع بشيوخ بني مرين بقيادة عمر بن عبد الله الفودودي من الثورة على أبي سالم وقتله، واستأثر عمر بن عبدالله بسدة الحكم وقد كان لابن خلدون صداقة قديمة مع من عهد أبي

عنان مع الوزير عمر بن عبدالله هذا، فأقره في وظائفه وزاد من إكرامه إلا أن صاحبنا لم يرض بهذا فقد كان يسمو إلى ما هو أرفع من هذا المنصب بكثير، فأعرض عن الوزير المذكور وطلب منه السماح إلى العودة إلى بلده تونس، إلا أن الوزير رفض طلبه مخافة أن يدخل صاحبنا في خدعة بني عبد الواد الذين استرجعوا ملكهم من بني مرين في تلمسان وبعد مساع ووساطات وافق الوزير على مغادرة ابن خلدون فاساً شريطة ألا يعرج على تلمسان، فاختار ابن خلدون الذهاب إلى الأندلس عند زميله سلطان غرناطة من بني الأحمر، ووزيرها الشهير لسان الدين بن الخطيب، وكان قد تعرف عليهما أثناء لجوءهما إلى فاس في عهد السلطان أبي سالم.

سافر ابن خلدون إلى الأندلس سنة 764 هـ فاستقبله سلطانها ووزيرها استقبالاً عظيماً وفي العام التالي قام ابن خلدون بمهمة للسلطان الأحمر لدى ملك قشتالة الإسباني لإتمام عقد الصلح بينهم فنجح في سفارته، مما زاد في حظوته لدى السلطان فاعتزم الاستقرار هناك إلا أن العلاقة بين ابن خلدون وزميله ابن الخطيب سرعان ما تعكرت، حيث لم يوفر السعاة جهداً في إثارت غيرة وزير غرناطة وأحس صاحبنا بذلك، فخشي من بطش الأمير وهو المستبد بأمر الدولة يومئذ. وفي هذا الوقت بالذات، أي حوالي عام 766 هـ، وصلت ابن خلدون رسالة من صديقه القديم أبي عبدالله صاحب بجاية يخبره فيها بنجاحه في استعادة إمارته ويطلب إليه القدوم إليه لتولي منصب الحجابة الذي وعده به وقد كانت تلك فرصة سانحة مكنت ابن خلدون من مغادرة الأندلس بسلام بل معززاً مكرماً مزوداً بمرسوم تشييع من إملاء ابن الخطيب نفسه.

وصل ابن خلدون بتوليه منصب الحجابة في إمارة بجاية إلى قمة مطامحه، فقد أصبح من جهة المستقل بأمر الدولة، كما أصبح من جهة أخرى المحدث بالمسجد غير أن ابن خلدون المتربع على قمة المجد كان في واد وما تخبئه له الأقدار في واد آخر، فما هي إلا سنة أو أقل حتى هوى من مرتبة المستبد بأمر الدولة إلى مرتبة اللاجئ المشرد وذلك بعد أن قامت حرب طاحنة بين أمير بجاية وأمر قستنطينة انتهت بانتصار هذا الأخير ومقتل أمير بجاية وقد كانت هذه الحادثة نقطة تحول خطيرة في تفكير ابن خلدون وسلوكه حيث نجده يرفض عرض صاحب تلمسان في القدوم إليه تولي منصب الحجابة، بعد أن قرر الانصراف عن المناصب السياسية ويكتفي بإرسال أخيه يحي للنيابة عنه ورغم أن الخروج من الميدان السياسي أصعب بكثير من الدخول إليه، إلا أن ابن خلدون استطاع كبح جماح طموحه السياسي إلى حد كبير، حيث نجده منصرفاً عن الوظائف انصرافاً كلياً لا يشارك في السياسة إلا من بعيد، وذلك في الفترة التي تمتد بين نكبته هذه وبين اعتزاله في قلعة بني سلامة وانصرافه إلى التأليف، وهي فترة عشر سنوات (767 – 776 هـ).

### 3.1. مرحلة العزلة والتأليف

تبدأ مرحلة العزلة والتأليف في حياة ابن خلدون بوصوله إلى قلعة بني سلامة عام 776 هـ حيث أقام ابن خلدون في هذه القلعة أربعة سنوات (776 – 780 هـ) وقد انكب خلال هذه السنوات على تأليف كتابه الشهير تاريخ ابن خلدون ولعل أبرز ما في هذا الكتاب هو مقدمته الشهيرة التي أصبحت ملازمة لاسم ابن خلدون حتى يومنا هذا. تكشف لنا الدراسة النقدية العميقة لمقدمة ابن خلدون أمراً هاماً وهو أن ابن خلدون كان قد بدأ في عملية كتابة التاريخ – عقب وصوله إلى القلعة مباشرة أي قبل الشروع بالمقدمة، إلا أنه وخلال تنظيمه للمعلومات التي استقاها من هنا وهناك، ومراجعته لأمهات الكتب المتوافرة لديه آنذاك راعه ما اشتملت عليه تلك الكتب من أخبار خرافية ومبالغات وأخطاء، فقفز إلى ذهنه ما ترسب فيه من ملاحظات واستنتاجات في شؤون السياسة والاجتماع مما دفعه إلى التفكير في وضع أصول وقواعد للكتابة التاريخية فكانت النتيجة هذا العمل المبدع الذي كتب له الخلود مقدمة ابن خلدون.

### 4.1. مرحلة التدريس والقضاء

رجع ابن خلدون سنة 780 هـ إلى مدينة تونس عاصمة الحفصيين ولما استقر بالحاضرة انهال عليه طلبة العلم، فأثار ذلك حفيظة بعض شيوخ جامع الزيتونة، على رأسهم ابن عرفة.

قرر ابن خلدون الذي كان قد ضاق ذرعاً بأجواء السعاية التي كانت تلاحقه منذ شبابه في منطقة المغرب العربي، الهجرة إلى مصر سنة 784 هـ أيام حكم الملك الظاهر برقوق، و بالقاهرة باشر التدريس بالأزهر حيث ذاع صيته كفقيه مالكي متبحر في علوم الدين، فعين سنة 786 هـ في منصب قاضي القضاة المالكيين. وفي تلك السنة نفسها غرق المركب البحري الذي كان يقل زوجته و أبناءه القادمين من تونس، فكان ذلك المصاب أخطر حدث أثر فيه، رغم كثرة المصائب التي ألمت به سابقاً.

أقام ابن خلدون في مصر قرابة أربعة وعشرين عاماً لم يغادرها إلا سنة 789 هـ للحج، و سنة 801 هـ لزيارة القدس، و سنة 802 هـ للشام برفقة السلطان الناصر فرج الذي خرج للدفاع عنها ضد زحف المغول بقيادة تيمورلنك بعد هزيمة الناصر فرج وعودته إلى مصر أجبر ابن خلدون على البقاء في الشام جليساً لتيمورلنك، الذي قدر، رغم وحشيته، ذكاء ابن خلدون وسعة علمه ولما ضجر ابن خلدون من جو المعارك وعن غربته داخل بلاط مغولي، استأذن تيمورلنك للعودة إلى مصر بحجة أنه ذاهب لجلب كتبه التي لا يستغني عنها، لكنه في قرارة نفسه كان قد عزم على عدم الرجوع، فأذن له وبعد عودته إلى مصر نقح كتبه وأتمها، ثم وافته المنية في رمضان عام 808 هـ، وكان حينئذ قاضي قضاة المالكية فيها، ودفن في القاهرة بمقابر الصوفية خارج باب النصر.

## 2. التاريخ من وجهة نظر ابن خلدون

لم يكن الاهتمام بالتاريخ، سواء في عصر ابن خلدون أو في العصور التي سبقته، حكراً على هذه الفئة أو تلك، فلقد رافق نشوء ونمو الحضارة الإسلامية في مختلف عصورها، بل يمكن القول بصورة عامة إن الحضارة الإسلامية هي بمعنى من المعاني حضارة التاريخ، ذلك لأن مختلف الفنون والعلوم التي عرفتها هذه الحضارة قد نشأت وتطورت من خلال الاهتمام بالماضي بشكل من الأشكال نعم لقد كان الحاضر ومشكلاته هو دوماً الباعث على التساؤل والبحث، إلا أن عملية البحث عن الجواب كانت تتم دوماً في وقائع الماضي.

ورغم أن الاهتمام بالتاريخ لم يكن يوماً بدعة جديدة في المجتمع الإسلامي، إلا أن الجديد الذي جاء به ابن خلدون والذي يتطلب عناية خاصة هو تصوره لما عبر عنه بباطن التاريخ والذي يعرفه ابن خلدون بأنه: نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق.

كانت المشكلة الأساسية في وعي ابن خلدون هي مشكلة الصراع المرير من أجل الحكم، أي هذه الإمارات والممالك التي لا تقوم إلا لتسقط وتنهار وعندما تتعدى المشكلة نطاق الفرد وحدود تجربته الشخصية، أي عندما يطرح الحاضر نفسه كمشكلة، تأخذ بجماع وعي الإنسان. وتستفز تفكيره، يكون الاتجاه إلى الماضي واللجوء إلى التاريخ، أمراً طبيعياً.

ومن هنا فقد اتجه ابن خلدون إلى التاريخ يطلب منه الدروس والعبر التي من شأنها أن تساعده على فهم الحاضر ومشاكله، إلا أن ابن خلدون صاحب الفكر الانتقادي والتجربة السياسية والاجتماعية الغنية، سرعان ما اكتشف أن كتب المؤرخين لا يمكن أن تُقبل على علاتها، فعلاوة على ما تضمنته هذه الكتب من أوهام ومغالط، فهناك عنصر آخر يطعن فيها، ذلك أن المؤرخين القدامى قد كتبوا ما كتبوه تحت ضغط الظروف التي عاشوا في كنفها، حيث تأثروا بما يجري حولهم ودونوه ليجاري اهتمامات معاصريهم، ولاسيما الملوك والحكام منهم.

وهكذا فإن إعادة كتابة التاريخ، أصبحت ضرورة تفرض نفسها في عصر ابن خلدون الذي كان واعياً للمنعطف التاريخي الخطير الذي شهده ذلك العصر، والذي يتمثل خاصة في التراجع الخطير الذي كانت الحضارة الإسلامية تشهده في ذلك الوقت، ولقد شعر ابن خلدون بحقيقة هذا التراجع كمطلع لتحول جذري ستكون نتيجته خلق جديد، ونشأة مستأنفة، وعالم محدث على حد قوله.

اكتشف ابن خلدون إذاً الحوار الجدلي القائم أبداً بين الماضي والحاضر ففي حين تدفعنا مشاكل الحاضر إلى الرجوع إلى الماضي، نجد أن هذا الأخير يردنا بدوره إلى الحاضر، فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء، وكما يتوقف فهم الحاضر على الرجوع إلى الماضي، يتوقف فهم الماضى على فهم الحاضر.

تمكن ابن خلدون من اكتشاف الخيط الذي يربط الماضي بالحاضر وهذا ما دفعه إلى التفكير بوضع قانون لتمييز الحقيقي عن المختلق من الوقائع التاريخية، قانون يكون بمثابة معيار يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه. وفيما يلي شرح للمعيار الذي عرف بمعيار تصحيح الأخبار.

وجد ابن خلدون أن نقد الرواة لا يكفي وحده في التاريخ، لأن فائدته تقتصر على كشف عدم التزام الراوي بالموضوعية في تدوينه التاريخ، ولذا يرى ابن خلدون أنه لا بد من نقد الرواية نفسها أي التأكد من معقولية مضمون الخبر، ومطابقته لما يقره العقل، والمقصود هنا الإمكان الواقعي أي أن الحكم على التاريخ ينبغي أن يجري بوساطة العقل التجريبي الذي يستمد مفاهيمه وقوانينه من الواقع مباشرة، ولاسيما الواقع الاجتماعي، ذلك لأنه لما كانت الحوادث التاريخية، حوادث اجتماعية بالدرجة الأولى فلا بد للمؤرخ من الإطلاع على كيفية وقوعها ومن ثم لا بد له من إدراك خصوصية كل أمة وكل بلد يدرس تاريخه وذلك حتى يستطيع استيعاب أسباب الأحداث التاريخية. كان ابن خلدون يسعى إذاً إلى جعل التاريخ شاهداً على نفسه فليس التاريخ من وجهة نظره مجرد أحداث تتعاقب في الزمان دون أن تخضع لأية عوامل خارجية، بل على العكس هناك خيوط تربط بين مختلف الأحداث، وتنظم تعاقبها الزمني فكما أن الحوادث الطبيعية تجري وفق قوانين معينة، كذلك الوقائع الاجتماعية والتاريخية لها طبائع خاصة بها ولذلك يقول ابن خلدون إن "القانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة، أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضاً لا يعتمد به.

## 3. مقدمة إلى علم العمران

كان المناطقة القدماء يرون أنه لا بد أن تتوافر في كل علم برهاني الأركان الأربعة التالية:

1. الموضوع: هو الموضوع الذي يتمحور حوله العلم، مثل جسم الإنسان في العلوم الطبية.
2. الأعراض الذاتية: الخصائص التي تقع في موضوع العلم ولا تقع خارجة عنه، مثل الزوجية والفردية بالنسبة للأعداد والاتفاق والاختلاف بالنسبة للنغمات.
3. المسائل: هي اجتماع الأعراض الذاتية مع المواضيع، أي أن البحث والبرهان في كل علم إنما يدوران حول بيان الأعراض الذاتية الخاصة بموضوع هذا العلم وشرحها وإثبات نسبتها إليه، ثم دراسة هذه الأعراض الذاتية نفسها وبيان خواصها وأحوالها.
4. المبادئ أو المقدمات: وهي المسلمات التي ينطلق منها كل علم من العلوم، وهي إما أن تكون أوليات عقلية محضة، أو قضايا تجريبية ضرورية، أو من قبيل الحدسيات، وهي تختلف من علم لآخر حسب طبيعة موضوع العلم.

### 1.3. تعريف علم العمران كعلم برهاني

بنى ابن خلدون علمه الجديد، علم العمران، بحيث يوافق شروط العلم الأربعة وذلك كما يلي:

1. الموضوع: إن وضوع علم العمران هو الاجتماع البشري.
2. الأعراض الذاتية: هي الأعراض الذاتية التي ترافق الاجتماع البشري أي الظواهر الاجتماعية المختلفة.
3. المسائل: لا تهدف أبحاث علم العمران إلى دراسة القوانين التي تسير وفقها الظواهر الاجتماعية إنما إلى بيان أن الظواهر الاجتماعية تحدث في العمران البشري بفعل الطبع.
4. المبادئ أو المقدمات: لا يشير ابن خلدون مباشرة إلى المقدمات التي يقوم عليها علم العمران، لكنه يؤكد مراراً على أن براهينه في هذا العلم، إنما هي براهين وجودية طبيعية، بمعنى أنها تستند على ما يحدث في الواقع الاجتماعي. ومن ثمة فإن المبادئ التي يقوم عليها البرهان في علم العمران هي عبارة عن قضايا تجريبية اكتسبت يقينها من الحس والعقل معاً، أي بالمشاهدة والتكرار.

### 2.3. منهج علم العمران

يمكن وصف المنهج الذي اتبعه ابن خلدون في أبحاثه بأنه مزيج بين المنهجين التاليين:

1. المنهج الاستقرائي التاريخي: يمكن اعتبار منهج ابن خلدون منهجاً استقرائياً إلى حد ما وذلك لأنه يعتمد في البرهان على استقراء جملة من الحوادث التاريخية في تسلسلها الزمني، حيث يتتبع ظواهر العمران واحدة تلو الأخرى حسب أسبقيتها الزمنية. بدءاً من العمران البدوي وعوارضه الذاتية كالنسب والحسب، فالغلبة والملك والدولة، وصولاً إلى العمران الحضري وما يختص به من بناء المدن والأمصار، وما ينشأ فيه من احتكاك ومن تبادل للخبرات، الأمر الذي نشأ عنه عوارض خاصة بهذا النوع من العمران مثل الصناعات والمهن، والعلم والتعليم، والنشاط الفكري على وجه العموم ويبدو ابن خلدون عند النظر إليه من هذه الزاوية أشبه بمن يحاول تأريخ ظواهر العمران، مما جعل بعض الباحثين يرون في مقدمته نوعاً من تاريخ الحضارة.
2. المنهج الاستنباطي: لم يعتمد ابن خلدون على المنهج الاستقرائي وحده، بل اعتمد كذلك، وإلى حد كبير، على الاستنباط حيث لا يقتصر على ذكر ما حدث، بل يحرص أشد الحرص على وضع كافة الحوادث في إطار نظرية عامة يقررها أولاً حيث يبدأ بتقرير نظرية ما يجعلها عنواناً لفصل من فصوله، ثم يعمد بعد ذلك إلى برهنة تلك النظرية استناداً إلى ما قرره من قبل مسلمات، أو نتائج سبق له أن برهن عليها، معززاً رأيه بأمثلة تاريخية واجتماعية.

### 3.3. المقدمات

استهل ابن خلدون أبحاثه في العمران البشري بست مقدمات هي:

1. المقدمة الأولى: تحدث فيها ابن خلدون عن ضرورة الاجتماع وقيام السلطة تبحث هذه المقدمة في العوامل التي جعلت من الاجتماع ضرورة تفرض نفسها على بني البشر، وقسم ابن خلدون هذه العوامل إلى قسمين هما:
   - التعاون من أجل تحصيل الغذاء حيث أن قدرة الفرد الواحد لا تكفيه في تحصيل حاجاته الأساسية من المأكل والملبس وغيرهما من الضروريات، فلا بد من اجتماع عدد كبير من الأفراد يتوزعون العمل فيما بينهم.
   - التعاون من أجل حفظ البقاء وذلك بدفع عدوان الحيوانات وعدوان الناس بعضهم على بعض مما يستلزم قيام وازع بينهم هو الدولة أو الملك.

   ونجد في هذه المقدمة أفكار ابن خلدون وآراءه في الحكم وأنواعه ومتطلباته ونتائجه.

2. المقدمة الثانية: تحدث فيها ابن خلدون عن قسط العمران من الأرض.
3. المقدمة الثالثة: تحدث فيها ابن خلدون عن تأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم.
4. المقدمة الرابعة: تحدث فيها ابن خلدون عن أثر الهواء في أخلاق البشر.
5. المقدمة الخامسة: شرح فيها ابن خلدون اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم.

تبحث المقدمات (2–5) في طبيعة العوامل المادية التي تؤثر في حياة الناس، أفراداً وجماعات، فهي تفسر اختلاف درجات العمران بين أقاليم المعمورة، ثم اختلاف الأحوال النفسية والجسدية والعقلية للأفراد والجماعات في هذه الأقاليم ويمكن اعتبار الحقائق التي يقررها ابن خلدون في هذه المقدمات أساساً لنظريته في انقسام العمران إلى بدوي وحضري واختلاف نمط المعيشة والظواهر الفكرية والاجتماعية في كل منهما.

6. المقدمة السادسة: خصصها ابن خلدون للحديث عن أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو الرياضة. تبحث هذه المقدمة في إمكانية تأثير العوامل الروحية على الأفراد والجماعات، وبيان كيفية هذا التأثير ومداه.

## 4. محور النظرية – الدولة

إن النظرة الكلية إلى العمران البشري التي اتبعها ابن خلدون مكنته من أن يلم في دراساته العمرانية بالكثير من الظواهر الاجتماعية، حيث حاول استقصاءها بدءاً من خشونة البداوة إلى رقة الحضارة ساعياً في كل ذلك إلى إيجاد الطبيعة المميزة لكل ظاهرة من هذه الظواهر، في الوقت نفسه الذي يجتهد فيه في ربط الأجزاء بالكل.

تصور ابن خلدون العمران البشري بحيث تكون الدولة هي المحور الذي تدور حوله شؤون الاجتماع والهيكل الذي تتراكب عليه نسج الحياة الاجتماعية، ولذلك فقد صب ابن خلدون جل اهتمامه على مسألة نشوء الدول وعوامل تطورها وازدهارها.

يعتبر ابن خلدون الاجتماع ضرورياً لحياة الإنسان، لكن هذا الاجتماع لا يتم وجوده إلا بوجود وازع، وهذا الوازع لا بد أن يكون أحد بني البشر، "تكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتى لا يصل إلى أحد غيره بعدوان، وهذا هو معنى الملك" على حد قول ابن خلدون.

هي المحور الأساسي الذي تقوم عليه أبحاث ابن خلدون ونظرياته، وليس العصبية، أو الصراع بين البدو والحضر، كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين فرغم أن العصبية تشغل حيزاً كبيراً من دراسات ابن خلدون إلا أنها ليست غاية بذاتها، إنما هي أداة لتفسير الواقع، وكذلك الأمر بالنسبة للصراع بين البدو والحضر، حيث نجد أن ابن خلدون يتحدث عن انتقال من البداوة إلى الحضارة إلا أنه لا يرى أن هذا الانتقال ناجم عن صراع اجتماعي، بل يميل إلى اعتباره أمراً يحدث بالطبع.

## 5. مقارنة علم العمران وعلم الاجتماع

يرى الكثير من الباحثين أن علم العمران الخلدوني ينطبق تماماً على الدراسات الاجتماعية الحديثة المعروفة باسم علم الاجتماع أو السوسيولوجي، وهم بذلك يعتبرون ابن خلدون أحق من غيره بلقب مؤسس علم الاجتماع. فعلاوة على التوافق اللفظي بين العلمين، فإن هناك توافقاً تاماً في نظر هؤلاء الباحثين بين موضوع العلمين ومنهج وغاية كل منهما حيث أن موضوع علم العمران هو الاجتماع البشري وما يلحقه من الأحوال لذاته، أي الظواهر الاجتماعية والمنهج الذي سلكه ابن خلدون في البحث في الشؤون الاجتماعية كان، حسب هؤلاء، منهجاً وضعياً تجريبياً، كما يعتبرون أن ابن خلدون هدف من دراسة الظواهر الاجتماعية كما هي إلى التوصل إلى القوانين التي تسير بمقتضاها وقائع الحياة الاجتماعية وهذا كما نعرف هو موضوع ومنهج وغاية علم الاجتماع الحديث.

وفي الواقع إن تعريف ابن خلدون لعلمه الجديد والطريقة التي سلكها في معالجته للمسائل الاجتماعية التي تعرض لها، وكذلك التصميم الذي سار عليه في أبحاثه، كل ذلك يغري بالقول بأن علم العمران الخلدوني هو مطابق تماماً لعلم الاجتماع الحديث ولكن إذا تجاوزنا هذه المظاهر، وهي في معظمها مظاهر شكلية، سنجد أن هناك فروقاً تميز كلاً من العلمين عن الآخر.

كان تعاقب الدور وتزاحمها وأسباب قيامها وسقوطها هو المشكلة الأساسية التي سيطرت على اهتمام ابن خلدون، لا الشؤون الاجتماعية حيث كانت الدولة المحور الأساسي الذي دارت حوله أبحاث ابن خلدون ودراساته، ورغم أن ابن خلدون لا يبحث الدولة بحثاً فقهياً حقوقياً بل يدرسها تاريخياً واجتماعياً، فإن الظواهر الاجتماعية التي عُني ابن خلدون بدراستها اقتصرت على تلك التي تؤدي بشكل أو بآخر، حسب رأيه، إلى قيام الدول وسقوطها، أو تلك التي تجري في إطار الحياة الحضارية، والتي تعتبر الدولة شرطاً لوجودها.

أما غير هذه وتلك من الظواهر الاجتماعية، فإن صاحب علم العمران لا يوليها أي اهتمام إنه لا يعنى لا بالفرد ولا بالأسرة ولا بالعلاقات الاجتماعية الدقيقة، حتى أنه ورغم أن معظم أبحاثة تتمحور حول المجتمع القبلي، لم يهتم بدراسة الحياة القبلية ولا بالعلاقات الداخلية فيها، ولا بنظمها وعاداتها وتقاليدها، إنما يهتم بالقبيلة في فترة معينة من تطور نشاطها وحسب، أي عندما تصبح قوة سياسية لها وزنها في سر الأحداث إنه يركز اهتمامه في العلاقات الخارجية للقبائل، سواء مع بعضها البعض أم مع الدولة. ولما كانت هذه العلاقات تتجسم في الصراع العصبي من أبل السلطة فإن أبحاث ابن خلدون تصب في نهاية الأمر في الدولة، الأمر الذي يجعلها ذات امتداد عمودي يفوق بكثير امتدادها الأفقي.

ومن هنا نجد أن علم العمران الخلدوني أضيق أفقياً من علم الاجتماع، إلا أنه أعمق عمودياً، أي من الناحية التاريخية ذلك أنه بمقدار ما تمتد الدراسات الاجتماعية الحديثة أفقياً لتشمل مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية دون تقيد كبير بالزمان أو المكان، بمقدار ما يغوص علم العمران الخلدوني في تتبع ظاهرة اجتماعية أساسية بعينها وهي ظاهرة الدولة ومن هذه الزاوية يبدو علم العمران أقرب إلى علم التاريخ منه إلى علم الاجتماع.

# الفصل السابع: العمران البشري وحركة التاريخ عند ابن خلدون

## الكلمات المفتاحية:

ابن خلدون، العمران، جغرافية العمران، البدو، الحضر، نظرية العصبية، الوازع، العصبة، التعصب، العصبية، الرئاسة، الملك، الدولة الخاصة، الدولة العامة، الدولة الشخصية، الدولة الكلية، الدورة العصبية، طور التأسيس والبناء، طور العظمة والمجد، طور الهرم والاضمحلال.

## ملخص:

يتعرف الطلاب في هذه الوحدة على علم العمران الخلدون بشكل مفصل ولاسيما نظريات ابن خلدون المتعلقة بالعصبية والدولة والملك.

## أهداف تعليمية:

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

1. جغرافية العمران.
2. البدو والحضر ونحل المعاش.
3. نظرية العصبية.
   - منطلق النظرية – فكرة الوازع
   - العصبة والعصبية
   - العصبية والملك
   - معنى الملك
4. الدولة وتطورها.
   - الدولة وأنواعها لدى ابن خلدون
   - تطور الدول
   - من خشونة البداوة إلى رقة الحضارة
5. طور التأسيس والبناء.
6. طور العظمة والمجد.
7. طور الهرم والاضمحلال.

## المخطط:

- جغرافية العمران
- البدو والحضر ونحل المعاش
- نظرية العصبية
- الدولة وتطورها

## 1. جغرافية العمران

العمران من العمارة والتعمير، يعرفه ابن خلدون بقوله هو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش، غير أن هذا العمران ليس على درجة واحدة، من حيث القلة والكثرة، أو من حيث التخلخل والكثافة في جميع مناطق الأرض .ترجع عوامل هذا الاختلاف إلى سببين أساسيين هما:

- الفروق الفردية بين الناس
- اختلاف أنماط الحياة بين مختلف الجماعات البشرية المنتشرة في أصقاع الأرض

كان الجغرافيون القدماء يقسمون الأرض إلى سبعة أقاليم تتدرج من خط الاستواء إلى القطب الشمالي، وقد اهتم ابن خلدون ببيان:

- أولاً – اختلاف العمران من إقليم إلى آخر
- ثانياً – العوامل التي أدت إلى هذا الاختلاف، وهي نفسها العوامل التي اعتمدها أساساً لتعليل اختلاف أحوال العمران في الإقليم الواحد، بل في المنطقة الواحدة

لاحظ ابن خلدون في دراساته أن الإقليمين الأول والثاني من أقاليم المعمورة (أي منطقة خط الاستواء) أقل عمراناً مما بعدها، كما أن تعداد سكان هذين الاقليمين ليس كبيراً. في حين أن إقليمي المنطقة المعتدلة (وهما الإقليمان الثالث والرابع) أكثر عمراناً وسكاناً.

يعلل ابن خلدون هذا الاختلاف بين الأقاليم على أساس معلومات عصره، حيث يستند إلى نظريات أرسطو القائلة بأن التكوين – أي نشوء الكائنات – لا يمكن إلا بالرطوبة. وهي تتوقف على نسبة الحرارة إلى البرودة في المناخ حيث ينقطع التكوين في الأقاليم الشمالية لشدة برودتها، كما ينقطع في الأقاليم الجنوبية لشدة حرارتها، وقد استنتج ابن خلدون أن أكمل الأقاليم عمراناً هو الإقليم الرابع، وذلك لتمتعه بالمناخ المعتدل.

كما اعتبر ابن خلدون أن اختلاف درجة الحرارة بين الأقاليم ينعكس على طباع سكانها مثلما ينعكس على حياتهم الاجتماعية. وقد قصر ابن خلدون كافة أبحاثه في علم العمران على عمران المناطق المعتدلة، الذي اعتبره أكمل العمران، وذلك انطلاقاً من المبدأ القائل بأن خير الأمور أوسطها.

## 2. البدو والحضر ونحل المعاش

لا يقتصر اختلاف العمران على التفاوت بين الأقاليم السبعة، بل يتعداه إلى الإقليم الواحد، حيث نجد أن العمران يختلف بدرجات كبيرة على امتداد الإقليم الواحد نفسه، متدرجاً بين البساطة والتعقيد، وذلك يرجع إلى اختلاف طبيعة الأرض من حيث الخصب والجدب، وهذا الأمر طبيعي وذلك لأن الضرورات التي دعت الإنسان أساساً إلى التواصل والاجتماع هي تحصيل الغذاء والتعاون على كسب العيش. وتختلف بالتالي طرائق الناس في كسب عيشهم، وفقاً لمكان سكناهم، الأمر الذي ينعكس على حياتهم الاجتماعية، وحتى على أحوالهم الشخصية.

قسم ابن خلدون الجماعات البشرية إلى أربعة أصناف أساسية وذلك وفقاً لمستوى عمران كل منها، وهذه الجماعات هي:

1. سكان البادية: الذين يعيشون من الإبل خاصة، ويضطرون إلى التنقل بها ومعها طلباً للعيش والكلأ. ويغلب اللااستقرار وقسوة العيش على حياة هذه الفئة.
2. سكان المناطق الخصبة: من السهول والتلال والجبال الذين يعيشون على نتاج الحيوانات خاصة منها الشاة والبقر، ومن نتاج الأرض كالحبوب والخضار والفاكهة. وهؤلاء لا يعدون أكثر من صنف آخر من البدو مكنته الظروف من الحصول على مستوى معيشة أفضل، كما أن قربهم من المدن يجعلهم في شوق دائم إلى التمدن، إلا أن هذا الأمر لا يتحقق لهم بسهولة، حيث أن التمدن بمعناه الفعلي يقتصر على العواصم والمدن الكبيرة، كما أن مستوى المعيشة في هذه المدن أعلى من مقدرات البدوي العادي المادية.
3. فاقدو الجاه عن سكان المدن: وهم أولئك الذين اتسعت أحوال معيشتهم بعض الشيء فاستقروا في الأمصار والمدن والقرى، يعيشون من الزراعة في بساتينهم وحقولهم، أو مما يشتغلون به من المدن والصناعات التي تقتضيه ضرورات الاجتماع والاستقرار. وقد أدرك ابن خلدون أن فائض إنتاج المدن لم يكن ينصرف إلى المنتجين بل إلى فئة معينة مستهلكة وغير منتجة، وهذه الجماعة هي صاحبة الحكم والسلطان. أما جماهير المدن من العامة فلم تكن حالهم أحسن بكثير من حال المشتغلين بالفلاحة من البدو ( أي الفئة الثانية). استنتج من طبيعة هذا التمايز الطبقي أن أساس التفاوت بين الناس إنما هو الجاه والسلطان، لا المال، لأن هذا الأخير مستمد منها. حيث لم تكن الوضعية الاجتماعية للفرد في عهد ابن خلدون تتحدد بما يملك لأنه قلما يملك، إنما كانت تتحدد بمقدار الجاه والنفوذ الذين يتمتع بهما. لهذا فإن التحضر، أي الانتقال من البداوة إلى الحضارة، لم يكن يجري بصفة تدريجية أو بشكل طبيعي، حيث لم يكن بمقدور الفرد لوحده، مهما بلغ سعيه، أن ينتقل إلى مرتبة أعلى في السلم الاجتماعي. إنما كان هذا الانتقال يتم بشكل فجائي وبنوع من الطفرة والقفز، وبصفة جماعية لا فردية.

4. الحضارة المفسدة للعمران: يأتي في القمة أولئك الذين ازدادت لديهم أحوال الرفه والدعة، المنغمسون في ترف العيش وعوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق. ينظر ابن خلدون إلى هذه الفئة على أنها الفئة المفسِدة للعمران، حيث تشكل أساس حضارة الاستهلاك بغير حساب، ودون إنتاج. ويعتبرها مجرد جماعة طفيلية، طافية على سطح المجتمع، تعيش وتستهلك على حساب الرعية كلها، وذلك بفضل الجاه الذي تتمتع به.

## 3. نظرية العصبية

### 1.3. منطلق النظرية – فكرة الوازع

ينطلق ابن خلدون في دراسته للعصبية وبيانه الأساس الذي تقوم عليه، والدور الذي تلعبه في الحياة الاجتماعية عموماً وحركة التاريخ خصوصاً، من فكرته عن الوازع الذي جعله ضرورة من ضرورات الاجتماع والتعاون. ويمكن اعتبار فكرة الوازع عند ابن خلدون بمثابة حل للتناقض التالي:

1. اجتماعية الإنسان: هناك من جهة ما يمكن التعبير عنه باجتماعية الإنسان، فالإنسان مدني بالطبع، ولا يستقيم وجوده إلا بالعيش مع غيره من بني جنسه. حيث تفرض ضرورة التعاون من أجل تحصيل الغذاء على الإنسان مُثُلاً اجتماعية.
2. الطبع العدواني لدى البشر: وهناك من جهة ثانية الطبع العدواني لدى البشر وهو من آثار القوى الحيوانية فيهم، حيث يقول ابن خلدون أن من أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعضهم على بعض، فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه، امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصده وازع.

إن طبيعة الإنسان نفسها هي التي تفرض الحاجة إلى الوازع، وذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الإنسان كائن مجبول على الخير والشر معاً، على التعاون والعدوان، وبالتالي فإن قيام الحياة الاجتماعية، وبقاء الإنسانية، يتطلب نوعاً من السلطة تحفظ للمجتمع تماسكه وتعمل على تقوية التعاون بين أفراده، وكبح عدوان بعضهم على بعض سواء كأفراد أو كجماعات.

تتدرج فكرة الوازع لدى ابن خلدون من مجرد السلطة المعنوية التي يتمتع بها شيوخ البدو وكبراؤهم، إلى السلطة المادية التي تقوم على "الغلبة والسلطان واليد القاهرة" أي بكلمة واحدة: الملك. ويمكن القول بصورة عامة إن الوازع الذي يتحدث عنه ابن خلدون هو وازع اجتماعي، بمعنى أنه سلطة اجتماعية تستمد خصائصها من الحياة الاجتماعية السائدة. حيث لا يهتم ابن خلدون بالوازع الذاتي النابع من ضمير الفرد كالوازع الديني أو الأخلاقي، إنما يقصر تركيزه على الوازع الخارجي الذي تجسه القوة وتؤكده، سواء أكانت قوة فرد أو قوة جماعة.

## 2.3. العصبة والعصبية

- تعرف العصبة بأنها الجماعة التي تتكون من أقارب الرجل الذين يلازمونه، وهذا يعني أولاً، أن العصبة تقوم أساساًعلى القرابة. وثانياً، أنه ليس بالضرورة أن يكون جميع أقارب الرجل عصبة له، حيث تقتصر العصبة على الأقارب الملازمين لذلك الرجل.
- شروط العصبة: إن القرابة والملازمة شرطان ضروريان لوجود العصبة، وهما أيضا العنصران اللذان يميزانها عن غيرها من الجماعات البشرية، لأنه يمكن اعتبار العصبة من هذا المنطلق جماعة دائمة، فهي ليست جماعة مؤقتة تتشكل تلقائياً بمناسبة طارئة، وليست جماعة تعاقدية تقوم باتفاق أفرادها على تحقيق هدف مشترك، كما أنها لا تملك لنفسها أن تنشأ أو تنحل، لأنها مستمرة أبداً باستمرار الأفراد الذين تتشكل منهم، واستمرار تناسلهم.
- التعصب: يعرف التعصب لغةً بأنه التجمع، ويستخدم للإشارة إلى التجمع المعنوي، أكثر من التجمع الحسي. أي أن التعصب هو بعبارة أخرى، شعور الفرد بأنه جزء لا يتجزأ من الجماعة التي ينتمي إليها، حيث يفقد الفرد في هذه الحالة شخصيته بل حتى فرديته، ويتقمص شخصية العصبة. ولكن هذا الشعور لا يصبح فاعلاً إلا عندما يتهدد خطر خارجي وجود العصبة، أما في الأحوال العادية فهو في الغالب شعور كامن يطغى عليه شعور الفرد بأناه وشخصيته واستقلاله.
- العصبية: تعرف العصبية بأنها الوعي العصبي الذي يشد أفراد العصبة كلهم بعضهم إلى بعض، ويجعل منهم كائناً واحداً تفنى فيه ذوات الأفراد، فهي إذا رابطة اجتماعية – سيكولوجية، شعورية ولاشعورية معاً، تربط أفراد جماعة ما، قائمة على القرابة، ربطاً مستمراً يبرز ويشتد عندما يتهدد خطر ما هؤلاء الأفراد، سواء كأفراد أو كجماعة.
- العصبية لدى ابن خلدون: إذا نظرنا إلى العصبة من الداخل نجد أنها قائمة على الأنانية فلكل فرد أناه المميزة المستقلة. أما إذا نظرنا إليها من الخارج فإنا نجد أنا واحدة فقط هي أنا العصبة، والأنا العصبي في كل هذه الحالة هو كل فرد من أفراد العصبة. ونشاط الأنا العصبي هذا سواء باعتباره يمثل شخصية العصبة ككل أو شخصية كل فرد من أفرادها، هو ما يطلق عليه اسم العصبية. ونظرية ابن خلدون في العصبية تدور بالكامل حول هذه الفاعلية، فاعلية الأنا العصبي هذا، حيث تعني العصبية لدى ابن خلدون القوة الجماعية التي تمنح القدرة على المواجهة بشكل أساسي.
- أساس الرابطة العصبية: إن الأساس الفعلي الذي تقوم عليه العصبية هو المصلحة المشتركة الدائمة للجماعة. وهذا يفسر ربط ابن خلدون المستمر بين العصبة ومواجهة العدوان، فالعصبية عند صاحب المقدمة إنما هي قوة للمواجهة، لا تبرز وتشتد إلا عندما يهدد خطر ما هذه العصبة في مصلحتها المشتركة، وهذه المصلحة ترتبط دوماً بأمور العيش.

### 3.3. العصبية والرئاسة والملك

1. العصبية والرئاسة: حسب ابن خلدون ثلاثة شروط ينبغي توافرها فيمن يتولى رئاسة المجتمع القبلي :

- النسب الصريح: يقول ابن خلدون إن الرئاسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم وذلك لأن العصبة قد تضم أفراداً آخرين لا تربطهم بها قرابة الدم، بل تشدهم إليها روابط أخرى كالحلف والولاء والجوار، وهؤلاء هم في الدرجة الثانية بالنسبة إلى صراحة النسب.
- الشرف والحسب: هو أن يكون الشخصى المؤهل للرئاسة على العصبة من قوم أهل بيت فيها. ويقول ابن خلدون مفسراً معنى البيت: معنى البيت أن يعد الرجل في آبائه أشرافاً مذكورين، تكون له بولادتهم إياه والانتساب إليهم تجلة في أهل جلدته، لما وقر في نفوسهم من تجلة سلفة وشرف بخلالهم.
- الغلب: وهو شرط يتعلق بالرئاسة العامة، أي الرئاسة بين العصبات المترابطة بالنسب العام فبما أن المجتمع القبلي يتكون أساساً من وحدات أو جماعات يفرق بينها النسب القريب أو البعيد، فهي بمثابة أخلاط. ولكي تتحقق وحدة هذه الجماعات المتغايرة، يل والمتنافرة أحياناً، لا بد من غلبة أحدها على الباقي، وهذا هو معنى الغلب.

2. من الرئاسة إلى الملك: يشرح ابن خلدون طريق الانتقال من الرئاسة إلى الملك فيقول: "ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبة على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإن كافأتها أو مانعتها كانوا أقتالاً وأنظاراً، ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها، شأن القبائل والأمم المتفرقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضاً، وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها، طلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد. وهكذا دائماً حتى تكافىء بقوتها قوة الدولة. فإن أدركت الدولة في هرمها ولم يكن لها من ممانع من أولياء الدولة وأهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجمع لها، وإن انتهت إلى قوتها ولم يقارن ذلك هرع الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها. وذلك ملك آخر دون الملك المستبد. فقد ظهر أن الملك هو غاية العصبية وأنها إذا بلغت إلى غايتها حصل للقبيلة الملك، إما بالاستبداد أو بالمظاهرة حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك. وإن عاقتها عن بلوغ الغاية عوائق كما نبينه، وقفت في مقامها إلى أن يقضي الله بأمره.

يتبنى ابن خلدون نظرية التوسع الآلي للعصبية الغالبة، حيث يتم هذا التوسع بامتصاصها العصبيات الأخرى القريبة أولاً ثم الأبعد. ولا يرى ابن خلدون أن هناك أي دافع لهذا التوسع خارج العصبية نفسها. فالعصبية بطبعها تسعى إلى التغلب على العصبيات الأخرى واستتباعها، وإدراجها تحت لوائها.

الشروط الموضوعية لفاعلية العصبية: لا يمكن أن تلعب العصبية دورها التاريخي الذي يعزوه لها ابن خلدون، إلا إذا توافر الشرطان الضروريان التاليان:

- وجود عصبة عامة جامعة لعصبيات متفرقة
- وقوع الدولة في طور الهرم

### 4.3. معنى الملك

ينطبق معنى الملك بالنسبة إلى ابن خلدون على ما نفهمه نحن اليوم من "الحكم و"السلطة.وله نوعان:

1. الملك التام: فإن كان الحاكم مستقلاً بنفسه لا يدين بالطاعة لأحد فوقه، سواءً أكانت هذه الطاعة فعلية أم شكلية، كان ملكه تاماً
2. الملك الناقص: أما إذا كان خاضعاً بشكل من الأشكال لحاكم فوقه، فملكه حينئذ ناقص
3. الدولة: يعرف ابن خلدون الدولة بأنها مدة حكم أسرة مالكة معينة، أي تلك الفترة التي يكون الحكم فيها منتقلاً بين أفراد عصبية واحدة.

## 4. الدولة وتطورها

### 1.4. الدولة وأنواعها لدى ابن خلدون

تعرف الدولة عند ابن خلدون بأنها الامتداد الزماني والمكاني لحكم عصبية ما. ومن هنا يمكن تصنيف آرائه فيها إلى قسمين ما يتناول امتداد الدولة في المكان، أي مدى نفوذها واتساع رقعتها. وما يتناول امتدادها في الزمان، أي مختلف المراحل التي يجتازها حكم العصبية الحاكمة من يوم استلامها للسلطة إلى يوم خروجها من يدها.

أنواع الدولة عند ابن خلدون:

1. من الناحية الأفقية (الامتداد المكاني): إذا نظرنا إلى الدولة من حيث هي امتداد حكم العصبية الغالبة في المكان وجدناها نوعين:

- دولة خاصة: ويقصد بها حكم عصبية خاصة في إقليم معين، تابع ولو نظرياً لحكم عصبية عامة تمتد سلطتها إلى أقاليم عديدة، فتشكل هكذا الدولة العامة.
- الدولة العامة: هي الدولة التي لا تخضع لغيرها بشكل من أشكال الخضوع، والتي قد تمتد سلطتها فعلياً إلى جميع المناطق الداخلية الواقعة تحت نفوذها، كما قد تكون سلطتها على بعض الأقاليم التي قامت فيها دول خاصة، أو إمارات، سلطة اسمية فقط. وبهذا الاعتبار فإن سلطة الدولة الخاصة ملك ناقص، في حين أن سلطة الدولة العامة هي ملك تام.

2. من الناحية العمودية (الامتداد الزماني): إذا نظرنا إلى الدولة من حيث هي استمرارية حكم العصبية الغالبة في الزمان وجدناها نوعين:

- الدولة الشخصية، وهي حكم شخص واحد من أهل العصبية صاحبة الرئاسة والملك، مثل دولة معاوية، أو دولة المأمون. وهي بطبيعة الأحوال محدودة زمنياً بمدة حكم هذا الشخص.
- الدولة الكلية، وهي مجموع الدول الشخصية التي ينتمي أصحابها إلى عصبية واحدة، خاصة كانت أو عامة. وبعبارة أخرى إنها مدة حكم عصبية ما. فالدولة الأموية مثلاً هي دولة كلية باعتبارها دولة عصبية خاصة من العصبيات العربية، وهي عصبية بني أمية. والدولة العربية سواءً أكانت أموية أم عباسية هي دولة كلية باعتبارها دولة عصبية عامة واحدة، هي عصبية جميع العرب، وذلك في مقابل دولة الفرس أو الروم.

## 2.4. تطور الدول

تركز أبحاث ابن خلدون حول دراسة تطور الدولة العامة مكانياً، وتطور الدولة الكلية زمانياً.

- التطور في المكان (العصبية ورقعة الدولة): يتوقف نفوذ الدولة واتساعها من حيث الامتداد في المكان، على حالتها العصبية من جهة، وحال العصبية في المناطق التي تحكمها، أو التي تريد بسط نفوذها عليها من جهة ثانية. فإذا كانت عصبية الدولة شديدة والقائمون عليها كثيرو العدد، وكانت العصبيات التي يريدون استتباعها أو إخضاعها ضعيفة، إما لقلة عددهم أو عدم التحام العصبية، فإن ملكهم سيكون أكثر اتساعاً، وسلطتهم أقوى نفوذاً. أما إذا حصل العكس بأن كانت عصبية الدولة ضعيفة، والعصبيات الأخرى المناوئة لها قوية فإن رقعة الدولة حينئذ ستبقى ضيقة، وغالباً ما سينحصر نفوذ مثل هذه الدول في مركزها، أي في المدينة التي اتخذت منها عاصمة لها. وفي كلتا الحالتين لابد أن تقف رقعة الدولة عند حد تنتهي إليه، لأن الدولة بالعصبية، وأهل العصبية مهما كثروا محدودو العدد.
- التطور في الزمان (الدورة العصبية): لا تتعلق استمرارية الدولة الزمنية بدورة اجتماعية تاريخية، إنما بدورة عصبية، أي بانتقال حكم والسلطة من عصبية خاصة إلى أخرى مماثلة داخل عصبية عامة واحدة. هناك إذا استمرار بالدولة (بمفهومها الحديث) وبالتالي هناك استمرار في الحضارة والعمران داخل حكم العصبية العامة. إن انتقال الحكم من عصبية خاصة إلى أخرى مماثلة لا يؤثر في الحضارة ولا في العمران بالجملة. أما إذا انتقل الحكم من عصبية عامة كبرى إلى عصبية مماثلة، لا تربطها بها أي عصبية، فحينئذ يكون الخلل الذي يصيب العمران خطيراً، وفي هذه الحالة فقط يمكن الحديث عن الدورة الاجتماعية، بمعنى انتقال الحضارة من أمة إلى أخرى.

## 3.4. من خشونة البداوة إلى رقة الحضارة

يقسم ابن خلدون مراحل حياة الدولة ككل إلى ثلاثة أطوار أساسية هي:

- طور التأسيس والبناء
- طور العظمة والمجد
- طور الهرم والاضمحلال

### 1.3.4. طور التأسيس والبناء

يتميز هذا الطور بخصائص وميزات معينة، أهمها ما يلي:

- الخاصية الأولى – استمرار العصبية، أي سيطرة الأنا العصبي على الأنا الفردي داخل العصبة التي استلمت الحكم. تعتبر العصبة الغالبة الحكم، في هذا الطور، مغنماً لها ككل، ويعتبر رئيسها بدوره نفسه واحداً منها، بل خادماً لها وفق التقاليد البدوية القبلية. حيث تسود علاقات الديمقراطية القبلية داخل العصبية الحاكمة في هذا الطور أو ما يسميه ابن خلدون "المساهمة والمشاركة.
- الخاصية الثانية – علاقات الدولة برعيتها من جنس علاقات أفرادها بعضهم مع بعض. فإذا كانت العلاقات القائمة بين أهل الدولة، أي أفراد العصبية الحاكمة، هي علاقات مساهمة ومشاركة، فإن علاقاتها مع أهل العصبيات الذين أصبحوا تحت نفوذها، تتسم أيضاً بكثير من الرفق والتسامح لأنها صادرة عن الخلال الحميدة التي جعلت العصبية الحاكمة تتبوأ منصب الرئاسة ثم الملك.
- الخاصية الثالثة – تتعلق هذه الخاصية بالسياسة المالية للدولة، حيث تتبع هذه السياسة الأساس الذي قامت عليه الدولة هذه سلطته. حيث تقوم سياسة الدولة في هذا الطور على ثلاثة أسس سليمة هي:
  - نظام المساهمة والمشاركة والتسيير الجماعي في إطار العصبية الحاكمة
  - سلوك سياسة كسب القلوب وإنزال الناس منازلهم، وهذا يضمن للدولة ولاء مختلف الفئات التي يسري عليها حكمها
  - الاقتصاد في النفقات وعدم الغلو في فرض الجبايات والضرائب، وهذا يؤدي إلى خنق جو من الاطمئنان والازدهار، فيزداد ولاء الرعية للدولة وتمسكهم بعصابتها

إن النتيجة المحتومة لمثل هذه السياسة هي ظهور بوادر الرخاء والرفاهية في صفوف مختلف الفئات، وبذلك تدخل الدولة طورها الثاني أي طور العظمة والمجد.

### 2.3.4. طور العظمة والمجد

يتميز هذا الطور بثلاث خصائص مميزة تكاد تناقض خصائص الطور الأول، وهي نتيجة الرخاء الذي ساد الدولة في أواخر الطور الأول، وهذه الخصائص هي:

- الخاصية الأولى – بدء الانتقال من البداوة إلى الحضارة، أي من حياة البساطة والاقتصار على الضروري من العيش في الغالب، إلى حياة الرفاهية والتفنن في الترف، ويرجع هذا التحول إلى تزايد دخل الدولة بفضل تزايد عائدات مختلف الوظائف، في مقابل تناقس النفقات. لكن المال إذا تراكم يغري بالإنفاق والاستمتاع، وهكذا تنقلب أحوال العصبة الحاكمة رأساً على عقب، فمن الاقتصار على الضروري من العيش إلى الترف والتفنن فيه.
- الخاصية الثانية – ظهور المصالح الخاصة نتيجة لهذا الرخاء والتسابق في التفنن في الترف. حيث تنقلب العصبية الحاكمة التي كانت حتى الأمس القريب تقوم على أساس المشاركة والعمل للصالح العام، إلى أرستقراطية حاكمة متنافسة ويحدث التفرد بالحكم، وتقف نتيجة لذلك حركة الغزو وتوسيع نطاق الدولة، وينصرف اهتمام أهل العصبية الحاكمة بعد الكفاح من أجل توطيد أركان الدولة إلى التنافس والصراع من أجل استغلال ثمرات الملك. ويحاول السلطان قمع هذه الصراعات، إلا أنه يفعل ذلك بغية تحقيق مصلحته الخاصة، وصبح بالتالي طرفاً من أطراف هذا الصراع على السلطة.
- الخاصية الثالثة – هي نتيجة حتمية للخاصية السابقة، ذلك أن رئيس الأسرة المالكة، عندما يدخل في صراع مع عشيرته وأهل عصبيته، وعندما ينفرد بالأمر دونهم، يستغني عن عصبته الأصلية ويعتمد على عصبة الموالين والمصطنعين له. وبالتالي تزداد حاجته إلى المال لسد نفقات هؤلاء المرتزقة المدافعين عنه، ولمالأة بعض أفراد عصبيته، مما يدفعه إلى زيادة الجبايات والضرائب، وهكذا تنقلب العلاقة بين الحاكم ورعيته رأساً على عقب عما كانت عليه في الطور الأول.

إن النتيجة الحتمية لكل ما سبق هي دخول الدولة في الطور الثالث، طور الهرم والا ضمحلال.

### 3.3.4. طور الهرم والاضمحلال

إن هرم الدولة لا يعني دوماً اضمحلالها في الحين، بل إن نهايتها تتوثق على نوعية الظروف والأحوال القائمة. وهذا ما يشرحه ابن خلدون في أماكن مختلفة من المقدمة، وعلى العموم يمكن تلخيص رأيه في هذا الصدد كما يلي:

أولاً – إن تفكك عصبية الأسرة الحاكمة لا يستلزم حتماً انهيار الدولة. ذلك أنه قد يحدث في بعض الحالات أن يكون صاحب الدولة في وضع يستغني فيه عن العصبية جملة.

ثانياً – عندما تصادف مرحلة هرم الدولة وجود عصبيات قوية تروم الاستيلاء على السلطة، تنشب حرب أهلية والنتيجة تفضي إليه هذه الحرب تتوقف على مدى اتساع نطاق الدولة الهرمة. فإذا كانت عظيمة الاتساع استقل الثوار بالمناطق البعيدة عن مركزها، وتنقسم الدولة بذلك إلى عدة دويلات، ويأخذ ملك صاحبها بالتقلص حتى ينتهي إلى المركز، وحينئذ يتمكن المطالبون بالسلطة من الإجهاز على الدولة بالضربة القاضية. أما إذا كانت الدولة ضيقة النطاق في أصله فإن أمرها يسهل على المطالبين بها، حتى أنهم قد يتمكنون من القضاء عليها مباشرة إذا كانت قوتهم تفوق قوتهما، أما إذا كانت قوتهما تكافىء قوة الدولة أو أضعف منها، يكتفون بالملك الناقص، أي بالاستقلال بإحدى المناطق القريبة وانتظار الفرصة المواتية.

ثالثاً – هناك حالة أخرى تصير إليها الدولة في أواخر أيامها وهي انتقال السلطة الفعلية إلى بطانة صاحب الدولة من الموالي والمصطنعين، واحتفاظه بالسلطة الاسمية فقط.

# الفصل الثامن: الاقتصاد

## الكلمات المفتاحية

الاقتصاد العيشي، اللامساواة، الاستهلاك الرائع، المقايضة، وسائط المبادلة، النقود، العملة الورقية، التضخم، فائض القيمة، الرأسمالية، الإنتاج، الربح، رأس المال، القوى العاملة، الأجور، الاشتراكية، وسائل الإنتاج، الاشتراكية الديمقراطية، الاشتراكية المثالية، البيان الشيرعي، الأثمان، العمل، الشركة، رأسمالية الشركات، الحلقة الداخلية، الاحتكارية، احتكار القلة، التجارة العالمية.

## ملخص

يتعرف الطلاب في هذه الوحدة على علم الاقتصاد حيث تلقي الوحدة الضوء على تطور النظم الاقتصادية ووسائط التبادل كما تستعرض النظم الاقتصادية الأساسية، مع التركيز على التطورات التي شهدتها النظم الرأسمالية وانتقالها إلى العولمة.

## أهداف تعليمية

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

1. تطور النظم الاقتصادية
   - المجتمعات ما قبل الصناعية
   - المجتمعات الصناعية
2. وسائط المبادلة
   - تطور وسائط المبادلة
   - النقود
3. النظم الاقتصادية العلمية
   - النظام الرأسمالي
   - خصائص الاقتصاد الرأسمالي
   - سبر الاقتصاد الرأسمالي
   - الرأسمالية الجديدة
   - النظام الاشتراكي
   - خصائص النظام الاشتراكي
   - النظم الاشتراكية – لمحة تاريخية
   - مكانة النقود وأهميتها في النظم الاقتصادية المختلفة

4. عولمة الرأسمالية
   - النظرية الوظيفية
   - نظرية الصراع الطبقي
5. مضاعفات الرأسمالية العلمية

## المخطط

- تطور النظم الاقتصادية
- وسائط المبادلة
- النظم الاقتصادية العالمية
- عولمة الرأسمالية
- مضاعفات الرأسمالية العالمية

# 1. تطور النظم الاقتصادية

## 1.1. المجتمعات ما قبل الصناعية: نشأة اللامساواة

تدرجت المجتمعات ماقبل الصناعية وفق المراحل الآتية:

- مجتمعات الصيد والإلتقاط البدائية: كان الاقتصاد العيشي هو نمط الاقتصاد السائد بين الجماعات البشرية الأولى في مجتمعات الصيد والالتقاط البدائية. حيث اعتمدت هذه الجماعات البدائية، والمكونة من 25 إلى 40 شخصاً كحد أقصى، في معيشتها على ما يجمعه أفرادها من ثمار أو ما يصيدونه من حيوانات، وغالبا ما كانت تنتقل من مكان لآخر بحثاً عن لقمة العيش. ولم يكن هناك ما يمكن أن نسميه تبادلاً تجارياً حقيقياً بين مختلف هذه الجماعات البدائية، وذلك لأنه لم يكن هناك فعلياً أي فائض إنتاجي ضمن هذه المجتمعات. كما لم يكن هناك أي فروق طبقية بين أفراد هذه المجتمعات، وذلك لأنهم جميعاً كانوا لا يمتلكون شيئاً تقريباً.
- مجتمعات الرعي والبستنة: أدى تقسيم العمل هذا إلى توليد فائض في الإنتاج أمكن للجماعات البشرية تبادله فيما بينها، مما أدى إلى ظهور اللاعدالة الاجتماعية في بنية المجتمعات البشرية.
- المجتمعات الزراعية: أدى اختراع المحراث إلى تطور المجتمعات الزراعية. وإلى تقسيم العمل بشكل أكثر تخصصاً مما نجم عنه تزايد فائض الإنتاج، الأمر الذي أدى إلى تطور المراكز التجارية، وتحولها إلى مدن، وانتقلت السلطة من يد العائلات والقبائل إلى يد النخب الحاكمة، الأمر الذي أدى إلى مزيد من اللامساواة على مختلف الأصعدة.

إلا أن الإنسان سرعان ما اكتشف كيف يربي الحيوانات ويزرع الأراضي، مما أدى إلى زيادة إنتاجه عن حاجاته الأساسية، مما أفضى بدوره إلى تراكم فائض الإنتاج في المجتمعات، الأمر الذي نتج عنه ظهور مفهوم اللاعدالة الاجتماعية لأول مرة في التاريخ البشري.

كما أن طرق الإنتاج الجديدة هذه مكنت الإنسان من الاستقرار، وقد ساعد هذا الاستقرار بدوره على نمو المجتمعات وزيادة عدد أفرادها، كما بدأ بعض أفراد هذه المجتمعات يمتهنون أعمالاً أخرى غير إنتاج الطعام، وقد أدى تقسيم العمل الجديد هذا إلى توليد فائض في الإنتاج أمكن للجماعات البشرية تبادله فيما بينها. كانت أولى نتائج تبادل فائض الإنتاج هذا هي ظهور اللاعدالة الاجتماعية في بنية المجتمعات البشرية، حيث أدت التجارة إلى تراكم الملكيات في أيدي فئة من أفراد المجتمع دون سواها.

أدى اختراع المحراث إلى الثورة الاجتماعية الثانية وما نجم عنها من تغيرات هامة طالت بنية المجتمعات البشرية، حيث ضاعف المحراث القدرة الإنتاجية فاتحاً بذلك باب التطور والتقدم أمام بعض المجتمعات الزراعية. كما تناقص عدد الأشخاص اللازمين لإنتاج حاجات الجماعات الغذائية، أدى إلى تقسيم العمل بشكل أكثر تخصصاً ضمن هذه الجماعات، مما نجم عنه تزايد فائض الإنتاج. كما ترافق التوسع التجاري الذي شهدته هذه الجماعات إلى تطور المراكز التجارية، متحولة إلى مدن، وانتقلت السلطة من يد العائلات والقبائل إلى يد النخب الحاكمة، الأمر الذي أدى إلى مزيد من اللامساواة على مختلف الأصعدة سواء الاجتماعية. السياسة أو الاقتصادية.

### 2.1. المجتمعات الصناعية

فجر اختراع المحرك البخاري وغيره من الآلات التي تعمل بالوقود، عوضاً عن الجهد العضلي، ثورة أخرى في تاريخ المجتمعات البشرية، حيث أدت هذه الآلات إلى تراكم فائض الإنتاج بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ الإنساني، كما تفاقمت مشكلة اللامساواة في المجتمعات الصناعية الناشئة أكثر بكثير مما كان الحال عليه في المجتمعات التي سبقتها، حيث فتحت حفنة من أصحاب الثورات المصانع واستغلت في تسييرها الآلاف من العمال المقهورين، ومع توسع ثروة أصحاب المصانع أصبح بمقدورهم التلاعب بالماكينة السياسية بما يتوافق مع مصالحهم. هيأت هذه الظروف مجتمعة الساحة لقيام الصراع الدموي الذي خاضه العمال بعد أن وحدوا صفوفهم بغية تحسين ظروف عملهم ومعيشتهم.

أدى اختراع الآلات الأكثر تطوراً في مراحل لاحقة إلى المزيد من فائض الإنتاج، الأمر الذي نجم عنه انتقال التركيز من إنتاج البضائع إلى استهلاكها. صاغ عالم الاجتماع فيبلين (Thorstein Veblen) مصطلح الاستهلاك الرائع لوصف هذا التغير الذي طرأ على اتجاهات البشر

## 2. وسائط المبادلة

### 1.2. تطور وسائط المبادلة

تعرف وسيطة التبادل بأنها الوسيلة التي يعتمدها الأفراد في تقييم السلع والخدمات. وقد تطورت وسائط التبادل وفقا للاتي:

1. وسائط التبادل البدائية: لم يكن مستوى فائض الإنتاج في مجتمعات الصيد والالتقاط البدائية، أو في مجتمعات الرعي والبستنة اللاحقة، من الارتفاع بما يكفي لقيام تبادل تجاري حقيقي ليين الجماعات البشرية ضمن هذه المجتمعات. حيث اقتصرت التبادلات التجارية النادرة على المقايضة، أي استبدال السلع بعضها ببعض مباشرة. إلا أن التطور الذي رافق المجتمعات الزراعية والصناعية من بعدها، مكن الجماعات البشرية من مضاعفة فائض إنتاجها مما أدى إلى قيام نظم تجارية فعلية اعتمدت طرقاً جديدةً لتقييم البضائع والخدمات التي يمكن للأفراد تبادلها فيما بينهم.
2. وسائط التبادل في المجتمعات الزراعية: على الرغم من استمرار اعتماد المجتمعات الزراعية على نظام المقايضة لهذا الحد أو ذاك، إلا أن شعبية هذا النظام تراجعت لمصلحة النظام النقدي، حيث بدأت مختلف المجتمعات البشرية استخدام النقود كوسيطة تبادل تعرف القيمة الفعلية للسلعة. اعتمدت معظم الجماعات البشرية على النقود المصكوكة من المعادن الثمينة كالذهب أو الفضة، حيث كان وزن القطعة النقدية ونقاوتها يحددان قيمتها الشرائية. إلا أن بعض الجماعات اعتمدت على صكوك الأمانة حيث كان كل صك من هذه الصكوك يعادل مقداراً محدداً من الذهب أو الحبوب، أو أي سلعة أخرى مخزنة في مستودع أو بنك معتمد. وبحلول نهاية الحقبة الزراعية حُولت صكوك الأمانة إلى العملة الورقية الرسمية، حيث كانت كل ورقة نقدية تعادل كمية محددة من الذهب أو الفضة مخزنة في مستودعات هذه الدولة أو تلك. تمثل كل من العمل الورقية وصكوك الأمانة ما يدعى بالقيمة المخزنة كما لا يمكن لأي جهة أن تصدر عملاً ورقية أو صكوك أمانة تفوق قيمتها قيمة الذهب والفضة المخزنة في مستودعات هذه الجهة.
3. وسائط التبادل في المجتمعات الصناعية: لم يعد لنظام المقايضة أي أثر يذكر في المجتمعات الصناعية، كما استبدل الذهب بالعملات النقدية، التي كان من الممكن استبدالها، في الولايات المتحدة مثلاً، بما يعادل قيمتها ذهباً، ودعيت هذه السياسة النقدية ميثاق المعيار الذهبي. إلا أنه كانت لهذه السياسة جوانبها السلبية، فطالما أن كل دولار يعادل كمية محددة من الذهب، فإن عدد الدولارات التي يمكن للحكومة إصدارها يبقى محدوداً إلا أنه مع نهاية الحقبة الصناعية منعت الحكومة الأمريكية استبدال الدولار بما يعادل قيمته من الذهب أو الفضة، وطرحت عوضاً عن النظام السابق، نظام مال السلطة، حيث تتولى الحكومة إصدار العملات النقدية بغض النظر عن مستوى احتياطي الذهب لديها وتتحمل مسؤولية الحفاظ على قيمتها الشرائية.

إلا أن تغييب ميثاق المعيار الذهبي لا يعني أنه يمكن لكل حكومة أن تصدر ما تشاء من العملات النقدية، بل على العكس هناك حد عملي لكمية الأوراق المالية التي يمكن لمختلف الحكومات طباعتها وإصدارها. وبشكل عام تزداد الأسعار عندما تصدر الحكومة أوراقاً نقدية بمعدل يفوق معدل الإنتاج المحلي الصافي ((Gross Domestic Product (GDp)، أي مجمل السلع والخدمات التي ينتجها البلد ككل. وهذا يؤدي إلى التضخم، حيث تتناقص قدرة العملة المحلية الشرائية.

## 2.2. النقود

تبين لنا من تطور نشأة النقود أنها جاءت للقضاء على صعوبات المقايضة من ناحية، ولتيسير عمليات التبادل التي زاد حجمها زيادة كبيرة من ناحية أخرى، وعن خلال هذا التطور الذي كان ياتي دائماً لكي يلبي حاجات المجتمع يمكن تصنيف وظائف النقود في فئتين:

أولاً – الوظائف الأساسية:

1. النقود كوسيط للتبادل: كانت صعوبات المقايضة سبباً في ظهور هذه الوظيفة، ولذلك تعتبر أقدم وظيفة للنقود هي قياسها كوسيط للتبادل، فهي وسيلة لنقل ملكية السلع والخدمات من طرف إلى طرف، وبالتالي فهي قوة شرائية تسهّل التبادل بين طرفين دون الحاجة إلى البحث عن طرف ثالث على أساس أن أداة التبادل هذه تحظى بالقبول العام. وتمكن من تقسيم العمل بحيث تتحقق نتائج التبادل بصورة طبيعية متواصلة.
2. النقود كمقياس مشترك للقيمة: إن الوظيفة الأساسية للنقود هي استخدامها لقياس قيم السلع والخدمات ونسبة قيمة كل سلعة إلى غيرها من السلع. وفي هذه الحالة تصبح النقود معدلاً للاستبدال وخاصة بين السلع الكبيرة الحجم التي تصعب تجزئتها إلى وحدات صغيرة دون أن تفقد قيمتها. ومن هذه الوظيفة اشتقت وظيفة فرعية هي استخدامها كوحدة للتحاسب، فالوحدة النقدية لأي دولة هي وحدة تقاس بها قيم السلع والخدمات في المجتمع.

ثانياً – الوظائف الثانوية أو المشتقة من الوظائف الأساسية:

1. النقود كمستودع للقيمة: ليس من الضروري لمن يحصل على النقود أن يقوم بإنفاقها في الحال، فالذي يحدث عملياً أن الفرد ينفق جزءاً ويدّخر جزءاً آخر ليقوم بالشراء في فترات لاحقة، وطالما أن الفرد لا يحتفظ بالنقود لذاتها وإنما بقصد إنفاقها في فترات لاحقة، أو لمقابلة احتياجات طارئة، فإن النقود في هذه الحالة تقوم بوظيفة مخزن للقيمة، خاصة وأنها تتميز بسهولة حفظها، كما أنها تجنّب الفرد تكاليف التخزين والحراسة، فضلاً عن أن حفظ السلع لفترات طويلة قد يعرضها للتلف. ولكن يشترط لكي تؤدي النقود هذه الوظيفة على الوجه الأكمل، أن تحتفظ بقيمتها النسبية لفترة طويلة، وهذا يعني الثبات النسبي لكل من العرض والطلب حتى يظل مستوى الأثمان ثابتاً.
2. النقود كمعيار للمدفوعات الآجلة: عندما أصبح الإنتاج للسوق أدى التخصّص وتقسيم العمل إلى كبر حجم الوحدات الإنتاجية. ومنعاً لتكدس المنتجات واستمرار الإنتاج اقتضى النظام الاقتصادي تسويق المنتجات على أساس العقود. فالعقد يتمّ في الوقت الحاضر على أساس أثمان معينة والتسليم يتمّ في وقت لاحق، لذلك كان لابد من معيار يتم على أساسه تحديد الأثمان، وقد استطاعت النقود أن تقوم بهذا الدور. وفي مقابل قيام الشركات بالإنتاج الآجل قامت البنوك بإقراض الشركات لتمويل المستودعات، وبذلك يسّرت النقود التوسيع في عمليات الائتمان، وكذلك استطاعت الحكومات أن تحقق مشروعاتها عن طريق إصدار السندات، فتحصل بمقتضاها على الأموال اللازمة على أن يتمّ سداد القرض في آجال لاحقة.
3. النقود الاحتياطية لقروض البنوك: إن وجود كمية من النقود في البنوك من شانها تمكين البنوك من إقراض عملائها وتيسير عمليات الائتمان والاقتراض، فإذا كان لدى المتعاملين مع البنوك مبلغاً من النقود فإنهم يستطيعون على أساسه (سواء أودع في البنك أم لم يودع) أن ينالوا قرضاً أو يفتح لهم حساب اعتماد.

من دراستنا لماهية النقود ووظيفتها يمكن أن نلخص تعريف النقود بالصيغة الآتية:

النقود هي الشيء الذي يلقى قبولاً عاماً في التداول، وتستخدم وسيطاً للتبادل ومقياساً للقيم ومستودعاً لها، كما تستخدم وسيلة للمدفوعات الآجلة واحتياطياً لقروض البنك، أي أنها مجموعة وظائفها التي ذكرناها ولذلك فان التعريف الموجز للنقود هو (أن النقود: هي كل ما تفعله النقود). وأفضل أنواع النقود هو الذي يستطيع أن يؤدي وظائفها على أتم وجه، أي أن يتمتع بصفة القبول العام بحرية تامة، وهنا يمكن القول أن العملة ذات القيمة الموجودة فيها (كالعملة الذهبية والفضية) هي أكثر أنواع النقود قبولاً، وتليها العملات التي تتمتع بثقة الجمهور أكثر من غيرها لأسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية. وهكذا حتى نهاية سلسلة أدوات التبادل التي يمكن أن تدخل ضمن تعريف النقود.

## 3. النظم الاقتصادية العالمية

### 1.3. النظام الرأسمالي

خصائص الاقتصاد الرأسمالي

يعمل الاقتصاد الرأسمالي وفقا لجملة من المميزات الخاصة به والتي نذكر من بينها:

أولاً – إن الإنتاج هو في جوهره إنتاج بضائع: أي إنتاج معد للبيع في السوق فبدون الإنتاج الفعلي للبضائع المنتجة الذي أنتجته القوى العاملة لاتستطيع المنشآت الرأسمالية والطبقة البرجوازية أن تحقق فائض القيمة.

ثانياً– يجري الإنتاج ضمن شروط الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج: لا تعتبر الملكية الخاصة مقولة حقوقية، بل هي مقولة اقتصادية في المقام الأول. حيث تعني أن سلطة التصرف بالقوى المنتجة (وسائل الإنتاج والقوى العاملة) ليست في حوزة المجتمع، بل هي مفتتة بين منشآت منفصلة عن بعضها البعض تسيطر عليها النخب الرأسمالية.

ثالثاً – يتم الإنتاج لأجل سوق مغفلة وتحكمه ضرورات المزاحمة: فبما أن الإنتاج لم تعد تحد منه التقاليد كما في جمعيات الحرف في العصر الوسيط، فإن كل رأسمال خاص المجتمعات المشاعية البدائية أو التشريعات (كما في رأسمالي) يسعى جهده لبلوغ أعلى رقم للمبيعات ولاحتكار القسم الأكبر من كل مالك، كل منشأة أو كل تجمع السوق دون المبالاة بالقرارات المماثلة التي تتخذها منشآت أخرى تعمل في المجال ذاته.

رابعاً – إن هدف الإنتاج الرأسمالي هو تحقيق الحد الأقصى من الربح: فبينما اعتمدت الطبقات المالكة في مرحلة ما قبل الرأسمالية في معيشتها على فائض الإنتاج الاجتماعى حيث كانت تستهلكه إجمالاً بصورة غير منتجة، يتحتم جزءاً من فائض الإنتاج الاجتماعي، أي من الأرباح التي حققتها، على الطبقة الرأسمالية هي أيضاً أن تستهلك بصورة غير منتجة. غير أنه عليها، لكي تحقق هذه الأرباح، أن تتمكن من بيع بضائعها، الأمر الذي يقتضي تقدر على خفض تكاليف أن تستطيع بيعها في السوق بسعر أدنى من أسعار المنافسين. وينبغي في سبيل ذلك أن التكلفة فهي توسيع قاعدة الإنتاح، أي زيادة الإنتاح، الإنتاج. أمّا الوسيلة الأنجع لخفض تكاليف الإنتاج سعر بواسطة آلات أكثر تطوراً، غير أن هذا يتطلب رساميل أعظم فأعظم. إن سوط المزاحمة هو إذاً الذي يجبر إلى أقصى حد الرأسمالية على السعي وراء الحد الأقصى من الربح لتتمكن من تطوير التوظيفات المنتجة.

خامساً – الإنتاج الرأسمالي هو إنتاج من أجل تراكم الرأسمال: إن الإنتاج الرأسمالي ليس إنتاجاً في سبيل الربح فحسب، بل إنتاج من أجل تراكم الرأسمال. فإن منطق الرأسمالية يقتضي بالفعل أن يراكم القسم الأعظم من فائض آلات ومواد أولية إضافية، ويد عاملة إضافية، القيمة بصورة منتجة أي أن يتم تحويله إلى رأسمال إضافي بشكل لا أن يستهلك بصورة غير منتجة.

سير الاقتصاد الرأسمالي

من أجل الحصول على الحد الأقصى من الربح وتطوير تراكم رأس المال إلى أبعد حد ممكن، يتوجب على الرأسماليين أن يقلصوا إلى أقصى حد ذاك القسم من القيمة الجديدة، التي أنتجتها قوة العمل والذي يعود إليها بشكلِ أُجور. حيث تتحدد هذه القيمة الجديدة، بالفعل في سيرورة الإنتاج ذاتها، بشكل مستقل عن أية مشكلة توزيع. وتقاس بمجموع ساعات العمل التي بذلها مجمل العمال المأجورين. فبقدر ما تكبر حصة الأجور الفعلية التي يدفعها ذاك المجموع، تصغر حصة فائض القيمة. وكلما سعى الرأسماليون لزيادة الحصة العائدة لفائض القيمة، كلما اضطروا إلى تقليص الحصة المخصصة للأجور.

إن الوسيلتين الرئيسيتين اللتين يجهد الرأسماليون بواسطتهما لزيادة حصتهم، أي لزيادة فائض القيمة هما:

زيادة فائض القيمة المطلق: وتشمل إطالة يوم العمل (من القرن السادس عشر إلى منتصف التاسع عشر في الغرب، وحتى أيامنا في العديد من البلدان شبه المستعمرة) وتقليص الأجور الفعلية وتخفيض «الحد الأدنى» المعيشي.

زيادة فائض القيمة النسبي: وتشمل إطالة زيادة كثافة العمل وإنتاجيته في دائرة السلع الاستهلاكية (وقد سادت هذه الوسيلة في الغرب منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر).

يبذل كل رأسمالي ما بوسعه للحصول على الحد الأقصى من الربح. ويسعى أيضاً من أجل ذلك لزيادة الإنتاج إلى أقصى حد، ولأن ينخفض باستمرار سعر الكلفة وسعر المبيع (اللذين يحددان بوحدات نقدية ثابتة). وبنتيجة ذلك، تُجري المزاحمة في الأمد المتوسط اختياراً بين المنشآت الرأسمالية، فتبقى الأكثر إنتاجية والأكثر إيرادية دون سواها. أمّا المنشآت التي تبيع بأسعار عالية فهي لا تحقق الحد الأقصى من الربح، بل ينتهي بها الأمر إلى زوال ربحها كليا. إنها تفلس أو يستوعبها المنافسون.

إن المزاحمة بين الرأسماليين تؤدي إلى تساوي معدل الربح. فينتهي الأمر بمعظم المنشآت إلى اضطرارها إلى الاكتفاء بربح متوسط تحدده في التحليل الأخير الكتلة الإجمالية للرأسمال الاجتماعي الموظف والكتلة الإجمالية لفائض القيمة الذي ينتجه مجمل المأجورين المنتجين. وحدها المنشآت التي تنعم بتعدم هام في الإنتاجية أو بهذا الوضع الاحتكاري أو ذاك، تحصل على أرباح فائضة، أي على أرباح تفوق المتوسط. غير أن المزاحمة الرأسمالية لا تسمح إجمالاً للأرباح الفائضة أو للاحتكارات بأن تستمر لوقت غير محدود.

إن الفروقات بالنسبة لذلك الربح المتوسط هي التي تتحكم إلى حد بعيد بالتوظيفات في نمط الإنتاج الرأسمالي. فتترك الرساميل القطاعات حيث الربح أدنى من المتوسط وتتدفق نحو قطاعات حيث الربح أعلى من المتوسط (فمثلاً كانت الرساميل تتدفق نحو صناعة السيارات في الستينات من القرن الماضي، إلا أنه سرعان ما حولت اتجاهها نحو قطاع الطاقة في السبعينات). لكن هذه الرساميل، بتدفقها نحو القطاعات حيث معدل الربح أعلى من المتوسط، تخلق في هذه القطاعات مزاحمة حادة وقضى إنتاج وانخفاضاً لأسعار المبيع وللأرباح حتى يستقر معدل الربح في المستوى ذاته إلى هذا الحد أو ذاك في جميع القطاعات.

## 2.3. النظام الاشتراكي

### خصاص النظام الاشتراكي

تتمتع النظم الاقتصادية الاشتراكية بثلاثة خصائص أساسية هي:

أولاً – الملكية العامة لوسائل الإنتاج: تمتلك الحكومة كافة وسائل الإنتاج في النظم الاشتراكية، ولا تقتصر هذه الملكية على المصانع، بل تشمل كذلك الأراضي، المرافق العامة، شبكات المواصلات، حقول النفط والمناجم.

ثانياً – التخطيط المركزي: على عكس النظام الرأسمالي، الذي تحدد فيه قوى السوق – أي نسبة العرض والطلب – ما الذي سيتم إنتاجه وما السعر الذي ستطرح به المنتجات في الأسواق، تضطلع في النظم الاشتراكية لجنة مركزية بمهام وضع خطط الإنتاج والتسعير.

ثالثاً – توزيع السلع بمعزل عن حافز الربح: تهدف النظم الاشتراكية إلى إزالة المنافسة بين المنتجين، حيث أن السلع تباع بأسعار محددة مسبقاً بمعزل عن مقدار الطلب على هذه السلع وكلفة إنتاجها. حيث لا تعتبر النظم الاشتراكية الربح بمثابة هدف لها، ولا التشجيع على الاستهلاك بتخفيض الأسعار، ولا حتى الحد من الاستهلاك برفع الأسعار. بل على العكس، إن الهدف الأساسي للنظم الاشتراكية هو إنتاج السلع بما يتوافق مع المصلحة العامة، وتوزيع هذه المنتجات بين أفراد المجتمع كل حسب حاجته، وليس حسب مقدراتهم الشرائية.

### مراحل التطور التاريخي

أولا – الاشتراكية الطوباوية (المثالية): هي الحركات الأولية للطبقة العاملة التي تطورت على هامش التطور العلمي في القرنين السابع عشر والثامن عشر وقاد معظمها العمال أنفسهم، وفي إطار هذا التطور العلمي بالذات تقع جهود أوائل المفكرين الكبار الطوباويين من أمثال توماس مور (مستشار إنكلترا في القرن 16)، وكامبانيلا (كاتب إيطالي في القرن 17)، وروبيرت أوين، وشارل فوريه وسان سيمون (كتّاب في القرنين 18 و19).

حاول هؤلاء الكتّاب أن يجمعوا كل معارف عصرهم العلمية ليقوموا بصياغة:

- نقد حاد للامساواة الاجتماعية، لاسيما تلك التي تميز المجتمع البورجوازي
- مخطط تنظيم مجتمع متساوٍ، قائم على الملكية الجماعية

- يُعتبر أولئك الكتاب الرواد الحقيقيين للاشتراكية الحديثة. إلّا أن ضعف نظامهم يكمن في طرح فكرة المجتمع المثالي الذي يحلمون به كمثل أعلى مطلوب بناؤه وبلوغه دفعة واحدة بالإرادة الحسنة، وذلك من دون علاقة بالتطور التاريخي الذي يؤدي إليه المجتمع الرأسمالي بالذات إلى هذا الحد أو ذاك.
- تفسير الظروف التي ظهرت خلالها اللامساواة الاجتماعية والتي يمكن أن تختفي خلالها، بشكل غير دقيق علمياً اعتماداً على عوامل ثانوية (العنف، الأخلاق، الملل، علم النفس، الجهل، الخ)، لا تنطلق من المشكلات البنيوية الاقتصادية والاجتماعية، مشكلات التفاعل بين علاقات الإنتاج ومستوى تطور قوى الإنتاج

ثانيا – النظرية الماركسية – البيان الشيوعي: لم يكتشف ماركس وإنجلز مفهومي الطبقة الاجتماعية والصراع الطبقي، فهذان المفهومان كان يعرفهما الاشتراكيون الطوباويون وبورجوازيون آخرون. بيد أنهما شرحا علميا أصل الطبقات، وأسباب تطور الطبقات، وواقع إمكان تفسير التاريخ الإنساني بكامله انطلاقاً من مفهوم صراع الطبقات، وعلى وجه الخصوص الشروط المادية والمعنوية التي بموجبها يمكن لانقسام المجتمع إلى طبقات أن يخلي المجال لمجتمع اشتراكي خالٍ من الطبقات.

كما فسر ماركس وإنجلز من جهة أخرى كيف أن تطور الرأسمالية بالذات يفتح المجال أمام تطور المجتمع الاشتراكي، ويهيىء القوى المادية والأدبية التي تضمن انتصار المجتمع الجديد. هكذا يمثل البيان الشيوعي شكلاً أسمى من الوعي الطبقي البروليتاري. يعلّم الطبقة العاملة أن المجتمع الاشتراكي سوف يكون ناتج صراعها الطبقي ضد البورجوازية. إنه يعلمها ضرورة ألّا تكتفي بالنضال من أجل زيادة الأجور، وأن تعمل بالتالي لإلغاء العمل المأجور. يعلمها على وجه الخصوص ضرورة تشكيل أحزاب عمالية مستقلة، وأن تستكمل عملها المتمثل بمطالب اقتصادية بعمل سياسي على الصعيدين القومي والأممي.

لقد وُلدت الحركة العمالية الحديثة إذاً من الاندماج بين الصراع الطبقي الأولي للطبقة العاملة والوعي الطبقي البروليتاري البالغ درجته العليا من التعبير المتجسدة في النظرية الماركسية.

ثالثا – الأممية الأولى: خلال ثورات 1848 التي هزت أركان معظم بلدان أوروبا، لم تظهر الطبقة العاملة كحزب سياسي بالمعنى الحديث للكلمة في أي من هذه البلدان، باستثناء ألمانيا (في جمعية الشيوعيين الصغيرة، التي كان يقودها ماركس).

لقد اندمج ماركس والمجموعة الصغيرة من نصرائه اندماجاً حقيقياً مع الحركة العمالية الأولية في ذلك العصر بتأسيس الأممية الأولى عام 1864، ووضعوا بذلك حجر الأساس لتشكيل الأحزاب الاشتراكية في معظم بلدان أوروبا. ومن قبيل المفارقة البالغة أن الأحزاب التي اجتمعت لتشكيل الأممية الأولى لم تكن أحزابا عالمية. إن تشكيل هذه الأخيرة هو الذي سمح بالتجميع القومي لمجموعات محلية ونقابية انضمت إلى الأممية الأولى.

وحين تصدعت الأممية بعد هزيمة كومونة باريس احتفظ العمال الطليعيون بوعي ضرورة تجمع من هذا النوع على المستوى القومي. وخلال السبعينات والثمانينات، وبعد العديد من المحاولات الفاشلة، تشكلت نهائياً أحزاب اشتراكية مستندة إلى الحركة العمالية الأولية في ذلك الزمن. وكانت الاستثناءات المهمة الوحيدة لهذه السيرورة هي بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، فالأحزاب الاشتراكية التي تشكلت فيهما في ذلك العصر بالذات بقيت على الهامش حركة نقابية كانت قد أصبحت قوية. ولم يظهر حزب العمال المستند إلى النقابات في بريطانيا إلّا في القرن العشرين.

رابعا – كومونة باريس تلخص كومونة باريس كل الاتجاهات التي برزت في أصل الحركة العمالية الحديثة وفي أوائل تفتحها. لقد ولدت من الحركة العمالية الجماهيرية العفوية لا من خطة أو برنامج وضعهما حزب عمالي بصورة مسبقة، وبيّنت اتجاه الطبقة العاملة لتخفي الطور الاقتصادي الصرف من نضالها – إن الأصل المباشر للكومونة سياسي للغاية، وهو يتمثل في حذر عمال باريس تجاه البورجوازية المتهمة بنيتها تسليم المدينة للجيوش البروسية التي كانت تحاصرها – وذلك بالدمج المستمر للمطالب الاقتصادية والمطالب السياسية. وفي الكومونة وضعت الطبقة العاملة يدها للمرة الأولى على السلطة السياسية، ولو على أرضى مدينة واحدة. عكست الكومونة اتجاه الطبقة العاملة لتدمير جهاز الدولة البورجوازي واستبدال الديمقراطية البورجوازية بديمقراطية البروليتاريا.

خامسا – الاشتراكية الديمقراطية: طورت الدول الاسكندينافية، وعلى رأسها السويد والدانمرك، هذا النظام كرد فعل على جشع الرأسمالية ولا فردية الاشتراكية، وفي هذا النمط من الاشتراكية يقوم كل من الأفراد والحكومة بإنتاج وتوزيع الخدمات والسلع. ففي حين تملك الحكومة وتدير شبكات المواصلات، المناجم، حقول النفط، خطوط الهاتف، شبكات التلفزة والإذاعة والخدمات العامة، فإن الأفراد يتمتعون بحق تملك المتاجر، المزارع، المصانع ومعظم الصناعات الخدمية.

### 3.3. النقود في النظم الاقتصادية العلمية

الاقتصاد الرأسمالي:

1. أهمية النقود في النظام الرأسمالي: يرتكز الاقتصاد الرأسمالي على الملكية الفردية لأدوات الإنتاج، وعلى الإنتاج التلقائي الذي يتم عن طريق قوى السوق وجهاز الأثمان الذي يلعب الدور الحيوي في توزيع القوى الإنتاجية، بعبارة أخرى السوق وحركات الأثمان هي الأساس في التنسيق في الاقتصاد الرأسمالي، وفي هذا الاقتصاد لا تكمن أهمية النقود فقط في كونها وسيطاً للتبادل، بل هي تدخل في معاملات السوق على هيئة الأثمان، فإن كل طلب على سلعة يوجد مقابله عرض للنقود، والعكس بالعكس.
2. الأثمان: تتشكل الأثمان في النظام الرأسمالي عندما يحدث توزان بين الكمية المعروضة والكمية المطلوبة. وبما أن كل عرض للنقود يجب أن يقابله طلب على السعلة، والعكس بالعكس، لذلك فمن الضروري أن تكون كمية النقود قيد التدوال كافية بالنسبة للحاجات ولكن ليس أكثر منها حتى لا يختل المستوى العام للأثمان بسبب تزعزع كمية التداول النقدي. أي لا يجب أن ترتفع الأثمان بسبب فائض في كمية النقود المتداولة، أو تنخفض الأثمان بسبب شحّ في النقود المتبادلة.
3. الحفاظ على استقرار المستوى العام للأثمان: ولكي يبقى المستوى العام للأثمان ثابتاً مستقراً، فإنه يجب أن يبقى توازن بين كمية النقود المتداولة وكمية السلع المتبادلة، ويجب أن تتوازى كمية النقود مع الحاجات ومع كمية المنتجات المعروضة. وإلا فإن مستوى الأثمان يتعرّض لهزات سيئة وكذلك المستوى العام للأثمان أي القوة الشرائية، ويمكن إيجاز كيفية حصول تلك الهزات بما يلي:

- زيادة كمية النقود المتداولة بالنسبة للحاجات: وهي الحالة التي تكون فيها قوة شرائية أكبر من اللزوم، ويُقبِل الحائزون على هذه النقود على استعمالها وينجم عن ذلك أن الطلب يصبح أقوى من العرض، فترتفع الأثمان ويُحجم المشترون الحائزون على كميات قليلة من النقود أو غير المتعجلين على الشراء، ويعود التوازن بعد ذلك بين الكميات المعروضة والكميات المطلوبة ولكن بمستوى أثمان أعلى من الماضي.
- قلة كمية النقود المتداولة بالنسبة للحاجات: تعود هذه القلة إلى هزات أكثر عنفاً من الفائض، حيث أن الدور الأساسي الذي تلعبه النقود هو دور التبادل والتداول. فإن لم تكن في التداول كمية من النقود كافية لمواجهة تداول السلع والمنتجات فإن التبادل يتعرقل ويصاب الجهاز الإنتاجي بالشلل، ولا يكون هناك سبيل لتصريف المنتجات وتتوقف المشروعات ويتعرض العمال للبطالة، وهذا ما يسمى (بالأزمة الاقتصادية). لمواجهة هذه الأزمة يجب إصدار نقود جديدة والقذف بها في التداول، وبذلك تعود المشروعات للعمل متيحة انتعاش الطلب ويعود دافع الربح – الذي هو هدف الإنتاج في الاقتصاد الرأسمالي – كما تعود الثقة لدى الأفراد أصحاب النقود التي طرحت وقت الأزمة بغية تفادي وجود فائض من النقود في التداول عن الحاجة إليها، أي بغية تفادي وقوع تضخم نقدي.

الاقتصاد الاشتراكي:

1. أهمية النقود في النظام الاشتراكي: تتحدد طبيعة الإنتاج الاشتراكية بأن علاقات الإنتاج فيها تقوم على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، وبأن الإنتاج يهدف إلى إشباع الحاجات الاجتماعية، وبأن العملية الاقتصادية عملية مخططة. وفي هذا النظام الاقتصادي يجري تداول النقود بين الأفراد، كما يجري تداول الشيكات والكمبيالات في المعاملات الكبيرة بين المشروعات المملوكة ملكية جماعية، ولكن على خلاف النظام الاقتصادي الرأسمالي لا نجد تأثير النقود على الأسعار في المعاملات. ذلك أن حركة الأسعار لا تتحدّد بالسوق (العرض والطلب)، وحجم الإنتاج لا يتأثر بحركة الأسعار، وبالتالي بدافع الربح النقدي، فالنظام الاقتصادي تحكمه خطة شاملة تضعها الدولة تهدف بها إلى إشباع الحاجات الاجتماعية. ومن هذا المنطلق فخطة الإنتاج أساس النظام النقدي. وعلى هذا الأساس، تقوم الدولة بتحديد كمية النقد المطلوبة وكيفية توزيعها على القطاعات الإنتاجية المختلفة.
2. وظائف النقود في الاقتصاد الاشتراكي: وهذا يقودنا إلى أن وظائف النقود في الاقتصاد الاشتراكي تتمثل فيما يلي:

- تستخدم النقود كأداة للتداول بين الأفراد: ولكن طبيعة هذه الوظيفة تختلف عنها في الاقتصاد الرأسمالي، فالاقتصاد الاشتراكي تسوده فكرة المنفعة أو قيمة الاستعمال، في حين تسود فكرة قيمة المبادلة الاقتصاد الرأسمالي. وبذلك يكون استخدام النقود لا كواسطة لمبادلة سلع من مالك لآخر، وإنما كوسيلة لتوزيع المنتجات التي أعدت للتوزيع، لا للبيع في سوق، بثمن يتحدد بقيمة المبادلة وبالعلاقة بين العرض والطلب.
- تستخدم النقود في الاقتصاد الاشتراكي كأداة للتحاسب: ولكن أداءها لهذه الوظيفة يختلف عنه في الاقتصاد الرأسمالي، فليس الغرض من التحاسب هو تحديد الربح المستهدف، وإنما تستعمل النقود للمعاملات الكبيرة، كبيع يتم بين مشروعات الدولة، ويتخذ هذا البيع هنا صورة الشيكات والكمبيالات، والغرض المنشود هو التأكد من كفاءة المشروع، ولهذا تكون النقود أداة لتحديد كفاءة المشروع، أي أداة لإنتاج أقصى قدر من المنتجات بأقل جهد بشري ممكن.
- قد تستخدم النقود في الاقتصاد الاشتراكي أداة ادّخار: ولكنها لا تقوم في هذا الاقتصاد مطلقاً بوظيفة الاستثمار، فلا يمكن للفرد أن يصبح رأسمالياً بشراء وسائل الإنتاج، ولا يمكن للنقود أن تلد نقوداً عن طريق الائتمان، وإنما يمكن للفرد أن يشتري سنداً من سندات الدولة ويحصل عنه فائدة، ولكن أهمية هذا التوظيف في أن الدولة تعطي أجوراً معينة، فمن كانت حاجته كبيرة أنفق كل دخله، ومن كان غير ذلك استطاع أن يعيد الزيادة في دخله إلى الدولة ليزداد بها الإنتاج فالنقود هنا جزء من خطة التوزيع، أما الفائدة فتدفع لحث الأفراد على إعادة الفائض عن حاجتهم إلى الدولة.

## 4. عولمة الرأسمالية

### 1.4. نظرية الوظيفية

ينبغي علينا، حتى نطبق النظرية الوظيفية على ظاهرة عولمة الرأسمالية، أن نتعرف أولاً إلى مفهوم العمل نفسه.

- تعريف العمل: هو الوظيفة الأساسية بالنسبة للمجتمع، إلا أن مفهوم العمل يمتد أبعد من هذا التعريف ليشمل المبدأ الاجتماعى الأساسي القائل بأن العمل يربطنا معاً. وقد لاحظ إميل دوركهايم أن طبيعة العمل الموحدة في المجتمعات الزراعية فرضت على أفراد هذه المجتمعات منظوراً واحدا للعمل، وقد استخدم دوركهايم مصطلح التكافل الميكانيكي لوصف حس الوحدة الناجم عن الاضطلاع بمهام متماثلة.

أدت عملية تحول المجتمع إلى مجتمع صناعي إلى تقسيم العمل بصورة أكثر تخصصاً، وبما أنه لا يمكن لأفراد المجتمع في ظل هذا التقسيم أن يقوموا بنفس الأعمال، فمن الطبيعي أن يشعروا بترابط أقل متانة فيما بينهم. وبما أن أفراد هذه المجتمعات يغدون أشبه بأعضاء الجسد، من حيث أن كلاً منهم يتخصص بأداء وظيفية حيوية ما، فقد دعى دوركهايم هذه الوحدة بالتكافل العضوي.

- ظاهرة التقسيم العالي للعمل: أدرك دوركهايم بدايات ما أضحى فيما بعد ظاهرة عالمية، حيث نجد اليوم أن التكافل العضوي قد هيمن على كافة أنحاء العالم، وأكثر من هذا فقد نشأت ظاهرة التقسيم العالمي للعمل، حيث أصبحنا نعتمد في معيشتنا على عمل العمال المتوزعين في شتى أنحاء المعمورة، ونجد مثلاً أن سكان الولايات المتحدة الأمريكية يعتمدون على عمال اليابان الذين يصنعون السيارات التي يركبونها، في حين يعتمد العمال اليابانيون بدورهم على العمال السعوديين الذي ينتجون النفط، وعلى العمال الجنوب أمريكيين الذين يصنعون الرقاقات، وعلى عمال المناجم في جنوب إفريقيا الذين يستخرجون المعادن المستخدمة في صناعة السيارات. وعلى الرغم من أننا لا نشعر بأي حس بالارتباط مع بعضنا البعض، إلا أن هناك علاقات اعتمادية بينية تربط بيننا ضمن شبكة اقتصادية عالمية واحدة.

يرجع انتصار الرأسمالية وتربعها على عرش القوى الاقتصادية حول العالم إلى اختراع اجتماعي يدعى الشركة.

- تُعريف الشركة: هي ذلك العمل الذي يعامل قانونياً كفرد من أفراد المجتمع. حيث يمكن للشركة أن توقع العقود، أن تطلب الديون، أن تقاضى أو تقاضي، في حين تبقى مسؤولياتها القانونية مستقلة عن مسؤوليات مالكيها القانونية. يستخدم علماء الاجتماع مصطلح رأسمالية الشركات للإشارة إلى هيمنة الشركات على الاقتصاد العالمي.

إحدى أكثر خصائص الشركات إثارةً للدهشة، وفي نفس الوقت أكثرها وظيفيةً، هي فصل الملكية عن الإدارة في الشركات، فعلى عكس معظم الأعمال، لا يقوم مالكو الشركات عادة بإدارة قضاياها ومشاكلها اليومية، إنما يضطلع بهذه المهمة المدراء المتخصصون والذين يديرون مختلف القضايا التي تواجه الشركة كما لو أنهم يملكونها فعلاً.

والأمر الذي يحافظ على استمرارية هذا الفصل بين الإدارة والملكية هو قبل كل شيء الربح، حيث يُحفِّز ربط الزيادات والعلاوات بمدى التحسن في أداء الشركة، المدراء ويدفعهم لتحقيق المزيد من الأرباح للشركة.

## 2.4. نظرية الصراع الطبقي

يعتبر أصحاب نظرية الصراع الطبقي أن تركيز الاهتمام على علاقات الاعتمادية البينية العالمية إنما هو تضليل للعقل، حيث أن كيفية استفادة أثرياء العالم من نفقات العمال هو ما ينبغي أن نركز جل اهتمامنا عليه وليس أي أمر آخر:

- الحلقة الداخلية في رأسمالية الشركات: تترأس مجموعة تعرف باسم الحلقة الداخلية الشركات متعددة الجنسيات – أي تلك الشركات التي يتجاوز نطاق نشاطها حدود البلد الواحد. وعلى الرغم من التنافس القائم بين أعضاء هذه الحلقة إلا أن المصلحة المشتركة في الحفاظ على استمرارية النظام الرأسمالي توحد فيما بينهم في كتلة واحدة. يتشاور هؤلاء الأعضاء كل في بلده مع أرفع المسؤولين السياسيين بحيث يعمل هؤلاء المسؤولون على تحقيق مصالح الشركات العملاقة، وعلى المستوى العالمي يعمل أعضاء الحلقة الداخلية على ترويج أيديولوجية الرأسمالية وعلى نقل رأس المال من بلد لآخر في بحثهم الدائم عن أرباح أكبر وأسرع.
- الشركات ذات الأرباح الأكبر على مستوى العالم: يستعرض الجدول المرفق الشركات ذات الأرباح الأكبر على مستوى العالم، ونلاحظ من هذا الجدول أن الولايات المتحدة تهيمن على التجارة العالمية، حيث أن ستة عشر من الشركات الخمس والعشرين الأكثر ربحاً في العالم إنما هي شركات أمريكية.

- احتكار القلة: إذا لم تستطع الشركات العملاقة أن تحتكر سوق سلعة ما لوحدها، فإنها تسعى لتحقيق احتكار القلة، حيث تهيمن بضعة شركات كبرى على صناعة واحدة مثل حبوب الإفطار أو المصابيح الكهربائية أو غيرها، وإذا ما حققت الشركات مثل هذا النوع من الاحتكار، يمكنها عندئذ تقاسم السوق فيما بينها، كما يمكنها أيضا أن تتحكم بأسعار ونوعية المنتجات.
- دمج الشركات العملاقة: إن أهم التطورات التي حققتها الرأسمالية المعاصرة في مسيرتها هي عمليات دمج الشركات العملاقة التي يشهدها العالم اليوم، حيث يقلل هذا الدمج من التنافس بين هذه الشركات كما أنه يزيد من مجمل القوة التي تتمتع بها هذه الشركات ويمكنها من الهيمنة على الاقتصاد العالمي.
- تشبيك مجالس الشركات: يشدد أصحاب نظرية الصراع الطبقي على أهمية الطريقة التي تتبعها النخبة المسيطرة في نشر سلطتها بوساطة تشبيك مجالس الشركات، حيث يشارك أفراد هذه النخبة في مجالس عدة شركات، كما يشارك أعضاء هذه المجالس بدورهم في مجالس شركات أخرى وهكذا، مشكلين بذلك شبكة تمتد من المركز إلى الأطراف، وبذلك تتشابك الشركات المتربعة على قمة الاقتصاد العالمي بشبكة من أعضاء مجالس الإدارات.

## 5. مضاعفات الرأسمالية العالمية

تعمل الشركات العملاقة العابرة للقارات اليوم على تجزئة العالم إلى مجموعة من الكتل التجارية، كما تسعى لإزالة الرسوم الجمركية على السلع أو على الأقل لتخفيضها إلى أقل ما يمكن. وكنتيجة لهذه السياسة ستزداد المبادلات التجارية بين مختلف دول العالم إلى حد لم يسبق له مثيل على امتداد التاريخ البشري. وستستمر الشركات الأمريكية بدعم توسع التجارة العالمية، حيث ستغدو أسواق العالم ضرورية لاستمرارية نجاح هذه الشركات. إلا أن الفائدة لن تعم جميع دول العالم بالتساوي، حيث ستحتفظ الأمم الصناعية الأكثر تقدماً بحصة الأسد من ثروة العالم وستتفاقم بالتالي مشكلة اللامساواة الاقتصادية بين الأمم الأغنى والأمم الأفقر. وهكذا يمكن تلخيص هذه المضاعفات بظواهر التجارة العالمية واللامساواة والصراع الطبقي.

# الفصل التاسع: المجتمع المدني

## الكلمات المفتاحية

المجتمع المدني، السياسة المدنية، الأرستقراطية، الدولة (الحديثة)، السياسة، المنظمات غير الحكومية، العولمة، العولمة الرأسمالية، التكيف الهيكلي، البنك الدولي، المنظمات الأهلية، المجتمع المدني النخبوي، المجتمع المدني الشعبي، التحويل الديمقراطي، المواطنة.

## ملخص

يتعرف الطلاب في هذه الوحدة على التطور التاريخي لمفهوم المجتمع المدني، وعلى مكونات هذا المجتمع ومقوماته الأساسية، بالإضافة إلى الدور الذي يلعبه في العملية الديمقراطية. كما تلقي الوحدة الضوء على تطور مفهوم الدولة وتحول سلطتها بتأثير المتغيرات الحديثة.

## أهداف تعليمية

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

1. مفهوم المجتمع المدني
2. تعريف المجتمع المدني – مقوماته ومكوناته
3. الاختراق الخارجي للمجتمع المدني
4. دور المجتمع المدني في بناء الديمقراطية
5. وظائف المجتمع المدني وعلاقتها بالديمقراطية
6. أنواع المجتمع المدني
7. المفهوم المركزي للدولة
   - عبادة الدولة
   - انهيار مركزية الدولة

## المخطط

- مفهوم المجتمع المدني
- المجتمع المدني
- الاختراق الخارجي للمجتمع المدني
- دور المجتمع المدني في بناء الديمقراطية
- وظائف المجتمع المدني وعلاقتها بالديمقراطية
- أنواع المجتمع المدني
- المفهوم المركزي للدولة

# 1. مفهوم المجتمع المدني

## 1.1. المفهوم في القرنين السابع عشر والثامن عشر

ليس هناك مفهوم ثابت وجامد وناجز وقابل للاستخدام في كل زمان ومكان، حتى تلك المفاهيم التي تبدو لنا كذلك. فالمفهوم مرتبط بتاريخ نشأته، أي بالمشكلات التي كانت مطروحة في وقت نشوئه، كما هو مرتبط بالإشكاليات النظرية التي رافقت هذه المشكلات، أي بنوعية المناظرة الفكرية التي دارت من حول المشاكل المطروحة والطريقة التي حاول بها المثقفون مواجهتها. فهو بالضرورة ابن بيئة تاريخية اجتماعية محددة وهو ابن فكر محدد أيضاً. ثم إن المفاهيم لا تولد في النظرية فقط وعبر التفكير، أي لا يُستل واحدها من الأخر بصورة منطقية ورياضية، ولكن ظهورها وتطورها يرتبطان بالصراع الاجتماعي، أي بنوع من الاستخدام الاستراتيجي. وليس هناك مفهوم تنطبق عليه هذه العوامل الثلاث التي تجعل منه مفهوماً ديناميكياً جداً ومتحولاً وملتبساً في الوقت نفسه أكثر من مفهوم المجتمع المدني.

التقريب الموضوع من الأذهان يمكننا اختصار هذه الاستخدامات المتعددة وجمعها في أربعة استخدامات متميزة رافقت هذا المفهوم منذ نشوئه حتى اليوم:

- نشأة مفهوم المجتمع المدني: الاستخدام الأول للمجتمع المدني هو الذي كان يجعل منه مناقضاً لمفهوم الطبيعة والمجتمع الطبيعي، الذي هو بالنسبة للبعض المجتمع الحيواني أو المجتمع الأبوي أو المجتمع التقليدي أو مجتمع الحرية الأولى. وقد نشأ هذا الاستخدام في سياق تحلل النمط التقليدي للمجتمع الإقطاعي أو الدولة ما بعد الإقطاعية القائمة على البديهة الدينية أو العرفية ونمو الشعور بأن السياسة صناعة، أي نشاط عقلي وتابع لعمل الإنسان والمجتمع، ومن خلف ذلك ظهور النظرية السياسية الحديثة. وكانت الحاجة ضرورية لمفهوم جديد يعكس النزوع المتزايد لاكتشاف ما سوف يسمى بالسياسة المدنية.
- السياسة المدنية: أي السياسة التي تعبر عن حقيقة الإنسان وطبيعة اجتماعه المدني وخصوصيته مقابل ما كان سائداً في الحقبة الوسيطة من انعدام السياسة كمجال عام ومشترك ومن ارتباط السياسة بالدين أو بالإرث الأرستقراطي أو بالاثنين معاً. فبنية المجتمعات ما قبل الحديثة كانت تقتصر على ثلاث مراتب أساسية من الوجهة السياسية، رجال الدين والكنيسة، طبقة النبلاء أو مالكي الأرض والإقطاعيين، ثم عامة الشعب. ولم يكن لعامة الشعب أي اعتبار في أي موضوع يخص ما نسميه اليوم مواضيع سياسية.

- إعادة بناء السياسة على أسس غير دينية وغير أرستقراطية: لقد كانت المشكلة الرئيسية المطروحة على مثقفي القرن السابع عشر والثامن عشر – الذين رافقوا تحلل هذا النظام الاجتماعي التقليدي وتطور البرجوازية كطبقة جديدة تطمح إلى إعادة بنائه من منظورات مختلفة تلغي المراتبية الجامدة وتفتح المجال أمام هيمنة سياسية حديثة – هي إعادة بناء السياسية على أسس غير دينية وغير أرستقراطية، أي لا ترتبط بتكليف إلهي ولا بإرث عائلي، ولكن بالمجتمع نفسه، تنبع منه وتصب فيه. ومن هذه النقطة سوف ننتقل تدريجياً من نظرية لا سلطة ممكنة إلا إلهية أو ملكية وراثية، إلى النظرية المناقضة تماماً، ومن لا سلطة شرعية إلا تلك التي تعبر عن السيادة الشعبية والإرادة الجمعية. وهذا هو أصل الانتقال نحو الحداثة السياسية.
- الجتمع المدني: من الواضح أن مفهوم المجتمع المدني لا يعني هنا شيئاً آخر سوى مفهوم الرابطة الاجتماعية العادية كأساس للاجتماع، مقابل الرابطة الدينية أو الأرستقراطية التي يمكن ربطها بالعرف والتقليد واعتبارها طبيعية. ولذلك سيرتبط مفهوم المجتمع المدني منذ ذلك الوقت بمفهوم القانون والعقد الاجتماعي كتعبير عن هذا القانون المختلف عن العرف، وبالسيادة الشعبية. حيث يجسد مفهوم السياسة الحديثة بوصفها سياسة نابعة من المجتمع البشري كما هو، وليست مسقطة عليه من قبل عالم آخر. ولذلك فإن كلمتي دولة ومجتمع مدني تتطابقان تماماً هنا ولا وجود لأي فصل بينهما.

### 2.1. المفهوم في القرن التاسع عشر

ظهر الاستخدام الثاني لمفهوم المجتمع المدني في القرن التاسع عشر بشكل خاص، حيث كانت البرجوازية قد حققت ثورتها ونقلت السياسة من الميدان الديني والعرفي إلى ميدان الاجتماعي، أي جعلتها حقيقة إنسانية تعاقدية. ولم تعد المشكلة المطروحة هي تحرير السياسة عن الدين والعرف الأرستقراطي إنما إعادة بناء مفهوم السياسة الحديثة ذاته والتمييز فيه بين مستوياته المختلفة. فالسياسة الحديثة، التي ألغت المراتب الطبقية التقليدية، جعلت من الشعب كلية واحدة، أي افترضت وحدته في الوقت الذي هو كثرة وأفراد عديدين. والثورة الصناعية التي نقلت المجتمع من نمط العلاقات الحرفية والاقطاعية بين السيد وأتباعه، طرحت أيضاً مسائل جديدة على المجتمع من حيث هو عدد حيث هو عدد كبير من الأفراد يتعاملون بعضهم مع البعض ويعتمدون بعضهم على بعض، وهو معنى المجتمع المدني بالضبط.

أدت تصفية الحرفة ونشوء الاقتصاد البضاعي وتحلل الملكيات الإقطاعية وتراجع الأرستقراطية إلى انخلاع الأفراد عن رحم علاقاتهم القديمة، مما طرح بقوة مشكلة إعادة بناء هذه العلاقات، أي إعادة بناء المجتمع المدني وفهم حقيقته الجديدة في مواجهة وبموازاة الدولة الحديثة معاً. وعلى هذه المشاكل والإشكاليات النظرية سوف يرد فلاسفة القرن التاسع عشر الكبار، وفي مقدمتهم هيغل وماركس الذين سيسيطرون عملياً على فكر القرن التالي السياسي:

- المجتمع المدني لدى هيغل: ليس المجتمع المدني بالنسبة لهيغل – باعتباره مجموع الروابط القانونية والاقتصادية التي تنظم علاقات الناس الأفراد فيما بينهم وتضمن تعاونهم واعتمادهم بعضهم على البعض الآخر – سوى لحظة في صيرورة أكبر تجد تجسيدها في الدولة ذاتها، وهي في الواقع الدولة القومية. فالمجتمع المدني بوصفه مجموع هذه الروابط يمثل تقدماً نوعياً بالمقارنة مع الطبيعة الخام، لكنه لا يجد مضمونه الحقيقي إلا في الدولة التي تجسد ما هو مطلق، أي الحرية والقانون والغاية التاريخية في أجلى تجلياتها. فالمجتمع يظل على مستوى المجتمع المدني مجتمع المصالح الفردية والمشاريع الخصوصية، أي مجتمع الانقسام والتملك الفردي والصراع، ولا يجد خلاصه إلا في الدولة. ومن هذه النزعة الهيغلية إلى رفع الدولة إلى مستوى الحل والمفتاح معاً للمجتمع، سوف تتغذى الحركات والفلسفات القومية التي تضع الدولة فوق المجتمع والتي قادت إلى إضفاء صفة سلبية على مفهوم المجتمع المدني أيضاً لصالح تقديس متزايد لمفهوم الدولة.
- المجتمع المدني لدى ماركس: نظر ماركس إلى موضوع المجتمع المدني من منظار التناقض الذي كشف عنه في مسيرة الحداثة البرجوازية ذاتها ومشروعها التحرري نفسه. ففي نظر ماركس إن مشروع التحرير السياسي الذي قامت به البرجوازية بالفعل عندما نقلت المجتمعات من النظام القديم إلى النظام الحديث ليس في العمق إلا مشروع استلاب جديد. بل إن السياسة هي في قلب هذا الاستلاب وهي تجسد أعظم أشكال هذا الاستلاب. ففي اللحظة ذاتها التي خلقت فيها برجوازية الدولة كمجال للعلم، خلقت أيضاً مجال الخاص، وبذلك قضت على الفرد بالتصدع أو الانشقاق في ذاته وهويته نفسها بين ماهيتين متنابذتين ولا يمكن التوفيق بينهما، ماهيته كمواطن، وماهيته كمنتج.

فالعام (المواطنة وما تعنيه من حق المساواة) فيه يعيش حالة صدام ونزاع مستمر مع الحقيقة الإنتاجية الاجتماعية الفعلية التي تعني التفاوت والتباين الشديدين في شروط الحياة والعيش والممارسة. لذلك سوف يقول إن الحرية التي تعكسها المواطنة التسووية هنا شكلية تماماً، ولن يكون هناك تحرر حقيقي للفرد إلا عندما تتوافق شروط الحرية السياسية مع شروط الحرية الاجتماعية. وهذه هي غاية الشيوعية وبرنامجها، أي المطابقة بين العام والخاص، بين الدولة إطار الحرية، لكن الشكلية، والمجتمع المدني إطار المصالح، لكن البرجوازية الخصوصية فحسب، وذلك بتجاوز الدولة والمجتمع المدني البرجوازي الطبقي في الوقت نفسه. فكلاهما، الدولة والمجتمع البرجوازيان مجال

للاستلاب. وليست الشيوعية سوى برنامج التجاوز التاريخي هذا للدولة الديمقراطية الشكلية وللمجتمع المدني البرجوازي الرأسمالي معاً، ومثالها أن تأتي بنظام مجتمعي تكون حرية الفرد فيه شرطاً لحرية المجموع، أي يتحقق فيه الانسجام المطلق بين العام (الدولة – النظام، الحرية) والخاص (المجتمع المدني – الفردية، المصلحة) وتتعانق فيه الفردية والجمعية معاً. إن الصدع الذي أحدثته البرجوازية بين العام والخاص في كل فرد هو أصل السياسة التي يوجه إليها ماركس نقداً قوياً باعتبارها أكبر تجسيد للاستلاب البرجوازي. ولذلك فقد تصور المجتمع الشيوعي من دون دولة ومن دون سياسة، أي مجتمع متحرر من هذا الصدع منبع الاستلاب.

### 3.1. النصف الأول من القرن العشرين

نشأ الاستخدام الثالث لمفهوم المجتمع المدني في النصف الأول من القرن العشرين، وذلك في إطار احتدام الصراع الثوري وفي سياق إعادة بناء الاستراتيجية الثورية في مجتمعات أوربة الصناعية. وكان أكبر مسؤول عن تطوير هذا الاستخدام الجديد المفكر الإيطالي الشيوعي أنطونيو غرامشي. وغرامشي هو الذي ترك أكبر الأثر على المفهوم كما يستخدم اليوم، بعد استبعاد عناصر فلسفية وعقائدية كثيرة منه. حاول غرامشي أن يطرح موضوع المجتمع المدني في إطار نظرية السيطرة والهيمنة الطبقية ويستخدمه لإعادة بناء استراتيجية الثورة الشيوعية أو التحررية. وبالنسبة لغرامشي، سواء أكان ذلك في كتابه الأمير الحديث أو دفاتر السجن، هنك مجالان رئيسيان يضمنان استقرار سيطرة البرجوازية ونظامها:

المجال الأول هو مجال الدولة وما تملكه من أجهزة، وفيه تتحقق السيطرة المباشرة، أي السياسية، والمجال الثاني هو مجال المجتمع المدني وما يمثله من أحزاب ونقابات وجمعيات ووسائل إعلام ومدارس ومساجد أو كنائس الخ. وفيه تتحقق وظيفة ثانية لا بد منها لبقاء أي نظام، وهي الهيمنة الأيديولوجية والثقافية.

ولذلك لا يكفي للوصول إلى السلطة في نظر غرامشي والاحتفاظ بها السيطرة على جهاز الدولة ولكن لا بد من تحقيق الهيمنة على المجتمع، ولا يتم ذلك إلا من خلال منظمات المجتمع المدني وعبر العمل الثقافي بالدرجة الرئيسية. وفي هذا التحليل يبلور غرامشي للحزب الشيوعي الطامح إلى السيطرة استراتيجية جديدة تقول إن من الممكن البدء في معركة التغير الاجتماعى المنشود، أي الشيوعي، من استراتيجية تركز على العمل على مستوى المجتمع المدني وتعبئة المثقفين لكسب معركة الهيمنة الأيديولوجية التي ستعلب دوراً كبيراً في مساعدة الحزب على عبور الخطوة الثانية وهي السيطرة على جهاز الدولة.

ونوضح فيما يأتي مفهومي المجتمع المدني ودور الدولة عند غرامشي:

- المجتمع المدني عند غرامشي: ففي منظور غرامشي المجتمع المدني هو المجال الذي تتجلى فيه وظيفة الهيمنة الاجتماعية مقابل المجتمع السياسي أو الدولة الذي تتجلى فيه وتتحقق وظيفة السيطرة أو القيادة السياسية المباشرة. ولأن الهيمنة مرتبطة بالأيديولوجية فإن المثقفين هم أداتها. ومن هنا جاءت حاجة غرامشي لإعادة تعريف المثقف وتحليل دوره والرهان الكبير الذي وضعه عليه في التحويل الاجتماعي.
- دور الدولة عند غرامشي: لم تلغِ المراهنة على المجتمع المدني عند غرامشي دور الدولة ولا أهمية السيطرة عليها. فالعمل في إطار المجتمع المدني هو جزء من العمل في إطار الدولة وسياسة التحويل الدولية. لذلك لا قيمة للمثقف عند غرامشي ولا ضمانة لفاعليته إلا إذا كان عضوياً، أي إذا ارتبط بمشروع طبقة سياسية، تماماً كما أن الهيمنة لا قيمة لها إلا كجزء أو مستوى من مستويات العمل لتحقيق السيطرة الاجتماعية. إنها ليست منافية للسياسة ولكن مكملة لها، وإن كانت متميزة عنها. فالمجتمع المدني والمجتمع السياسي أو الدولة يسيران جنباً إلى جنب ويجمع بينهما في كل نظام وحدة ديناميكية السيطرة الاجتماعية.

### 4.1. النصف الثاني من القرن العشرين

ينطلق الاستخدام الرابع لمفهوم المجتمع المدني، الذي أعيد اكتشافه في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، من تراث غرامشي، لكن بعد تنقيته كما قلنا مما علق فيه من تراث الماركسية. كي لا يحتفظ منه إلا بفكرة المنظمات والهيئات والمؤسسات الاجتماعية الخاصة التي تعمل إلى جانب الدولة لكن ليس تحت إمرتها على تنظيم المجتمع وتنشيطه وتحقيق الاتساق فيه. وبهذا المعنى فالمقصود بالمجتمع المدني كما يستخدم اليوم تلك الشبكة الواسعة من المنظمات التي طورتها المجتمعات الحديثة في تاريخها الطويل والتي ترفد عمل الدولة. وإذا شبهنا الدولة بالعمود الفقري فالمجتمع المدني هو تلك الخلايا التي تتكون منها الأعضاء والتي ليس للجسم الاجتماعي حياة من دونها، فليس هناك أي شكل من العداء بينهما ولا اختلاف في طبيعة الوظائف وإن كان هناك اختلاف في الأدوار.

اولا – تطور مفهوم المجتمع المدني:

إن الاستخدام المعاصر لمفهوم المجتمع المدني قد مر بثلاث مراحل رئيسية:

- المرحلة الأولى هي مرحلة الانفتاح على المجتمع المدني من قبل الأحزاب والقوى والنظم السياسية بهدف ضخ دم جديد في السياسة وإضفاء طابع شعبي عليها. وقد تمثل ذلك بإدخال عناصر، أو مسؤولين، في حركات إنسانية وتنظيمات اجتماعية خيرية في التشكيلات الوزارية على سبيل تقريب السياسة من الفئات النشيطة في المجتمع ومن الجمهور الواسع الذي عف عنها في الوقت نفسه.
- المرحلة الثانية هي مرحلة التعامل مع المجتمع المدني بوصفه منظمات مستقلة موازية للدولة ومشاركة في تحقيق الكثير من المهام التي تهم هذه الأخيرة بالتراجع عنها. وهذا المفهوم يتوافق مع انتشار مفهوم العولمة والانتقال نحو مجتمع يحكم نفسه بنفسه ويتحمل هو ذاته مسؤولية إدارة معظم شؤونه الأساسية. وقد استخدمت الدول الديمقراطية مفهوم المجتمع المدني في هذه الحالة للتغطية على عجزها المتزايد عن الإيفاء بالوعود التي كانت قد قطعتها على نفسها، وتبرير الانسحاب من ميادين نشاط بقيت لفترة طويلة مرتبطة بها لكنها أصبحت مكلفة، ولا يتفق الالتزام بالاستمرار في تلبيتها على حساب الدولة مع متطلبات المنافسة التجارية الكبيرة التي يبعثها الاندراج في سوق عالمية واحدة والتنافس على التخفيض الأقصى لتكاليف الإنتاج.
- المرحلة الثالثة هي مرحلة طفرة المجتمع المدني إلى قطب قائم بذاته ومركز لقيادة وسلطة اجتماعية، على مستوى التنظيم العالمي بشكل خاص، في مواجهة القطب الذي تمثله الدولة – الدول المتآلفة في إطار سياسات العولمة والنازعة إلى الخضوع بشكل أكبر فأكبر في منطق عملها للحسابات التجارية والاقتصادية. وشيئاً فشيئاً يتكون في موازاة هذا القطب الدولي والقيادة الرسمية للعالم، تآلف المنظمات غير الحكومية والاجتماعية التي تتصدى لهذه الحسابات الاقتصادية والتجارية من منطلق إعطاء الأولوية للحسابات الاجتماعية، ولتأكيد قيم العدالة والمساواة بين الكتل البشرية. وفي هذه الحالة يطمح المجتمع المدني إلى أن يكون أداة نظرية لبلورة سياسة عالمية وبالتالي أيضاً وطنية بديلة تستند إلى مجموعة من القيم والمعايير التي ينزع السوق الرأسمالي إلى تدميرها أو تجاوزها.

### ثانيا – دور المنظمات غير الحكومية:

بدأ التفكير منذ السبعينات في العديد من البلاد الأوربية بالاهتمام بهذا القطاع الهام من النشاط الاجتماعي. وكانت أول بادرة في هذا المجال تطعيم الطاقم السياسي الوزاري بعناصر ليست من محترفي السياسة أو مناضلي الأحزاب، ولكنها قادمة مباشرة من المجتمع المدني، أي من الهيئات والمنظمات غير السياسية والعاملة في ميدان العمل الاجتماعي. وكان ذلك مخالفاً للقاعدة التقليدية التي كان الاتفاق على توزيع المناصب الوزارية فيها هو القاعدة التي يتم عليها بناء التحالفات والتآلفات الحكومية. فقد عُين أساتذة جامعة في مناصب سياسية كبيرة، وأطباء ناشطون في ميدان أطباء بلا حدود، ثم جاء دور الفنانين والكتاب ليحتلوا بعض المراكز الحكومية أيضاً. لكن الأمر لم يلبث أن تجاوز ذلك وجعل من المنظمات غير الحكومية، المحلية والدولية، فاعلاً رئيسياً إلى جانب الحكومات في تسيير الشؤون الوطنية والعالمية.

قد تبلور مفهوم المنظمات غير الحكومية من خلال الوضعية القانونية التي كرستها لهذه المنظمات الأمم المتحدة، والدور النشيط الذي أصبحت توليه لها لحل العديد من المشكلات والتحديات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. حتى ساد الاعتقاد اليوم أن هذه المنظمات هي الملجأ الوحيد في تنفيذ المشاريع الإنسانية الخيرية وغير الخيرية في مواجهة عجز الدولة وشلل أجهزتها بسبب سيطرة البيروقراطية عليها.

### ثالثا – الجتمع المدني في البلاد النامية:

من الواضح أن الحالة ليست كذلك في البلاد الفقيرة والنامية. فلا ينبع الحديث عن المجتمع المدني والدعوة لإعطاء المؤسسات الاجتماعية مسؤوليتها في العمل الاجتماعي من نضج الدولة ولا من تطويرها لفكرتها عن دورها الأنجع في المساهمة في تطوير النظام الاجتماعي، ولا عن نضج المجتمع وتوسع دائرة العمل والمبادرة والتنظيم عند أفراده ونشوء جمعيات ومؤسسات أهلية قادرة على التدخل لمعالجة الكثير من القضايا والمشكلات الاجتماعية، ولكن ربما بالعكس من ذلك تماما. إن منبع الحديث المتزايد عن المجتمع المدني هو انهيار الدولة، وفقدانها لأي دور مركزي على الطريقة الكلاسيكية، أي بناء الأمة، وعجزها عن بلورة دور جديد لها يتماشى مع حاجات المجتمع الذي يتطور بمعزل عنها منذ فترة طويلة في تصوراته ومطالبه. كما هو تفكك المجتمع نفسه وافتقاره إلى أي مؤسسات تسمح له بممارسة دوره أو تأكيد وجوده في وجه السلطة المتحولة إلى سلطة أصحاب المصالح الخاصة وفي وجه الفوضى والدمار الذين يتهددان مصيره ومستقبله.

إن الاستخدام السائد اليوم في العالم الثالث المفتقر لهذا المفهوم هو استخدام الشعار الذي يرفع للتغطية على غياب المضمون، أي على الفراغ الذي يسم الدولة والمجتمع المدني معا، ويلغي أي وجود فعلي للسياسة مهما كانت طبيعتها وشكل ممارستها، والذي يدفع النخب المعارضة في هذه البلدان إلى استخدام مفهوم المجتمع المدني كعقيدة جديدة في عملية إعادة تأهيل من الدرجة الثانية للسياسة، أي كمصدر لمشروعية عمل سياسي جديد تريد النخبة أن يرتبط بها ويميزها عن النخب السياسية البيروقراطية الحاكمة.

## 2. المجتمع المدني

### 1.2. تعريفه ومقوماته ومكوناته:

اولا – تعريف المجتمع المدني: المجتمع المدني هو مجموعة التنظيمات التطوعية الحرة التي تملأ المجال العام بين الأسرة والدولة، أي بين مؤسسات القرابة ومؤسسات الدولة التي لا مجال للاختيار في عضويتها. تنشأ هذه التنظيمات التطوعية الحرة لتحقيق مصالح أفرادها، أو لتقديم خدمات للمواطنين أو لممارسة أنشطة إنسانية منتوعة، وتلتزم في وجودها ونشاطها بقع ومعايير الاحترام والتراضي والتسامح والمشاركة والإدارة السلمية للتنوع والاختلاف.

ثانيا – مقومات المجتمع المدني: وللمجتمع المدني، بهذا المفهوم، أربعة مقومات أساسية هي:

- الفعل الإرادي الحر أو التطوعي
- التواجد في شكل منظمات
- قبول التنوع والاختلاف بين الذات والآخرين
- عدم السعي للوصول إلى السلطة

ثالثا – مكونات المجتمع المدني: يدخل في دائرة مؤسسات المجتمع المدني طبقاً لهذا التعريف أي كيان مجتمعي منظم يقوم على العضوية المنتظمة تبعا للغرض العام أو المهنة أو العمل التطوعي، ولا تستند فيه العضوية على عوامل الوراثة وروابط الهم والولاءات الأولية مثل الأسرة والعشيرة والطائفة والقبيلة، وبالتالي فإن أهم مكونات المجتمع المدني هي:

- النقابات المهنية
- النقابات العمالية
- الحركات الاجتماعية
- الجمعيات التعاونية
- الجمعيات الأهلية
- نوادي هيئات التدريس بالجامعات
- النوادي الرياضية والاجتماعية
- مراكز الشباب والاتحادات الطلابية
- الغرف التجارية والصناعية وجماعات رجال الأعمال
- المنظمات غير الحكومية الدفاعية والتنموية كمراكز حقوق الإنسان والمرأة والتنمية والبيئة.
- الصحافة الحرة وأجهزة الإعلام والنشر
- مراكز البحوث والدراسات والجمعيات الثقافية

وهناك من يضيف إلى هذه المنظمات هيئات تقليدية كالطرق الصوفية والأوقاف، التي كانت بمثابة أساس المجتمع المدني في المجتمعات العربية منذ مئات السنين قبل ظهور المنظمات الحديثة.

## 3. الاختراق الخارجي للمجتمع المدني

اولا – العولمة الرأسمالية: لاشك في أن العولمة الرأسمالية هي أهم الظواهر العالمية المعاصرة وأهمها تأثيراً في حياة الشعوب ومستقبلها. ومن أبرز مظاهر العولمة إعادة هيكلة الرأسمالية المعاصرة بدمج اقتصاديات مختلف بلدان العالم في الاقتصاد الرأسمالي وفق الشروط التي وضعتها رأسمالية المراكز المتقدمة على أساس إعلاء شأن السوق وآلياته وفرض حرية انتقال رؤوس الأموال والاستثمارات والسلع والخدمات دون أي قيود أو عقوبات تحول دون تطبيق الأفكار الليبرالية الجديدة التي تشكل العنصر الأيديولوجي المسيطر والمركزي في عملية إعادة الهيكلة هذه التي تجري على امتداد العالم.

ثانيا – سياسات التكيف الهيكلي: عانت دول الجنوب، ومن ضمنها الأقطار العربية، من مشاكل اقتصادية واجتماعية حادة نتيجة تطبيق السياسات التي أوصت بها المؤسسات الرأسمالية الدولية كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، وهي السياسات المعروفة بالتكيف الهيكلي.

ثالثا – العولمة والمجتمع المدني: حرصت قوى العولمة على توظيف المجتمع المدني لتخفيف حدة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن تطبيق سياسات التكيف الهيكلي، وذلك بحيث يصبح المجتمع المدني بديلاً للدولة الوطنية التي تنسحب من أدوارها التقليدية ومسئولياتها في دعم الفئات الفقيرة وتوزيع الدخل لصالح الطبقات العاملة والكادحة والفئات الضعيفة، وتهدف قوى العولمة من دعمها للمجتمع المدني أن يقوم بدور البديل للدولة في مجال دعم الفئات الفقيرة، وتستخدم كملطف لحدة المشاكل الناجمة عن تطبيق سياسات التكيف الهيكلي مثل الفقر والبطالة فيكون إطاراً يعبىء شرائح وقوى اجتماعية تتحمل عبء مواجهة هذه المشاكل، وسيكون ذلك بالقطع على حساب دوره في دعم التطور الديمقراطي للبلاد.

تؤكد التقارير السنوية للبنك الدولي هذه النظرة:

1. تقرير 1995: يشير البنك في تقرير 1995 إلى المجتمع المدني كظاهرة اقتصادية باعتباره القوة المحركة بالنسبة لنشاطات ونمو القطاع الخاص، من هنا تأتي أهميته لأهداف التكيف الهيكلي فيما يتعلق بتقلص دور الدولة، وخصخصة الخيرات العامة والسلع الاجتماعية، ونمو القطاع الخاص الذي تعرض للتقهقر في مراحل سابقة، ويؤكد البنك الدولي أنه من المأمول مع الانفتاح السياسي أن تحدث نقلة من مرحلة التسامح مع القطاع الخاص إلى مرحلة التحمس له، بوصفه محرك النمو والمحدد الرئيسي لمستقبل البلاد.

2. تقرير 1998: يشير البنك في تقرير 1998 إلى أن القطاع المستقل عن الدولة أو غير الحكومي والذي يضم أنواعاً مختلفة من المنظمات غير الحكومية يلعب دوراً حاسماً في التصدي للمظاهر التي تحول دون تطور القطاع الخاص. وينظر البنك الدولي إلى المجتمع المدني وفق ما يستطيع أن يقوم به من مساعدة في تعبئة الموارد بالطرق التي تعجز الدولة عن القيام بها وباعتباره دولة الظل التي تقوم بوظائف تقليدية للدولة مثل إنشاء وإدارة المدارس ومراكز الرعاية الصحية ومشروعات الأشغال العامة كشق الطرف والترع.
3. تعريف البنك للمنظمات الأهلية: كما يؤكد تعريف البنك للمنظمات الأهلية إصراره على دورها كملطف لحدة المشاكل وليس باعتبارها الوسيط بين المجتمع والدولة أو باعتبارها إطاراً مناسباً للمساهمة في التحول الديمقراطي للمجتمع أو لإمكانية قيامها بدور تغييري تنموي شامل، يتضح ذلك من تعريف البنك الدولي لها بأنها مؤسسات وجماعات متنوعة الاهتمامات مستقلة كليا أو جزئياً عن الحكومات، وتتسم بالعمل الإنساني والتعاون وليس لديها أهداف تجارية. ويساعد على تحقيق أهداف المؤسسات الرأسمالية الدولية – في توظيف مؤسسات المجتمع المدني لخدمة سياساتها – بناء منظمات غير حكومية عابرة للقوميات ترتبط بشبكات عالمية تساهم في تمويل أنشطة المنطمات الأهلية وغير الحكومية الوطنية وفق أجندة الرأسمالية العالمية بدلا من أن تكون أولوياتها طبقاً لاحتياجات المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

## 4. دور المجتمع المدني في بناء الديمقراطية

هناك صلة قوية بين المجتمع المدني والتحول الديمقراطي، فالديمقراطية هي مجموعة من قواعد الحكم ومؤسساته التي تُنظَّم من خلالها الإدارة السلمية للصراع في المجتمع بين الجماعات المتنافسة أو المصالح المتضاربة، وهذا هو نفس الأساس المعياري الذي يقوم عليه المجتمع المدني، حيث نلاحظ أن مؤسسات المجتمع المدني هي من أهم قنوات المشاركة الشعبية، ورغم أنها لا تمارس نشاطاً سياسياً مباشراً ولا تسعى للوصول إلى السلطة السياسية، إلا أن أعضاءها يعتبرون أكثر قطاعات المجتمع استعداداً للانخراط في الأنشطة الديمقراطية السياسية. وبالإضافة لهذا فإن الإدارة السلمية للصراع والمنافسة هي جوهر مفهوم المجتمع المدني، وكل ما فعله مستخدمو المفهوم من المحدثين هو تنقيته أو توسيع نطاق مظاهره لتتوافق مع المجتمعات المعاصرة المعقدة. لا يمكن تحقيق الديمقراطية السياسية في أي مجتمع ما لم تتحقق ديمقراطية منظمات المجتمع المدني أولاً باعتبارها البنية التحتية للديمقراطية في المجتمع بما تضمه من نقابات وتعاونيات وجمعيات أهلية وروابط ومنظمات نسائية وشبابية. الخ. حيث توفر هذه المؤسسات في حياتها الداخلية فرصة كبيرة لتربية ملايين المواطنين ديمقراطياً، وتدريبهم عملياً لاكتساب الخبرة اللازمة

للممارسة الديمقراطية في المجتمع الأكبر بما تتيحه لعضويتها من مجالات واسعة للممارسة والتربية الديمقراطية من خلال:

- المشاركة التطوعية في العمل العام
- ممارسة نشاط جماعي في إطار حقوق وواجبات محددة للعضوية
- التعبير عن الرأي والاستماع إلى الرأي الأخر والمشاركة في اتخاذ القرار
- المشاركة في الانتخابات لاختيار قيادات المؤسسة أو الجمعية وقبول نتائج الانتخابات سواء كانت موافقة لرأي العضو أم لا
- المشاركة في تحديد أهداف النشاط وأولوياته والرقابة على الأداء وتقييمه

وقصارى القول يقوم المجتمع المدني بدوره في بناء الديمقراطية على مستويين:

- المستوى الأول هو الدور الثقافي والتعبوي الذي يتحقق من خلال نهوض مؤسسات المجتمع المدني بوظائفها الأساسية في المجتمع
- المستوى الثاني هو الدور التربوي الذي يتحقق من خلال الممارسة الديمقراطية والتدريب العملي على الأسس الديمقراطية في الحياة الداخلية لمؤسسات المجتمع المدني

## 5. وظائف المجتمع المدني وعلاقتها بالديمقراطية

1. المجتمع المدني من منظور الطبقات الحاكمة: تنظر الطبقات الحاكمة إلى المجتمع المدني على أنه وسيلتها لاستكمال سيطرتها على المجتمع من خلال آليات الهيمنة الأيديولوجية الثقافية حيث لا تسعفها آلية القمع باستخدام أجهزة الدولة في ضمان السيطرة الكاملة على المجتمع.
2. المجتمع المدني من وجهة منظور الطبقات المحكومة: في حين تنظر الطبقات المحكومة إلى المجتمع المدني على أنه ساحة للصراع تستطيع من خلاله أن ترسي أساساً لهيمنة مضادة تمكنها من توسيع نطاق تأثيرها في المجتمع، فضلاً عن توسيع الهامش المتاح لها للحركة والتأثير وبلورة آليات ديمقراطية تسمح بتسوية المنازعات سلمياً، وتعمق عملية التطور الديمقراطي للمجتمع

وقد تبلورت في هذا الإطار خمس وظائف أساسية تقوم بها مؤسسات المجتمع المدني لتحقيق هذا الدور هي:

- تجميع المصالح: يتم من خلال مؤسسات المجتمع المدني بلورة مواقف جماعية من القضايا والتحديات التي تواجه أعضاءها، وتمكنهم من التحرك جماعياً لحل مشاكلهم وضمان مصالحهم على أساس هذه المواقف الجماعية، وتُمارس هذه الوظيفة بشكل أساسي من خلال النقابات العمالية والمهنية والغرف التجارية والصناعية وجماعات رجال الأعمال وسائر المنظمات الدفاعية. يتعلم الأعضاء من خلال هذه الوظيفة كيفية بحث مشاكلهم ودراسة الأوضاع القائمة في المجتمع وتحديد

كيفية الحفاظ على مصالحهم في مواجهة مصالح فئات أخرى وصياغة مطالب محددة قد تكون جزئية في بعض الأحيان أو تتضمنها برامج متكاملة.

- حسم وحل الصراعات: حيث يتم من خلال مؤسسات المجتمع المدني حل معظم النزاعات الداخلية بين أعضائها بوسائل ودية دون اللجوء إلى الدولة وأجهزتها البيروقراطية، وبذلك فإن مؤسسات المجتمع المدني تجنب أعضاءها المشقة وتوفر عليهم الجهد والوقت، وتجنبهم كثيراً من المشاكل التي تترتب على العجز عن حل ما ينشأ بينهم من منازعات، وتسهم بذلك في توطيد وتقوية أسس التضامن الجماعي فيما بينهم.
- زيادة الثروة وتحسين الأوضاع: بمعنى القدرة على توفر الفرص لممارسة نشاط يؤدى إلى زيادة الدخل من خلال هذه المؤسسات نفسها، مثل المشروعات التي تنفذها الجمعيات التعاونية الإنتاجية والنشاط الذي تقوم به الجمعيات التعاونية الاستهلاكية والمشروعات الصغيرة والمدرة للدخل التي تقوم بها الجمعيات الأهلية، وقد أثبتت الدراسات الميدانية أن تمتع المواطنين بأوضاع اقتصادية جيدة وقدرتهم على تأمين مستوى دخل مناسب لأسرهم يساعدهم على ممارسة النشاط السياسي والاهتمام بالقضايا العامة للمجتمع.
- إفراز القيادات الجديدة: يتطور المجتمع وتتضح حركته بقدر ما يتوفر له من قيادات مؤهلة للسير به إلى الأمام باستمرار. ولكي يواصل المجتمع تقدمه فإنه بحاجة دائمة لإعداد قيادات جديدة من الأجيال المتتالية. يبدأ تكوين القيادات الجديدة داخل مؤسسات المجتمع المدني في النقابات المهنية والعمالية والجمعيات الأهلية والتعاونيات والمنظمات الشبابية والنسائية الخ. حيث تعتبر مؤسسات المجتمع المدني في الحقيقة المخزن الذي لا ينضب للقيادات الجديدة، ومصدراً متجدداً لإمداد المجتمع بها، فهي تجتذب المواطنين إلى عضويتها، وتمكنهم من اكتشاف قدراتهم من خلال النشاط الجماعي، وتوفر لهم سبل الممارسة القيادية من خلال المسئوليات التي توكلها لهم، وتقدم لهم الخبرة الضرورية لممارسة هذه المسؤولية.
- إشاعة ثقافة مدنية ديمقراطية: من أهم الوظائف التي تقوم بها مؤسسات المجتمع المدني إشاعة ثقافة مدنية ترسي في المجتمع احترام قيم النزوع للعمل الطوعي، والعمل الجماعي، وقبول الاختلاف والتنوع بين الذات والآخر، وإدارة الخلاف بوسائل سلمية في ضوء قيم الاحترام والتسامح والتعاون والتنافس والصراع السلمي، مع الالتزام بالمحاسبة العامة والشفافية، وما يترتب على هذا كله من تأكيد قيم المبادرة الذاتية وثقافة بناء المؤسسات، وهذه القيم هي في مجملها قيم الديمقراطية.

## 6. أنواع المجتمع المدني

1. المجتمع المدني النخبوي: تكتفي القوى الرأسمالية والفئات الحاكمة بوجود مؤسسات للمجتمع المدني في إطار نخبوي تقوم بدورها في تلطيف حدة المشاكل الناجمة عن سياسات التكيف الهيكلي والتحول إلى اقتصاد السوق والاندماج في الاقتصاد الرأسمالي العالمي وفق الشروط التي تضعها المراكز الرأسمالية المتقدمة، وينحصر دور هذه المنظمات من وجهة نظر الفئات الحاكمة والقوى الرأسمالية في تقديم الرعاية للفقراء والمحتاجين، وإشباع حاجات خدمية لفئات اجتماعية معينة، بما لا يؤدي إلى تغيير الأوضاع، بل يعيد إنتاج الأوضاع القائمة بما فيها من فقر وبطالة وتهميش وافتقاد للعدالة، وفي هذه الحالة فإن مؤسسات المجتمع المدني النخبوية لن تزعج الفئات الحاكمة ولن تلعب دوراً في تغيير الأوضاع القائمة من خلال المساهمة الفعالة بدور ديمقراطي في المجتمع. من هنا فإن القوى الديمقراطية والتقدمية يجب أن تدفع في اتجاه اكتساب مؤسسات المجتمع المدني طابعاً شعبياً يساعدها على القيام بدور تعبوي تغييري تحتاجه مجتمعاتنا وتتمكن مؤسسات المجتمع المدني من خلاله من المساهمة في عملية التحول الاجتماعي والسياسي للمجتمع، والمشاركة بشكل جماعي (كمؤسسات) في صياغة السياسات العامة والضغط من أجل تعديلها بما يحقق مصالح الأغلبية ويكفل مشاركتها السياسية تدعيماً للديمقراطية.

2. المجتمع المدني الشعبي: يتطلب دعم الطابع الشعبي للمجتمع المدني الاهتمام أكثر بالمنظمات الشعبية ذات الجذور العميقة في المجتمع التي تهملها حالياً المنظمات غير الحكومية المنشأة حديثاً، وتشمل المنظمات الشعبية تحديداً النقابات المهنية والعمالية، والمنظمات الفلاحية، والتعاونيات، واتحادات الطلاب، ومنظمات الحرفيين والمنظمات المهنية وتنظيمات الخدمة الاجتماعية، ويوفر هذا التنسيق استفادة المنظمات غير الحكومية وسائر مكونات المجتمع المدني من التراث الطويل والخبرات الواسعة للحركة النقابية في مجالات التعبئة وحشد القوى، وما لديها من الوسائل والكوادر المدربة على ذلك، وخبراتها الهامة في المجال المطلبي، وتتوفر لدى المنظمات الأخرى التعاونية والاجتماعية والطلابية والفلاحية خبرات متنوعة وإمكانيات بشرية تطوعية يمكن أن تستفيد منها المنظمات الأخرى حديثة النشأة لاكتساب القدرة على التأثير والاستناد إلى قاعدة اجتماعية واسعة، وامتلاك خبرات جديدة في مختلف المجالات، وسوف يساعدها ذلك على تجاوز وضعها الحالي كمنظمات منعزلة عن بعضها تعمل في إطار أهداف جزئية بحيث تتجه إلى إقامة تحالفات مع المنظمات الأخرى العاملة في نفس المجال مثل حقوق الإنسان والمرأة والبيئة والتنمية الخ، وتجاوز وضعها النخبوي إلى آفاق جماهيرية لها عمق شعبي كاف. بهذا التوجه يمكن أن يقوم المجتمع المدني بدوره المأمول في بناء الديمقراطية، التي يلتقي معها في إطار نسق مشترك من القيم.

## 7. المفهوم المركزي للدولة

### 1.7. عبادة الدولة

نشأ الرهان المكثف على الدولة والتمركز من حولها منذ القرن التاسع عشر، في أوربة أولاً ثم في جميع أنحاء العالم فيما بعد، بسبب الآمال والأوهام الكبيرة التي كانت تحيط بعمل هذه الدولة وقدراتها وإمكاناتها معاً. فقد ساد هذا الاعتقاد، منذ هيغل الذي نظر إلى الدولة القومية باعتبارها التعبير الأسمى عن وصول التاريخ إلى غاياته ومطابقة الوعي لذاته، حتى النظم الشمولية التي وجدت فيها الأداة المثلى للتحرر من جميع الإكراهات التاريخية والوصول بالمجتمعات إلى أعلى قمة في السيادة والحرية. وقد نشأت عبادة الدولة في العصر الحديث في جميع المجتمعات انطلاقاً من الإيمان بقدرتها اللامحدودة والاستثنائية على الإنجاز والتحقيق. وقد استخدمت الدولة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين كأداة رئيسية للتغيير والتحديث وإعادة صوغ النظم، بل والمجتمعات البشرية وتكوينها.

ارتبط نشوء الدولة الحديثة بتنامي الوعود الاستثنائية بالحرية والعدالة والمساواة والأخوة البشرية. وتعمقت شرعية هذه الدولة وزاد الولاء لها والتمسك بها بقدر ما برهنت عبر التاريخ أنها قادرة على الوفاء بوعودها أو ببعضها على الأقل. فالدولة الحديثة القومية، التي نشأت في الغرب وتوسعت نحو أمريكا واليابان، هي الإطار الذي نمت فيه الحريات السياسية والفكرية وتعززت فيه مفاهيم الدولة القانونية والمساواتية، وارتبطت به قيم العدالة والتضامن الوطني والاجتماعي والأهلي معاً. كم تعتبر الدولة الحديثة أحد مفاهيم عقائد التقدم التاريخي الرئيسية التي نمت منذ عصر الأنوار وتطورت مع النظريات التي نشأت عنها، في التاريخ والحضارة والمجتمع والفرد معاً.

كان لفكرة الدولة الأمة، أي القومية، الدور الأول في الخروج من أنماط الاستبداد والحكم المطلق التي عرفتها حقبة القرون الوسطى في العالم أجمع وتدشين حقبة جديدة في الحياة السياسية للمجتمعات اتسمت بالتحويل الديمقراطي لمؤسسات السلطة العمومية. وقد استغرقت عملية التحويل الديمقراطي للدولة ثلاثة قرون منذ القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين. والمقصود بالتحويل الديمقراطي للدولة هنا هو إعادة بناء مؤسسات الدولة بما يجعلها تستجيب بشكل أكبر لإرادة المجتمع وتتفاعل معه وترد على طلباته، أي تنحو إلى الاقتراب منه بعد أن بقيت لقرون طويلة مستقلة تماما عنه وقائمة فوقه ومواجهة له. وقد استدعى هذا التقرب من المجتمع قيام الدولة، أو بالأحرى النخب الحديثة المسؤولة عن تسييرها، بعملية معقدة تتضمن في الوقت نفسه ثلاث طفرات رئيسية:

1. تتعلق بتأكيد السيادة الشعبية، أي حتمية صدور السلطة واتخاذ القرارات العامة عن المجتمع نفسه ممثلاً بنوابه أو ممثليه الشرعيين.
2. تغيير قواعد ممارسة السلطة العمومية وإدخال مبدأ التداول والشفافية والمحاسبة الشعبية، وبالتالي تشريع وجود المعارضة والتعددية السياسية.
3. تحقيق مبدأ الفصل بين السلطات الثلاث الرئيسية، التنفيذية والتشريعية والقضائية، حرصاً على منع مراكمة السلطة العمومية كلها في يد فرد أو فئة أو مؤسسة واحدة، وقطع الطريق على الاستبداد والديكتاتورية وموازنة السلطات فيما بينها. وقد نجم عن كل ذلك ضرورة إعادة بناء مؤسسات الدولة الجديدة، التي أصبحنا نسميها الدولة الحديثة، بما يحقق هذه الأهداف، أي تمثيل السلطة السياسية للرأي العام وضمان مراقبته الدائمة لها، وخلق شروط تداول السلطة ووجود معارضة شرعية وإلغاء فرص تكوين سلطة مطلقة لا حدود لها، تُخضِع لإرادتها الخاصة جميع وسائل الإدارة والقضاء والقانون.

إن ديمقراطية الدولة وممارسة السلطة العامة الذي شكل جوهر رسالة النزعة القومية الكلاسيكية لم يكن يعني شيئاً آخر سوى بناء مفهوم جديد للفرد بعلاقته بالمجتمع، أي كإنسان مدني، هو الفرد المواطن مقابل مفهوم الفرد التابع أو الرعية. فالمواطَنَة التي تمثل أساس وروح الفكرة القومية الحديثة كانت الثمن الضروري والحتمي لتكوين ولاء جديد يمحو الولاءات العصبية السابقة ويسمح بإقامة مجتمعات مدنية كبرى قادرة على خلق شروط تطور الحضارة الصناعية والتقنية. وهذه المجتمعات أو الجماعات الجديدة المشتركة في ولاء واحد والمتضامنة في إطار الدولة، وليس الكنيسة أو العصبية القروية والعشائرية، ليست سوى الأمة بالمعنى الحديث للكلمة

## 2.7. انهيار مركزية الدولة

اولا – العولمة وتراجع مكانة الدولة: عندما يثير الباحثون اليوم مسألة تراجع مكانة الدولة في الحقبة الراهنة بالمقارنة مع موقعها من العملية الاجتماعية في الحقبة الكلاسيكية لبناء الدولة الحديثة، فأول ما يشيرون إليه كمصدر لهذا التراجع هو العولمة.

فبما تخلقه العولمة من فضاءات تتجاوز سلطة الدولة القومية، وبما تستخدمه من تقنيات تضعف سيطرة هذه الدولة على مواطنيها، تنشئ هذه العولمة وضعية جديدة تجد فيها الدولة نفسها فاعلاً ضعيفاً مقابل الفاعلين الجدد الكبار الذين يحتلون اليوم ميادين النشاط الإنساني في كل المجتمعات، أي الشركات العالمية العابرة للحدود والقوميات والمؤسسات الدولية القائمة فوق الدول والأوطان.

ثانيا – تعريف العولمة: إن العولمة، بمعنى تبني سياسات الفتح الواسع والمطلق للحدود أمام التبادل التجاري والثقافي والبشري بما يجعل من البشرية مجتمعاً واحداً أو بالأحرى سوقاً حرة واحدة، ليست سوى أسطورة أو قيدة سياسية تريد أن توهم الناس بوجود عكس ما هو قائم في الواقع.

لم ولن تسقط الحدود على الإطلاق بين الدول والمجتمعات، خاصة بين المجتمعات الفقيرة والغنية، ولن تسقط أبداً في المستقبل، بل إنها سوف تزداد قوة وعمقاً. وحماية هذه الحدود وتعزيزها هو الضمانة الرئيسية للتشغيل الناجع من وجهة نظر الدول الصناعية، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، لسياسات العولمة. وفي هذه الحالة لا تستخدم العولمة بمعنى الزوال الفعلي للحدود ولكن بمعناها الحقيقي وهو إجبار الدول الضعيفة على فتح الحدود أمام الدول الصناعية الكبرى وتكوين سوق اقتصادية حرة بالنسبة للكبار فقط لأنهم قادرون بسهولة على اختراقها، لكنها سوق مغلقة تماماً بالنسبة للدول الصغيرة التي ليس لديها أي أمل بمنافسة الدول الصناعية الكبرى في عقر دارها.

ثالثا – تغير دور الدولة: إن ما نحن بصدده هنا ليس كما يشاع تراجع دور الدولة أو انهيار مكانتها، ولكن تبادل نظرتها لدورها في المجتمع ونوعية الخدمات والمكاسب الجديدة التي تستطيع وينبغي أن تقدمها له وأسلوب عملها.

تنسحب الدولة من بعض المواقع لتحتل مواقع جديدة، وتتبذ دورها السابق الذي كان يجعل من السلطة العمومية مركز وصاية على المجتمع لتبنى دور المنظِّم والمدير والمرشّد والمنسق بين نشاطات المجتمع وفئاته وقواه الفاعلة المتعددة. وهذا يعني أن الدولة أصبحت مركزية في ترشيد النشاطات الاجتماعية المختلفة لا في القيام بها كما كان عليه الحال في السابق.

# الفصل العاشر: الدين والمجتمع

## الكلمات المفتاحية

الدين، الإلهي، الدنيوي، العقائد، الشرائع، المجمع الديني، دين الدولة، الدين المدين، الرموز الدينية، الشعائر والطقوس، المعتقدات، القيم، العلوم الكونية، التحديث، روح الرأسمالية، الأخلاق البروتستانتية، اليهودية، الإله، الله، الآلهة، الكتب المقدسة، المسيحية، المسيحية الحديثة، الإسلام، أركان الإسلام، الهندوسية، البوذية، الكونفوشية، الشنتو، الديانات التوحيدية، تعدد الآلهة، تناسخ الأرواح، الطبقات، الكارما، النيرفانا، الأناتمان، الأخلاق، العناصر الخمسة، الكامي، العبادة.

## ملخص

يتعرف الطلاب في هذه الوحدة على مفهوم الدين بشكل عام، وإلى وجهات النظر التي تتبناها النظريات الاجتماعية الأساسية فيما يتعلق بالقضايا الدينية، كما تستعرض هذه الوحدة الأديان الأكثر انتشاراً في العالم.

## أهداف تعليمية

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

1. تعريف الدين
2. النظريات الاجتماعية والدين
   - النظرية الوظيفية
   - نظرية التفاعل الرمزي
   - نظرية الصراع الطبقي
3. الدين وروح الرأسمالية
4. الأديان الكبرى في العالم

## المخطط

- تعريف الدين
- النظريات الاجتماعية والدين
- الدين وروح الرأسمالية
- أديان العالم الكبرى

## 1. تعريف الدين

يركز علماء الاجتماع المهتمين بدراسة الدين على تحليل العلاقة بين المجتمع والدين وتحديد طبيعة الدور الذي يلعبه هذا الأخير في حياة أفراد المجتمع، ولا يهدف هؤلاء العلماء، على العكس مما قد يعتقد البعض، إلى تحديد أسبقية أو أفضلية دين على آخر على الإطلاق، أو إلى إثبات أو نفي صدق إيمان أحد ما أو مجموعة ما أو أصحاب دين ما.

وكما أنه لا توجد أي وسيلة علمية لقياس مقدار الفضيلة في سلوك أي فرد من أفراد المجتمع، كذلك لا توجد أي طريقة لتحديد فيما إذا كان المرء مؤمناً بالدين الحق أم لا، وفي الحقيقة فإن الدين هو مسألة إيمان، في حين أن علماء الاجتماع يهتمون بدراسة القضايا التجريبية، أي تلك المسائل التي يمكنهم ملاحظتها وقياسها وفق أسس علمية.

وهكذا فإن علماء الاجتماع يركزون عند دراستهم للدين على تأثير المعتقدات والممارسات الدينية على حياة أفراد المجتمع، كما يحللون ارتباط الأديان بنظم التمييز الطبقي، إلا أن هؤلاء العلماء غير مخولين بأي شكل من الأشكال بأن يقيموا تعاليم هذا الدين أو ذاك.

أبحاث إميل دوركهايم: قام إميل دوركهايم عام 1912 بنشر كتابه الشهير الأشكال الأساسية للحياة الدينية، وقد حاول دوركهايم في هذا الكتاب أن يحدد العناصر الأساسية المشتركة بين جميع الأديان، إلا أن دوركهايم وبعد دراسة معظم الأديان المنتشرة حول العالم، لم يستطع إيجاد أي قاسم مشترك، سواء على صعيد العقيدة أو الشريعة، بين جميع أديان الأرض. إلا أنه وجد على أية حال، أن أتباع كل دين من الأديان يشكلون جماعة تربط بين أفراده عقائد وتشريعات هذا الدين، كما لاحظ دوركهايم فضلاً عن ذلك أن جميع الأديان تميز بشكل أو بآخر بين ما هو إلهي وما هو دنيوي في إطار عقائدها وشرائعها، وقد استخدم دوركهايم مصطلح الإلهي، للإشارة إلى جميع مظاهر الحياة المرتبطة بالقوى ما فوق الطبيعية التي تلهم الأفراد الرهبة من الله، تبجيله، احترامه وحتى الخوف منه. أما مصطلح الدنيوي فقد استخدمه دوركهايم للإشارة إلى جميع مظاهر الحياة التي لا تهتم بالدين أو بأهداف الدين، إنما هي على العكس، جزء من حياة الفرد اليومية. وقد عرف دوركهايم الدين بالعناصر الثلاث التالية:

- العقائد: أي الأمور الإلهية.
- الشرائع: أي الأمور المتمحورة حول الأمور الإلهية.
- المجمع الأخلاقي: يتشكل نتيجة عقائد وشرائع الجماعة.

## 2. النظريات الاجتماعية والدين

### 1.2. النظرية الوظيفية

يهتم أصحاب النظرية الوظيفية بالدين كظاهرة عالمية تلبي حاجات الإنسان الأساسية، ويعتبر أصحاب النظرية الوظيفية أن الدين يقوم بوظائف هامة في حياة الإنسان أبرزها:

أولاً – الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بالمعاني المطلقة: تهتم مختلف الأديان حول العالم بتقديم إجابات مقنعة للأسئلة المتعلقة بالمعاني المطلقة – مثل ما الهدف من الحياة، لماذا يعاني البشر، ما الذي يحدث بعد الموت وغيرها من الأسئلة الفلسفية. توفر هذه الأجوبة لبني البشر إحساساً بأن هناك هدفاً ما وراء وجودهم، حيث ينظر المؤمنون إلى كل ما يحدث في حياتهم على أنه جزء من خطة إلهية محكمة.

ثانياً – الراحة النفسية: توفر الإجابات التي يطرحها الدين على الأسئلة المتعلقة بالمعاني المطلقة شيئاً من الراحة النفسية والاستقرار العاطفي للمؤمنين، وذلك من حيث أنهم يؤمنون بأن هناك هدفاً سامياً وراء وجودهم على هذه الأرض، وحتى المعاناة التي قد يعيشونها إنما تحدث لهدف، كما أن الموت إنما هو مجرد انتقال إلى حياة أخرى.

ثالثاً – التكافل الاجتماعي: توحد عقائد وشرائع كل دين المؤمنين بهذا الدين في جماعة واحدة ذات قيم ووجهات نظر مشتركة.

رابعاً – تعاليم الحياة اليومية: توفر تعاليم الأديان توجيهات تشمل كافة مناحي الحياة اليومية. ويمكن قياس مدى تأثير هذه التعليمات على المؤمنين الذين يتبعونها.

خامساً – السيطرة الاجتماعية: لا يقتصر دور الدين على هداية البشر في أمور حياتهم اليومية، بل يقوم الدين كذلك بالتحكم بسلوك البشر والسيطرة عليه. ورغم أنه غالباً ما يقتصر تطبيق معايير كل دين على أتباعه فقط، إلا أن بعض هذه المعايير والضوابط تمتد لتشمل بقية أفراد المجتمع الذين لا يؤمنون بهذا الدين.

سادساً – التكيف: يمكن للدين أن يساعد المؤمنين به على التكيف مع البيئات الجديدة التي قد يضطرون إلى الحياة فيها، حيث تساعدهم الشعائر الدينية على الحفاظ على لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم مع اندماجهم في مجتمعاتهم الجديدة.

سابعاً – دعم الحكومات: تقدم معظم الأديان دعماً لا غنى عنه في بعض الأحيان لمختلف الحكومات حول العالم، والتي عليها بالمقابل أن توفر جو الأمان والاستقرار المناسبين لانتشار هذا الدين أو ذاك في المناطق الواقعة تحت سلطتها.

توفر بعض الحكومات دعمها المطلق لدين محدد وتحرم بقية الأديان الأخرى. يعرف مثل هذا الدين المدعوم بشكل مطلق من السلطة بدين الدولة. في حين لا تميز حكومات أخرى بين هذا الدين أو ذاك إلا أن المعتقدات الدينية السائدة بين أفراد الأمة قد تؤثر على هذه الحكومات بطريقة أو بأخرى. يدعى مثل هذا النمط من الأديان، أي تلك التي لا تفرضها الحكومة فرضاً على شعوبها إنما يمتد تأثيرها بشكل غير مباشر إلى الحكومة بالدين المدني.

ثامناً – التغيير الاجتماعي: على الرغم من أننا غالباً ما ننظر إلى الدين على أنه رافض للتغيير الاجتماعي، إلا أن الدين قد يكون في بعض الأحيان أساسياً في عملية التغيير الاجتماعي، ومن الأمثلة الشهيرة التي يمكننا سردها في هذا السياق الكنائس الأفرو– أمريكية ولاسيما كنيسة مارتن لوثر كينغ (Martin Luther King) التي لعبت الدور الأبرز في حركة الحقوق المدنية التي شهدتها الولايات المتحدة في الستينات من القرن الماضي.

## 2.2. نظرية التفاعل الرمزي

تركز نظرية التفاعل الرمزي على معنى الوجود بالنسبة للبشر، وتحديداً كيف يسخر البشر مختلف الرموز في التعبير عن هذا المعنى.

- الرموز الدينية: يستخدم كل دين رموزاً خاصة به، حيث تعبر هذه الرموز عنه كما تساهم في تعميق الوحدة بين المؤمنين به. وبالنسبة للمؤمنين بهذا الدين أو ذاك، فإن الرموز الدينية (سواء أكانت هلالاً، صليباً، أو نجمة سداسية) ليست مجرد رموز عادية، بل هي شعارات مقدسة تثير في النفس الإحساس بالرهبة والتبجيل. ومن وجهة نظر دوركهايم، تستخدم الأديان الرموز والشعارات لتفصل بين ما هو إلهي مقدس وبين ما هو دنيوي.
- الشعائر الدينية: تعتبر الشعائر والطقوس والاحتفالات بدورها رموزاً تميز هذا الدين عن ذاك وتساهم في صهر المؤمنين في مجمع أخلاقي واحد. حتى أن بعض الشعائر تهدف في باطنها إلى تعزيز الإحساس بالقرب من الخالق.
- المعتقدات الدينية: تعزز الرموز بمختلف أنماطها إيمان الإنسان بالدين الذي يتبعه، أي بمعتقدات هذا الدين. وتتراوح هذه المعتقدات بين المعتقدات المبهمة مثل ما هو الله إلى المعتقدات المحددة بشكل دقيق للغاية (يريدنا الله أن نصلي ونحن متوجهون ناحية القبلة خمس مرات في اليوم). كما لا تقتصر المعتقدات الدينية على القيم (أي ما هو محلل أو محرم، وما هو مرغوب أو مكروه)، بل تشمل كذلك العلوم الكونية، أي أنها تحاول رسم صورة موحدة ومتجانسة للعالم ككل. حيث نجد مثلاً أن أحد المعتقدات الأساسية في الأديان السماوية الثلاث، أي اليهودية، المسيحية والإسلام، هو الإيمان بوجود خالق واحد هو الله ولا أحد سواه، والذي يهتم بمسؤوليات خلق البشر والذي سيحاسب مخلوقاته في يوم

القيامة على كافة أفعالهم، وهذا المعتقد ينطوي في الحقيقة تحت المعتقدات الكونية، وذلك لأن غايته بناء صورة متجانسة موحدة للكون ولوجود الإنسان في هذا الكون الفسيح. يوحد الوعي بالمعاني المشتركة التي تحققها الرموز، والطقوس والمعتقدات لكل المؤمنين بدين معين في مجمع أخلاقي. حيث يشعر أعضاء المجمع الأخلاقي الديني بروابط تربط فيما بينهم، حيث تعزز معتقداتهم وشعائرهم إحساسهم بالترابط، وتعزلهم في نفس الوقت عن بقية أفراد المجتمع الذين لا يؤمنون بنفس الدين. تتمتع المجمعات الدينية بالقوة وذلك ليس لأنها تعتبر أساس الهوية الدينية المتبادلة بل لأنها تحدد القواعد والنظم التي يجب على أفرادها إتباعها.

## 3.2. نظرية الصراع الطبقي

تأخذ نظرية الصراع الطبقي منحىً مختلفاً تماماً عن باقي النظريات حيث تصب جل اهتمامها على الدور الذي يلعبه الدين في تعزيز سلطة الطبقات المسيطرة وتعزيز اللاعدالة الاجتماعية.

غالباً ما ينتقد أصحاب نظرية الصراع الطبقي الدينَ بحدة. وقد رسم كارل ماركس، الذي كان ملحداً لا يؤمن بمعقولية وجود الله، الدرب لكافة أصحاب هذه النظرية عندما قال عبارته الشهيرة الدين هو تنهيدة المضطهدين، هو وجدان العالم القاسي، هو أفيون الشعوب. حيث عنى ماركس بهذه العبارة أن العمال المضطهدين لا يجدون إلا الدين مهرباً من حياتهم القاسية، حيث يغدو الدين بالنسبة لهؤلاء الكادحين بمثابة المخدر حيث يساعدهم على نسيان واقعهم القاسي. يعمي الدين، بتركيزه فكر الإنسان على المستقبل المشرق بعد الموت، أعين المستضعفين عن المعاناة في العالم، مقللاً بالتالي وإلى حد كبير من احتمال أن يثور هؤلاء المستضعفون على مستغليهم.

## 3. الدين وروح الرأسمالية

أدرك ماكس فيبر، مثله مثل ماركس، أهمية عملية التحول الصناعي التي شهدتها الدول الأوروبية، وحاول تحديد الأسباب التي تدفع ببعض الدول لتبني النهج الرأسمالي في الإنتاج، في حين تحافظ بقية الدولة على الطرق التقليدية، وقد استنتج فيبر أن الدين هو السبب الحقيقي الكامن وراء هذا الاختلاف وهو المحرك الفعلي لعملية التحديث – أي الانتقال من المجتمعات التقليدية إلى المجتمعات الصناعية.

وفيما يلي بعض النتائج التي خلص إليها ماكس فيبر في دراسته المعنونة الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية:

- الرأسمالية هي أكثر من مجرد تغير سطحي، فهي تمثل أسلوب تفكير مختلف كلياً فيما يتعلق بالعمل والنقود. ففي حين كان الناس في النظم التقليدية يعملون بهدف تلبية احتياجاتهم الأساسية، فإن هدف العمل في النظم الرأسمالية هو في الحقيقة مراكمة الفائض بهدف استثماره لاحقاً. وقد دعى فيبر هذه الطريقة الجديدة في العمل بهدف الربح بروح الرأسمالية.
- اعتبر فيبر أن السبب الحقيقي وراء نشوء الرأسمالية وتطورها في أوروبا، وليس في الصين مثلاً، إنما هو الدين، ففي حين شجعت الديانات التقليدية في الصين والهند واليابان، فضلاً عن المسيحية الكاثوليكية في أوروبا طرق التفكير والإنتاج التقليدية، فإن ظهور الرأسمالية ترافق إلى حد كبير مع ظهور البروتستانتية وشيوعها في أوروبا.
- يمكن الفرق الأساسي الذي جاءت به البروتستانتية في طرح جون كالفن (John Calvin) بأن مصير الإنسان في الآخرة يتحدد بأعماله وليس بعضويته في الكنيسة أو بما يشعر به في داخله من قرب من الله.
- طورت دعوة جون كالفن أسلوب حياة أتباعه بحيث أصبحوا يعيشون حياة أكثر أخلاقية ويعملون بجد أكبر.
- دعى فيبر هذه الطريقة في الحياة والتي تتمحور حول إنكار الذات بالأخلاق البروتستانتية.

## 4. أديان العالم الكبرى

### 1.4. اليهودية

هي ديانة العبريين، المنحدرين من إبراهيم عليه السلام، والمعروفين بالأسباط من بني إسرائيل. يشير اليهود إلى عقيدتهم باسم التوراة (أي القانون، أو الشريعة). وقد ظهر هذا المصطلح للمرة الأولى في العصر الهيليني ليميز بين عقائد وممارسات اليهود، والعبادات الموجودة في الشرق الأدنى. وتعتبر الديانة اليهودية أولى ديانات التوحيد، أي الديانات التي يؤمن أتباعها بإله واحد فقط، مقارنة مع المشركين الذين يؤمنون بعدة آلهة في نفس الوقت.

ونظراً لظهورها المبكر، ولتمثلها عناصر من مختلف الحضارات الأخرى في فلكها، فإن اليهودية تتسم بتجانس أقل مما هو في حالة الديانات التوحيدية الأخرى، لاسيما في مرحلة ما بعد سقوط الهيكل، واختفاء أي مركز ديني أو زمني لليهودية، حيث أصبحت اليهودية تركيباً جيولوجياً تراكمياً لعدة طبقات الواحدة فوق الأخرى. تتسم التقاليد الشفوية اليهودية، بالمقارنة مع العقائد الأخرى، بسلطة تجعلها شريعة شفوية تفوق الشريعة المكتوبة، أي التوراة، أهمية. وفيما يلي أهم المفاهيم والعقائد اليهودية

- الإله: تختلف طبيعة الإله في اليهودية بين الطبقات الجيولوجية المتعددة للنسق الديني اليهودي. حيث تحوي أسفار موسى الخمسة على مصادر مختلفة، يقدم كل منها صورة مختلفة للإله. فيهوه (الرب في الترجمات العربية للكتاب المقدس)، يغضب، وينتقم من الآباء بإيذاء الأبناء، ويضحك، وهو إله خاص بالعبرانيين، بين آلهة أخرى؛ بينما إلوهيم (الله في الترجمات العربية للكتاب المقدس، وإن كانت الترجمة الحرفية في صيغة الجمع الآلهة) أقرب للتوحيد، فهو خالق العالم، رحيم عليم. كذلك نجد أن بعض فقرات التلموذ تصور الإله كالطرف الأضعف في العلاقة بينه وبين الحاخامات، كما تحتوي القبالاه على صورة مؤنثة له، هي الشخيناه، والتي تهيم في الأرض باكية منذ هدم الهيكل.
- الأرض اليهودية: يعتبر اليهود أن مكانهم الطبيعي هو أرض إسرائيل، أي أرض فلسطين، وهي الطرف الثالث في الطبقة الحلولية اليهودية. فهي أرض الرب، التي تفوق في قدسيتها أي أرض أخرى. وهي الأرض التي سيعلن منها المسيح بداية العصر الألفي آخر الزمان، كما أن الشريعة اليهودية تحرم العودة إلى هذه الأرض قبل مقدم المسيح المخلص.
- الكتب المقدسة والدينية: تتعادل في اليهودية أهمية الشريعة المكتوبة (أي التوراة والأنبياء والكتب) مع أهمية الشريعة الشفوية (وهي اجتهادات الحاخامات المجموعة في التلمود). كما ظهرت في مرحلة تالية كتابات القبالاه التي سيطرت لاحقاً على الفكر الديني اليهودي.

- التلمود: التلمود كلمة عبرية هي المقابل الحرفي لكلمة "التلمذة" العربية. يحوي التلمود الشريعة الشفوية، وهو سجل للمناقشات التي دارت بين الحاخامات في الحلقات التلمودية عن القضايا الفقهية (هالاخاه)، والوعظية (آجاداه). وباعتباره سجلا للمناقشات كتب على مدى قرون، يحوي التلمود موضوعات تاريخية، وتشريعية، وزراعية، وأدبية، وعلمية ... الخ.

## 2.4.المسيحية

إن المسيحية إحدى الديانات السماوية الثلاث ويعتبر يسوع المسيح الشخصية الأساسية فيها. تتربع المسيحية على عرش الديانات من حيث عدد الأتباع في العالم يليها في ذلك الإسلام، فعدد أتباعها يبلغ حوالي 2.1 بليون مسيحي حالياً. ترجع جذور المسيحية إلى اليهودية، حيث تتشارك معها في الإيمان بكتاب اليهودية المقدس (أي التوراة)، والذي يدعى في المسيحية (العهد القديم). انبثقت المسيحية من الديانة اليهودية وأخذت الكثير من المعالم اليهودية كوجود إله خالق واحد، والإيمان بالمسيح ابن الله الحي (كلمة الله)، والصلاة، والقراءة من كتاب مقدّس. ويطلق على الكتاب المقدس الأساسي للمسيحية اسم الإنجيل أو العهد الجديد و هو مجموعة التعاليم التي أتى بها يسوع المسيح ونشرها بين أتباعه ثم قام تلامذة المسيح (الحواريون) بكتابة هذه التعاليم ونشرها في الأصقاع.

يتفرع من المسيحية عدّة فروع أبرزها: الكاثوليكية، الأرثوذكسية الشرقية (مثل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية)، وشتّى طوائف البروتستانتية.

تطلق الكثير من الكتب الإسلامية مصطلح نصرانية على الديانة المسيحية آخذاً من قول المسيح للحواريين: من أنصاري إلى الله.

وتقوم المفاهيم الرئيسية للعقيدة المسيحية على التجسّد الإلهي في المسيح، وصلب المسيح الذي أدّى إلى موته فداءً للمؤمنين ولرفع خطية العالم، كما أن قيامة المسيح المجيدة تعطي الإنسان الخاطئ فرصة للنجاة من جهنم ونوال الحياة الأبدية. يؤمن المسيحيون أن هذه هي الطريقة التي رتبها الله على الأرض ليتصالح البشر معه.

لا تقوم المسيحية مثلها مثل باقي الديانات على وجوب العمل الفردي من عبادات وطاعات للفوز بجنّات النعيم، حيث أن الله هو المبادر في العقيدة المسيحية وهو الذي يعطي الخلاص مجاناً لمن يتوب ويطلب الغفران على أساس موت وقيامة المسيح. وتتفق طوائف المسيحية رغم تعددها على النقاط الرئيسية التالية:

- الثالوث: إله واحد يتمثل في 3 أقانيم أو كينونات في ذك الله العجيبة وهي الآب والابن والروح القدس.

- تعتبر العقيدة المسيحية أن المسيح هو كلمة الله الموجود مع الآب منذ الأزل وأنه تجسد من مريم العذراء المباركة بشراً، فظهر عبداً يأكل ويشرب وينام ويتألم ليقدر أن يموت عن الخطاة بجسده.
- ولدت مريم العذراء المسيح وأخذ منها إنسانيته فتمم النبوة القديمة وولد من عذراء بقوة روح الله بدون أي زواج لا من الله أو من بشر.
- يسوع هو المسيح الذي انتظره اليهود، ووريث عرش داود وسيملك على بيت داود إلى الأبد.
- إن يسوع المسيح نقي من الخطايا فهو لم يخطئ وليس فيه غش، وبموته وقيامته، تصالح الله مع البشر التائبين فقط، فمحى خطايا من آمن بالمسيح المصلوب وتاب عن خطاياه ونال بدمه غفران الخطايا، وكلّ من يرفض محبة الله يقع تحت دينونة الله العادلة.
- ليس الخلاص لكل الناس ولا لكل البشرية بل لمن يؤمن فقط.
- يؤمن المسيحيون الغربيون أن الإنجيل كلام الله وكذلك المسيحيون الشرقيون وبذلك يتّفق كل من الشرق والغرب المسيحي على قدسية الانجيل.

المسيحية الحديثة: يختلف المسيحيون الشرقيون والمسيحيون الغربيون في العديد من النقاط ولاسيما فيما يتعلق بموضوع المسيحية الحديثة. ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر، أي فترة الصحوة الأوروبية، انشغل المعسكر المسيحي الغربي بقضية فصل الكنيسة عن الدولة واضمحلال هيمنة الكنيسة على الدولة في العديد من الدول الأوروبية. حيث أصبح بمقدور الأوروبي أن يخالف معتقدات الكنيسة بحريّة تامة، بل يمكنه كذلك التحرر من قيود أي كنيسة برفضه الانتماء لأي من الكنائس مع احتفاظه بحقه بالمواطنة والعيش الكريم. وقد سلك الملايين من الأوروبيين هذا الطريق مما ساعد على استحداث مفاهيم جديدة على المسيحية، أسهمت هذه المفاهيم في إنشاء طوائف مسيحية جديدة في المعسكر المسيحي الغربي. وتجدر الإشارة إلى أن الصحوة الأوروبية الغربية وأثارها في العقيدة المسيحية لم تجد نفس التأثير في المعسكر المسيحي الشرقي ولم تُحدث نفس التغيرات الراديكالية كما فعلت بالمعسكر المسيحي الغربي. ولاسيما في الولايات المتحدة وأوروبا.

### 3.4. الإسلام

هو ثالث الديانات السماوية بعد المسيحية واليهودية أو ما يدعى بالديانات الإبراهيمية، وهو ثاني أكثر الديانات أتباعاً في العالم. يؤمن المسلمون بأن الإسلام هو آخر الديانات، وأنه بذلك ناسخ لما قبله، كما يؤمنون بوجود إله واحد، وأنهم يتبعون الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام. وتعني الحنيفية الميل في اللغة، واصطلاحاً الميل عن الشرك إلى التوحيد. أما الإسلام لغةً فهو أن يُسْلم الإنسان كل شؤون حياته لله، – أي الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله. بدأ الدعوة للإسلام النبي محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وقد قام بتبليغ الناس عن هذا الدين وأحكامه داعياً إياهم لنبذ عبادة الأصنام وغيرها مما يعبد من دون الله كالأنبياء والأولياء والكواكب والنجوم والتي كان يعبدها العرب في الجزيرة العربية في ذلك الوقت.

يتكون الإسلام من أركان خمسة أساسية يؤمن الإنسان بها كلها ويعمل بها حتى يصبح مسلماً حقيقياً. وهذه الأركان هي:

- الشهادة (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)
- الصلاة (إقامة الصلاة)
- الزكاة (إيتاء الزكاة)
- الصوم (صوم رمضان)
- الحج (حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا)

القرآن هو الكتاب المقدس للمسلمين وهو المصدر الأول للتشريع الإسلامي ومن بعده السنة النبوية. كان أول ما نزل من القرآن أول آية سورة العلق، وهي اقرأ بسم ربك الذي خلق. يعتبر المسلمون أن إهانة القرآن جريمة كبرى يجب معاقبة الجاني بها بأقصى العقوبات.

تعرف الشريعة بأنها مجموعة القوانين التي تحدد علاقة الإنسان بالله وبالناس وبالمجتمع والكون. وتحدد ما يجوز فعله وما لا يجوز. وأهم هذه الشرائع النطق بالشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ووجوب الالتزام بالصلاة للخالق، وصيام شهر رمضان، وإيتاء الزكاة، والحج، وتسمى هذه التشريعات الخمسة أركان الإسلام. كما يقضي الإسلام بضرورة الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية لِفض الخلافات بين المسلمين، وبضرورة تحلي المسلم بالأخلاق الحميدة. ووفقاً لاعتقاد المسلمين فإن الشريعة الإسلامية تنظم مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والشخصية.

يعتقد المسلمون أن القرآن هو وحي الله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام، وأنه المصدر الأول للتشريع، وأن الله تعهد بحفظه من التبديل والتحريف، وينص القرآن على وجوب إتباع أوامر الرسول محمد لأن أقواله إنما هي وحي من الله، ولذلك تعتبر السنة النبوية (وهي مجموع أقوال وأفعال الرسول) المصدر الثاني في التشريع الإسلامي. أما المصدر الثالث للتشريع فمصدر خلاف بين المذهبين السني والشيعي فعند الشيعة تعتبر أحاديث أهل البيت المصدر الثالث للتشريع. أما بالنسبة للسنة فالمصدر الثالث من مصادر التشريع هو إجماع المسلمين، وذلك بالاستناد إلى أحاديث النبي محمد، ورابع مصادر التشريع هو القياس (هو قياس أمر لا حكم محدد له على حكم لأمر مشابه).

## 4.4. الهندوسية

تعدّ الهندوسية من أقدم الديانات المعاصرة ويربو عدد أتباعها على المليار نسمة. نشأت الهندوسية في شبه القارّة الهندية والتي تضم اليوم 96% من تعداد الهندوس في العالم، وتعود بداياتها إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وكلمة هِنْدُو هي كلمة فارسية الأصل ولم تستخدم هذه الكلمة في الأصل لتصف الديانة الهندوسية، بل كان الفرس يطلقون لقب هِنْدُو على القوم الذين يسكنون ما وراء نهر السند. أُطلق المصطلح في البداية على مجموعة المفاهيم الدينية الهلامية للهندوس وعُرفت بالتالي باسم الهندوسية – أي ديانة الهندوس.

الهندوسي هو من يؤمن بالفلسفات الواردة في كتاب الفيدا، ويعدّ كتاب الفيدا من أقدم المخطوطات على وجه الأرض. تعتمد فلسفة الفيدا على طبيعة وتكوين المخلوقات إلهية الطّابع، وأن الله، أو البراهما كما يسميه الهندوس، يوجد داخل كل كائن حي. ومفهوم الدين بالنسبة للهندوس هو عملية البحث عن الذات، أي عملية البحث عن الكيان الإلهي داخل الإنسان. كما لا تنادي الهندوسية بالبحث عن الخلاص أو إنقاذ الروح، فالروح سليمة وليست بحاجة لخلاص أو إنقاذ، فكل ما يحتاجه الإنسان هو مجرد التخلّص من الجهل المحيط بمعرفة الذات.

لا يُعرف الكثير عن منشأ الهندوسية وذلك لأن بداياتها ترجع إلى ما قبل فترة التاريخ المدوّن، ويعتقد أن الهندوسية مشتقّة من الاعتقادات التّالية: اعتقادات الآريين النّازحين من أوروبا والتي كانت مبنيّة على الأساطير النرويجية واليونانية، الدرافاديين، و الهارابان (أي حضارة وادي السند).

يتكون المجتمع الهندوسي من أربع طبقات رئيسية واستُحدثت طبقة خامسة سببت الإزعاج للحكومة الهندية وقد قامت الحكومة الهندية رسمياً بإلغاء هذه الطبقة في عام 1950. وهذه الطبقات هي (حسب ترتيبها من العليا إلى الدنيا في النظام الطبقي الهندوسي):

- الطبقة البيضاء: أو طبقة البراهميين والتي ينتمي إليها القساوسة وعلماء الديانة الهندوسية.
- الطبقة الحمراء: أو طبقة الكاشتري، وتشمل الحكام والجنود.
- الطبقة الصفراء: الفيزية وتشمل المزارعين والتجار.
- الطبقة السوداء: أو طبقة "السودرا، وتشمل أهل الحرف اليدوية.
- طبقة الشودرا أو المنبوذين، فتشمل أهل الحرف المتدنّية من وجهة نظر الهندوسية وتتكون هذه الحرف من حفّارين القبور وعمال نظافة دورات المياه وخلافه.

تؤمن الهندوسية بفكرة تناسخ الأرواح، فإذا مات الجسد، خرجت منه الروح لتحلّ في جسد آخر. وحياة الإنسان أو الحيوان، ما هي إلا فترة تقضيها الروح في هذا الجسد أو ذاك. تنتقل روح الإنسان السعيد إلى جسم سعيد بعد موت الجسم الأول، وليس بالضرورة انتقال الروح إلى إنسان آخر، فقد تنتقل الروح إلى حيوان أو حشرة.

## 5.4. البوذية

من الديانات الرئيسية في العالم، تم تأسيسها عن طريق التعاليم التي تركها بوذا (أو المتيقظ). ظهرت البوذية في شمالي الهند وانتشرت تدريجياً في أنحاء أسيا، التيبت، فسريلانكا، ثم إلى الصين، منغوليا، كوريا، فاليابان. وتتمحور العقيدة البوذية حول ثلاثة أمور (تدعى الجواهر الثلاث): أولها، الإيمان ببوذا كمعلّم مستنير للعقيدة البوذية، ثانيها، الإيمان بـ دهارما، وهي تعاليم بوذا وتسمّى هذه التعاليم بالحقيقة، ثالثها وآخرها، المجتمع البوذي.

إن أولى المعلومات عن حياة بوذا لا تعدو كونها مجرد آثار شفوية متناثرة، لم تظهر أولى الترجمات الكاملة لحياته إلا بعد وفاته بقرون، غير أن المؤرخين يُجمعون على أن تاريخ مولده كان في منتصف القرن السادس قبل الميلاد. ولد بوذا واسمه الحقيقي سيدارنا غاوثاما، في كابيافاستو، على الحدود الفاصل بين الهند والنيبال. كان والِدُه حاكماً على مملكة صغيرة. تقول الأسطورة أنه وعند مولده تنبأ له بعض الحكماء بأن تكون له حياةٌ استثنائية وأن يصبح أحد اثنين، حكيماً أو سُلطاناً. تربَى الأمير الشاب في رعاية والده وعاش حياة باذخة وناعمة، حتى إذا بلغ سن التاسعة والعشرين. أخذ يتدبر أمرهُ وتبين له كم كانت حياته فارغة ومن غير معنى. قام بترك الملذات الدنيوية، وذهب يبحث عن الطمأنينة الداخلية وحالة التيقظ (الاستنارة)، محاولاً أن يخرج من دورة التناسخ (حسب التقاليد الهندوسية). قام بممارسة اليوغا لبعض السنوات، وأخضع نفسه لتمارين قاسية، وكان الزهد والتقشف شعاره في هذه المرحلة من حياته. بعد سبع

سنوات من الجُهد، تخلى غاوثاما عن هذه الطريقة، والتي لم تعُد تقنعه، واتبع طريقاً وسطاً بين الحياة الدنيوية وحياة الزُهّاد. كان يجلس تحت شجرة التين، والتي أصبحت تُعرف بشجرة الحكمة، ثم يأخذ في ممارسة التأمل، جرب حالات عديدة من التيقظ، حتى أصبح بوذيساتفا، أي أنه صار مؤهلاً لأن يَرتقي إلى أعلى مرتبة وهي بوذا.

في إحدى الليالي وبينما كان جالساً تحت شجرة التين، بلغ حالة الاستنارة، وأصبح بوذا، أي المتيقظ (أو المستنير).

بعد أن بلغ أعلى درجات الحقيقية، شرع بوذا يدعو إلى مذهبه، فتنقل من قرية إلى قرية، أخذ يجمع الناس من حوله، وأسس لطائفة من الرهبان عرفت باسم سانغا. كرس بوذا بقية حياته لتعليم الناس حقيقة دعوته.

وفيما يلي المفاهيم أساسية:

- الكارْما: يطلق لفظ كارما على الأفعال التي يقوم بها الكائن الحي، والعواقب الأخلاقية الناتجة عنها. حيث أن أي عملٍ، خيراً كان أو شراً، وأياً كان مصدره، لا بد أن تترتب عنه عواقب، ما دام قد نَتَج عن وعي وإدراك مسبق، وتأخذ هذه العواقب شكل ثمارٍ تنمو، وبمجرد أن تنضج تسقط على صاحبها، فيكون جزاؤه إما الثواب أو العِقاب.

  وقد تطول أو تقصر المدة التي تتطلبها عملية نضوج الثمار (أو عواقب الأعمال)، غير أنها تتجاوز في الأغلب فترة حياة الإنسان، فيتحتم على صاحبها الانبعاث مرة أخرى لينال الجزاء الذي يستحقه.

- النيرفانا: يستعمل لفظ "نيرفانا" لوصف حالة التيقظ التي تخمدُ معها نيران العوامل التي تسبب الآلام (الشهوة، الحقد والجهل). لا يحدُث التبدد الكلي للكارما عند بلوغ النيرفانا، ويمكن وصف هذه الحالة بأنها بداية النهاية في طريق الخلاص. النيرفانا حالة من الوعي والإدراك لا يمكن تعريفها ولا حتى فهمها، بعد أن يصلها الكائن الحي، ويُصبح متيقظاً، يستمر في العيش، ومع الوقت يقوم بتبديد كل الكارما الخاصة به، حتى يبلغ عند مماتِه "النيرفانا الكاملة" (التبدد الكُلي للكارما). عندما يموت هؤلاء الأشخاص فإنهم لا يُبعثون – فقد استنفذت الكارما–، ولايمكن لأيٍ كان أن يستوعب حالة الطوبى الأزلية التي يبلغونها (حسب أقوال بوذا نفسه). للوصول إلى النيرفانا، يجب إتباع سلوكيات أخلاقية هي خليط من حياة العزلة وانطواء الذات. تتطلب هذه الأخيرة ممارسة أربع فضائل، والتي تسمى "قصر البراهما" الإحسان، الإشفاق، التفكير الإيجابي، والرزانة. تساعد هذه الممارسات على انبعاث إيجابي (حياة أفضل). يتوجب على الأشخاص القيام بأعمال اجتماعية جليلة، وبالأخص

تجاه الرهبان البوذيين (الصدقات)، وكذلك الالتزام بالقواعد الخمس التي تشكل أساس الممارسات الأخلاقية للبوذية:

- الكف عن القتل
- الكف عن أخذ ما لم يُعطَ له
- الكف عن الكلام السيئ
- الكف عن السلوكيات الحِسية المُشينة
- الكف عن تناول المشروبات المُسْكِرة والمخدرات

بإتباع هذه التعاليم يمكن القضاء على الأصول الثلاثة للشرور: الشهوانية، الحِقد والوَهم.

- أناتمان أو عقيدة اللا–أنا: تنقسم الكائنات إلى خمس مفاهيم –حسب البوذية–: الهيئة (الجسمانية)، الحواس، الإدراك، الكارما والضمير. الإنسان هو مجرد اتحاد زمني طارئ لهذه المفاهيم، وهو معرض بالتالي للـ"لا–استمرارية" وعدم التواصل، يبقى الإنسان يتحول مع كل لحظة جديدة، رغم اعتقاده أنه لا يزال كما هو. ترفض البوذية الفكرة القائلة بأن هذه الأقسام أو المفاهيم، يمكن اعتبارها كينونة موحدة وروح قائمة بذاتها، وتعتبر أنه من الخطأ التصور بوجود "أنا ذاتية"، وجعلها أساس جميع الموجودات التي تؤلف الكون.
- الألهة: كما جردت البوذية الموجودات من مفهوم الأنا فقد جردت الكون من مفهوم الخالق الأزلي مصدر خلاص الجميع. لا تعارُضَ في البوذية مع فكرة وجود عدة آلهة، إلا أنها رفضت أن تخصص لها مكانة متميزة في عقيدتها. تعيش الآلهة حياةً طويلة وسعيدة في الفردوس، ومع هذا فهي معرضة للمواقف الصعبة، على غرار ما يحصل للكائنات الأخرى. يمكن لها أن تخوض تجربة الممات ثم الانبعاث من جديد في كينونة أقل شأناً.

### 6.4. الكونفوشية

هي ديانة أهل الصين، وترجع إلى الفيلسوف الصيني كونفوشيوس الذي ظهر في القرن السادس قبل الميلاد داعياً إلى إحياء الطقوس والعادات والتقاليد الدينية التي ورثها الصينيون عن أجدادهم مضيفاً إليها جانباً من فلسفته وآرائه في الأخلاق والمعاملات والسلوك القويم. وهي تقوم على عبادة إله السماء أو الإله الأعظم، وتقديس الملائكة، وعبادة أرواح الآباء والأجداد.

يعتبر كونفوشيوس المؤسس الحقيقي لهذه العقيدة الصينية، ولد كونفوشيوس سنة 551 قبل الميلاد في مدينة تسو (Tsou) وهي إحدى مدن مقاطعة لو (Lu). اسمه الحقيقي كونج (Kung) وهو اسم القبيلة التي ينتمي إليها، وفوتس (Futze) معناه الرئيس أو الفيلسوف. فهو بذلك رئيس كونج أو فيلسوفها. ينتسب كونفوشيوس إلى أسرة عريقة، فجدّه كان والياً على تلك الولاية، ووالده كان ضابطاً حربيّاً ممتازاً، وكان هو ثمرة لزواج غير شرعي، توفي والده وله من العمر ثلاث سنوات. تلقى علومه الفلسفية على يدي أستاذه الفيلسوف لوتس (Laotse) صاحب الديانة الطاوية، حيث كان يدعو إلى القناعة والتسامح والمطلق، ولكن كونفوشيوس خالفه فيما بعد داعياً إلى مقابلة السيئة بمثلها وذلك إحقاقاً للعدل. عندما بلغ كونفوشيوس الثانية والعشرين من عمره أنشأ مدرسة لدراسة أصول الفلسفة. تنقل كونفوشيوس بين عدد من الوظائف حيث عمل مستشاراً للأمراء والولاة، كما عيّن قاضياً وحاكماً، ووزيراً للعمل، ووزيراً للعدل ورئيساً للوزراء في سنة 496 ق.م، حيث أقدم حينها على إعدام بعض الوزراء السابقين وعدد من رجال السياسة وأصحاب الشغب حتى صارت مقاطعة (لو) نموذجية في تطبيق الآراء والمبادئ الفلسفية المثالية التي ينادي بها. رحل كونفوشيوس بعد ذلك وتنقل بين كثير من البلدان ينصح الحكام ويرشدهم ويتصل بالناس يبث بلغهم تعاليمه حاثّاً لهم على الأخلاق القويمة. أخيراً عاد إلى مقاطعة (لو) فتفرغ لتدريس أصدقائه ومحبيه منكبّاً على كتب الأقدمين يلخّصها، ويرتبها، ويضمنها بعض أفكاره. مات كونفوشيوس في سنة 479 ق.م بعد أن ترك مذهباً رسميّاً وشعبيّاً استمرّ حتى منتصف القرن العشرين.

وهناك مجموعتان أساسيتان من الكتب تمثلان الفكر الكونفوشي فضلاً عن كثير من الشروح والتعليقات والملخصات، تسمى المجموعة الأولى الكتب الخمسة، والثانية الكتب الأربعة.

المجموعة الاولى – الكتب الخمسة: وهي الكتب التي قام كونفوشيوس ذاته بنقلها عن كتب الأقدمين وهي:

- كتاب الأغاني أو الشعر: فيه 350 أغنية إلى جانب ستة تواشيح دينية تُغنى بمصاحبة الموسيقى.
- كتاب التاريخ: فيه وثائق تاريخية تعود إلى التاريخ الصيني السحيق.
- كتاب التغييرات: فيه فلسفة تطور الحوادث الإنسانية. وقد حوّله كونفوشيوس إلى كتاب علمي لدراسة السلوك الإنساني.
- كتاب الربيع والخريف: كتاب تاريخي يؤرخ للفترة الواقعة بين 722 – 481 ق.م.

- كتاب الطقوس: فيه وصف للطقوس الدينية الصينية القديمة مع معالجة النظام الأساسي لأسرة (تشو)، تلك الأسرة التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ الصيني البعيد.

المجموعة الثانية – الكتب الأربعة: وهي الكتب التي ألفها كونفوشيوس وأتباعه مدوِّنين فيها أقوال أستاذهم مع الشروح والتعليقات عيها، تمثل هذه الكتب فلسفة كونفوشيوس ذاته وهي:

- كتاب الأخلاق والسياسة
- كتاب الانسجام المركزي
- كتاب المنتجات، ويطلق عليه اسم إنجيل كونفوشيوس
- كتاب منسيوس: وهو يتألف من سبعة كتب، ومن المحتمل أن يكون مؤلفها منسيوس نفسه

تقوم الكونفوشية على فكرة "العناصر الخمسة":

- مركبات الأشياء خمسة: معدن – خشب – ماء – نار – تراب.
- الأضاحي والقرابين خمسة.
- الموسيقى لها خمسة مفاتيح، والألوان الأساسية خمسة.
- الجهات خمس: شرق وغرب وشمال وجنوب ووسط.
- درجات القرابة خمس: أبوّة – أمومة – زوجية – بنوّة – أخوّة.

تتمثل المعتقدات الأساسية في الكونفوشية في الإله أو إله السماء، والملائكة، وأرواح الأجداد.

الإله: تعتقد الكونفوشية بالإله الأعظم أو إله السماء، ويتوجه أتباع هذه الديانة إليه بالعبادة، كما أن عبادته وتقديم القرابين إليه مخصوصة بالملك، أو بأمراء المقاطعات. كما أن للأرض إله، وهو إله الأرض، ويعبده عامة الصينيين. وكذلك لكل من الشمس والقمر، والكواكب، والسحاب، والجبال إله خاص به.

الملائكة: تقدس الديانة الكونفوشية الملائكة وتفرض تقديم القرابين لها.

أرواح الأجداد: يقدس الصينيون أرواح أجدادهم الأقدمين، ويعتقدون ببقاء الأرواح، ويقدمون لهذه الأرواح قرابين هي عبارة عن موائد يدخلون بها السرور على تلك الأرواح، ويوجد في كل بيت معبد لأرواح الأموات ولآلهة المنزل.

إن الأخلاق هي الأمر الأساسي الذي تتمحور حوله وتدعو إليه الكونفوشية، وهي محور الفلسفة وأساس الدين، وهي تسعى إليه بتربية الوازع الداخلي لدى الفرد ليشعر بالانسجام الذي يسيطر على حياته النفسية مما يخضعها للقوانين الاجتماعية بشكل تلقائي.

تظهر الأخلاق في:

- طاعة الوالد والخضوع له
- طاعة الأخ الأصغر لأخيه الأكبر
- طاعة الحاكم والانقياد إليه
- إخلاص الصديق لأصدقائه
- عدم جرح الآخرين بالكلام أثناء محادثتهم
- أن تكون الأقوال على قدر الأفعال، وكراهية ظهور الشخص بمظهر لا يتفق مع مركزه وحاله
- البعد عن المحسوبية في الوساطة أو المحاباة

تحترم الكونفوشية العادات والتقاليد الموروثة، فالكونفوشيون محافظون إلى أبعد الحدود، كما أنهم يقدّسون العلم والأمانة، ويحترمون المعاملة اللينة من غير خضوع ولا استجداء لجبروت. يقوم المجتمع الكونفوشي على أساس احترام الملكية الفردية مع ضرورة رسم برنامج إصلاحي يؤدي إلى تنمية روح المحبّة بين الأغنياء والفقراء. إذاً تعترف الكونفوشية بالفوارق بين الطبقات، ويظهر هذا جليّاً حين تأدية الطقوس الدينية وفي الأعياد الرسمية وعند تقديم القرابين، إلا أن النظام الطبقي فيها نظام مفتوح، إذ أنه يمكن لأي شخص أن ينتقل من طبقته إلى أية طبقة اجتماعية أخرى إذا كانت إمكاناته تؤهله لذلك.

## 7.4. الشنتوية

هي ديانة ظهرت وتطورت في اليابان. لم تعرف ديانة الشنتو – والتي تركت أثراً بالغاً في التفكير الياباني – طريقها إلى الانتشار على غرار الديانات الأخرى. وليس لهذه الديانة تعاليم محددة، الشيء الذي جعلها تنفتح على العادات الدينية الأخرى بدون أن تؤثر هذه العادات في خاصيتها وتأصلها الفريدين. وتعتبر الشنتو والتقاليد التي تلازمها جزءاً لا يتجزأ من مظاهر الحياة اليومية اليابانية. يصعب وصف الديانة الشنتوية لأنها، وعلى عكس كل الديانات الأخرى، لا يُعرف لها مؤسس ولا معتقد تقوم عليه، ولا يمكن بالتالي أن نعرفها إلا عن طريق تعريف العادات والممارسات التي تقوم عليها. نشأت وتطورت عبر التاريخ عدة فرق وطوائف تدعي كلها الانتماء إلى عقيدة الشنتو الأولية، ولكن أياً من هذه الطوائف لم تنجح في أن تفرض نظرياتها وادعاءاتها.

على عكس الديانات التوحيدية الأخرى، لا يوجد في الشنتوية تعريف للمطلق، حيث لا يمكن لأحد أن يدعي الصواب المطلق ولا الخطأ المطلق، فالناس في طبيعتهم غير معصومين عن الخطأ. وتعتبر الشنتوية من هذه الناحية ديانة متفائلة، حيث تفترض أن الإنسان كائن طيب في الأساس، وأن الشر يقع نتيجة تدخل الأرواح الشريرة، وتنحصر أغلب العبادات الشنتوية في إبعاد هذه الأرواح الشريرة عن طريق تنقية النفس، الصلوات وتقديم القرابين للـ"كامي".

ليس لعقيدة التوحيد مكان في الشنتوية، فبسبب تعدد المظاهر التي يمكن أن تتجلى فيها القوى الإلهية، ربط اليابانيون بين كل ظاهرة وآلهة معينة، كما أنه لا يمكن حصر جميع أعداد الكامي، ويمكن لأي شخص أن يعين آلهته الخاصة. لا يوجد في الشنتوية حياة بعد الموت، يعتبر جسد الشخص الميت شيئاً مدنساً، تنطلق روح الميت، بعد أن تتحرر من جسدها المادي فتندمج مع قوى الطبيعة. يقوم أغلب اليابانيين عند تعرضهم لأمور متعلقة بالموت بتفويض أنفسهم إلى العقيدة البوذية.

هي كل الأشياء والموجودات التي لا تنتمي إلى مجال التأثير المباشر للإنسان، أي كل ما هو غريب، عجيب، غامض ومريع. لا توجد للكامي أشكال محددة، كما أنها يمكن أن تتمثل في كل قوى الطبيعة (صخرة، شجرة أو حيوان). تقوم كل جماعة بشرية في المجتمع الياباني (سواء أكانت عائلة، عشيرة أو قرية) بتحديد الكامي التي يرهبونها والتي يمكن أن ينتظروا منها أعطيات خلال حياتهم اليومية، على أن أشهر الكامي هي تلك المتعلقة بالعائلة الإمبراطورية، ومنها مثلاً: آلهة الشمس. لا توجد في اليابان طقوس لعبادة وتقديس الأسلاف، رغم أن بعضهم (الأسلاف) ممن توفى في ظروف خاصة، قد يتم تعريفه على أنه كامي، على أن الأسلاف ليسو كلهم كامي. فالأباطرة القدماء مثلاً، لم يكونوا محل تعظيم خاص.

وتتضمن العبادة في الشنتوية أربعة عناصر:

- التطهّر والاغتسال: ويقوم بها الكاهن عندما يلوح بفرع من شجرة السيكاكي أو ورقة منها إلى رأس المتطهر.
- تقديم القرابين: وتكون في الأغلب من الحبوب أو الشراب، ويتم اليوم تقديمها في شكل مبلغ من المال، وفي أسوء الحالات يمكن تقديم قرابين رمزية كأغصان شجرة السيكاكي مثلاً.
- الصلاة: ويقوم فيها الزائر بتقديم أمانيه ومطالبه إلى الإله.
- الوليمة الرمزية: وهي إشارة إلى تناول الطعام مع الكامي، وتتبع هذه الطقوس عملية تناول الساكي المقدس، وقد يقوم بعض الزوار بعدها بأداء رقصات مقدسة خاصة بالمزار.

# الفصل الحادي عشر: التعداد السكاني والتمدن

## الكلمات المفتاحية:

التعداد السكاني، الديموغرافيا، المالتوسية، المالتوسية الجديدة، المالتوسية المضادة، التحول الديموغرافي، معدلات النمو السكاني، المتغيرات الديموغرافية. معدل الولادات، معدل الخصب، معدل الولادات الأولي، معدل الوفيات، معدل الوفيات الأولي، معدل الهجرة الصافي، الهجرة، عوالم الدفع، عوامل الجذب، معدل النمو السكاني، المدينة، التمدن، الغفلية، الحاضرة (الميتروبوليس)، الميغالوبوليس، نماذج نمو المدن، نموذج المنطقة متحدة المراكز، نموذج القطاع، النموذج متعدد النوى، النموذج الطرفي، دورة الانتهاك – الإرث.

## ملخص:

يتعرف الطلاب في هذه الوحدة على مشكلة الانفجار السكاني وتأثيرها على مستقبل البشرية، كما تناقش هذه الوحدة كذلك مسألة التمدن، أي العيش في المدن، والقضايا المتعلقة بها كطرق نمو المدن، وأنماط سكان المدن.

## أهداف تعليمية:

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

1. الانفجار السكاني
   - نظرية مالتوس والمالتوسية الجديدة
   - النظرية المالتوسية المضادة
2. النمو السكاني
   - معدلات النمو المرتفعة في الدول النامية
   - المتغيرات الديموغرافية الثلاث – معدل النمو السكاني
3. التمدن
   - تطور المدن
   - عملية التمدن
   - نماذج نمو المدن
   - الحياة في المدينة

## المخطط:

- الانفجار السكاني
- النمو السكاني
- التمدن

# 1. الانفجار السكاني

## 1.1. نظرية مالتوس والمالتوسية الجديدة

- تعريف علم الديموغرافيا بأنه العلم الذي يهتم بدراسة كلٍ من حجم، تركيب، نمو وتوزع الجماعات البشرية. ويمكّننا علم الديموغرافيا من الإجابة عن أحد أهم الأسئلة التي يمكن أن نطرحها على أنفسنا فيما يتعلق بمستقبل الحياة على الأرض، وهو هل سيكون هناك في المستقبل القريب من متسع على هذه الأرض يكفي لمعيشة سكانها الذي يزدادون عدداً كل ثانية؟
- بدايات الانفجار السكاني: تعود بدايات هذا الانفجار السكاني الذي تشهده الأرض اليوم إلى أيام الفاتحين الأسبان الذين عادوا من إحدى غزواتهم لأمريكا الجنوبية ومعهم حبات البطاطا الأولى، وقد لعبت البطاطا دوراً هاماً في تاريخ أوروبا حيث سرعان ما أصبحت طعام الطبقات الدنيا الأول، وبفضل ما تحتويه البطاطا وغيرها من الأطعمة الجديدة من قيم غذائية انخفضت معدلات الوفيات بين أفراد الطبقات الأفقر في المجتمع الأوروبي لحد كبير، كما ازداد معدل الولادات في نفس الوقت، الأمر الذي أدى إلى تضاعف عدد سكان أوروبا أثناء القرن الثامن عشر.
- نظرية مالتوس: اعتبر الاقتصادي الإنكليزي توماس مالتوس ( Thomas Malthus 1766 – 1834) هذا التزايد الهائل في تعداد الأوروبيين بمثابة بداية النهاية، أو على حد تعبيره "أحد علامات يوم القيامة". وفي عام 1798 كتب مالتوس كتابه "المقالة الأولى حول تعداد السكان – FirstnEssay on population"، والذي سرعان ما ذاع صيته في شتى أنحاء العالم، طرح مالتوس في هذا الكتاب ما أصبح يعرف بنظرية مالتوس، حيث افترض أن الزيادة الهندسية لتعداد السكان حول العالم تترافق مع زيادة حسابية فقط للمؤونة الغذائية العالمية، الأمر الذي سيؤدي، حسب ادعائه، إلى مجاعة عالمية إذا ما استمر عدد سكان الأرض بالازدياد.
- المالتوسية الجديدة: هل كان مالتوس محقاً في ادعاءاته؟ في الحقيقة لقد أثار هذا السؤال العديد من المناقشات الحامية الوطيس في صفوف علماء الديموغرافيا. حتى أن مجموعة من الديموغرافيين، والذين يطلق عليهم اسم المالتوسيين الجدد، يؤمنون بأن الوضع الذي آل إليه العالم في أيامنا لهو أشد تجهماً إلى حد كبير مما تخيله مالتوس، فمثلاً في مثل هذا الوقت غداً سيكون عدد سكان الأرض قد ازداد بمعدل ربع مليون طفل تقريباً، وهؤلاء الأطفال يجتاجون بالطبع لطعام يقيم أودهم.

يؤكد أصحاب النظرية المالتوسية الحديثة أن تعداد سكان العالم يزداد بشكل أسي، أي أن معدل النمو السكاني يتضاعف وفق فترات زمنية منتظمة. هذه الزيادة هي أكثر ما يثير قلق أصحاب النظرية المالتوسية الحديثة، حيث يشيرون إلى أن تعداد سكان العالم وصل إلى المليار في أوائل القرن التاسع عشر، إلا أن المليار الثاني لم يستغرق أكثر من مئة وثلاثين عاماً (حتى حوالي 1930)، وبحلول عام 1960، أصبح عدد سكان العالم ثلاث مليارات، وبعد خمسة عشر عاماً أي في عام 1975 وصل إلى أربعة مليارات، وهكذا وصولاً إلى نهاية القرن العشرين حيث أصبح عدد سكان الأرض ينوف على الستة مليارات إنسان. وفي ظل هذه الزيادة فمن الواضح أن مصادر الأرض الغذائية ستصبح أقل فأقل إلى أن تغدو عاجزة عن سد حاجات الأعداد المتزايدة من البشر، وسينتهي الأمر بالبشرية إلى الموت جوعاً.

### 2.1. النظرية المالتوسية المضادة

تتبنى جماعة أخرى من علماء الديموغرافيا، والتي يطلق عليها اسم المالتوسية المضادة، وجهة نظر مختلفة تماماً، حيث يعتقد أصحاب نظرية المالتوسية المضادة أن التحول الديموغرافي في أوروبا يقدم صورة أكثر دقة للمستقبل، حيث حافظت أوروبا على توازن دقيق بين معدلات وفيات عالية ومعدلات ولادات عالية أيضاً طيلة معظم تاريخها (أي أنها كانت في المرحلة الأولى من التحول الديموغرافي)، مما ساعدها على الحفاظ على تعداد سكان ثابت تقريباً، إلا أن هذا التوازن اختل لمصلحة معدل الولادات (ودخلت بالتالي في المرحلة الثانية من التحول الديموغرافي،) الأمر الذي أدى إلى تلك الزيادة السكانية التي أزعجت مالتوس في وقته، إلا أن أوروبا سرعان ما عادت إلى طور التوازن (أي المرحلة الثالثة من التحول الديموغرافي)، حيث انخفض معدل الولادات مجدداً ليتساوى مرة أخرى مع معدل الوفيات. ويؤكد أصحاب هذه النظرية على أن هذا السيناريو سيتكرر بدوره في البلدان النامية، الأمر الذي يعني أن قلق أصحاب النظرية المالتوسية لا يجد ما يبرره من وجهة نظر أصحاب نظرية المالتوسية المضادة، الذين يؤكدون على أن النمو السكاني قد بدأ بالانخفاض فعلاً في شتى أنحاء الأرض.

أي النظريتين صحيحة؟ تكمن الإجابة عن هذا السؤال في قدرة دول العالم النامي على الحد من نموها السكاني وبالتالي العودة إلى وضع التوازن بين نسبة الوفيات ونسبة الولادات فيها، حيث يتنبأ علماء الديموغرافيا بكارثة إنسانية وشيكة إذا لم يتم إيجاد حلول فورية لمشكلة الانفجار السكاني العالمي.

## 2. النمو السكاني

### 1.2. معدلات النمو المرتفعة في الدول النامية

لماذا يصر سكان الدول النامية، الذين بالكاد يؤمنون لقمة عيشهم، على إنجاب عدد كبير من الأولاد؟ لا بد لنا، حتى نستطيع الإجابة على مثل هذا السؤال، أن ننظر إلى المسألة من منطلق نظرية التفاعل الرمزي، حيث سنجد أن الخلفية الثقافية لأبناء الدول النامية هي التي تحدد حجم العائلة، وذلك لأن الأطفال يقومون بدور أساسي في حياة الملايين من أبناء الطبقات الفقيرة حول العالم للأسباب الثلاثة التالية:

1. منزلة الأبوة: حيث أن منزلة الأمومة هي أعلى منزلة يمكن للمرأة أن تصلها في العديد من الدول النامية، حيث يزداد تقدير المجتمع لنسائه، واعتقاده بتحقيقهن الهدف الذي من أجله ولدن، بازدياد عدد الأبناء الذين تنجبهم كل منهن. وبالمثل، يثبت الرجل رجولته بازدياد عدد أولاده، ولاسيما الذكور منهم، وذلك لأن هؤلاء هم من سيخلد اسمه بعد مماته.
2. نظرة المجتمع: تشجع المجتمعات النامية على إنجاب العديد من الأطفال، وذلك لأن هذه المجتمعات غالباً ما تكون أكثر انغلاقاً وترابطاً من مثيلاتها في الدول المتقدمة، حيث ينظر إلى الأولاد في هذه المجتمعات على أنهم رضى من الرب ودليل على صلاح الوالدين.
3. الحاجة الاقتصادية: يلعب الأولاد في الدول النامية دوراً هاماً في سد حاجات أسرهم، ففي ظل غياب التأمين الاجتماعي والأوضاع الاقتصادية المتردية في معظم دول العالم الثالث، كل ما زاد عدد أفراد الأسرة الواحدة، كل ما زاد عدد القادرين على العمل فيها، مما يزيد من دخل الأسرة الكلي ويعينها بالتالي على الاستمرار في حياتها

### 2.2. المتغيرات الديموغرافية الثلاث – معدل النمو السكاني

يستخدم الديموغرافيون ثلاثة متغيرات ديموغرافية وذلك للتنبؤ بالتعداد السكاني المستقبلي، وهذه المتغيرات هي:

1. معدل الولادات: يعرف معدل الولادات بأنه عدد الأطفال الذين تنجبهم المرأة الواحدة، وقد يختلط معنى هذا المصطلح في بعض الأحيان مع مصطلح الخصب، وهو عدد الأطفال الذي يمكن لأي امرأة إنجابهم خلال فترة حياتها، حيث يصل معدل خصب النساء حول العالم إلى عشرين طفلاً لكل امرأة، إلا أن معدل ولادات النساء (أي عدد الأطفال الفعلي الذي تنجبه كل امرأة وسطياً) هو أقل بكثير من معدل الخصب العالمي حيث لا يتجاوز 2.8. يقوم الديموغرافيون بغية حساب معدل الولادات في بلد ما بتحليل إحصاءات الولادة الحكومية حيث يحسبون بناءً عليها معدل الولادات الأولي، وهو عدد الولادات السنوي لكل ألف مواطن.
2. معدل الوفيات: يعرف معدل الوفيات الأولي بأنه عدد الوفيات السنوية لكل ألف مواطن، يختلف هذا المعدل بدوره من بلد لأخر حول العالم.
3. معدل الهجرة: تعرف الهجرة بأنها انتقال السكان من منطقة لأخرى، وهناك نوعان للهجرة هما:

- أولاً – الهجرة الداخلية: أي انتقال السكان من منطقة لأخرى داخل البلد نفسه. تلعب العوامل الاقتصادية وفرص العمل دوراً هاماً في هذه الهجرة، حيث غالباً ما تتركز في هجرة أبناء الريف إلى المدن الكبرى بحثاً عن العمل، أو بهدف الدراسة، أو تحسين أوضاعهم الاجتماعية.
- ثانياً – الهجرة الخارجية: وهي انتقال السكان من بلد لآخر.

يستخدم الديموغرافيون مصطلح معدل الهجرة الصافي لحساب الفرق بين عدد المهاجرين إلى البلد (أي عدد القادمين من دول أخرى) وعدد المهاجرين من البلد (أي عدد أبناء البلد الذي يهاجرون إلى دول أخرى) وذلك لكل ألف مواطن.

يميز الديموغرافيون بين عوامل الجذب، أي تلك العوامل التي تسهم في جذب المهاجرين إلى بلد ما، وعوامل الدفع، أي تلك العوامل التي تسهم في دفع أبناء البلد إلى الهجرة عنه إلى دول أخرى.

ويحسب معدل النمو السكاني الكلي استناداً إلى قيم المتغيرات الديموغرافية الثلاثة كما يلي:

معدل النمو = معدل الولادات – معدل الوفيات + معدل الهجرة الصافي.

كما تلعب العوامل الاجتماعية المختلفة مثل الحروب، الأزمات الاقتصادية والمجاعات دوراً هاماً في حساب معدل النمو السكاني وذلك إضافة إلى العوامل البيولوجية.

## 3. التمدن

### 1.3. تطور المدن

ليست المدن بظاهرة جديدة، بل ربما ترجع المدن الأولى إلى سبعة وحتى عشرة آلاف عام خلت، حيث بدأ الإنسان للمرة الأولى ببناء مدن صغيرة، أحاطها بأسوار عالية لحمايتها من أي غزو خارجي. ولعل أقدم مدن الأرض هي مدينة أريحا الفلسطينية المذكورة في الكتاب المقدس، حيث يرجع تاريخ بنائها إلى عام 3500 قبل الميلاد، ومع اختراعه الكتابة، بدأ الإنسان ببناء مدن أكبر ولاسيما في إيران القديمة، ولاحقاً انتشرت حركة بناء المدن على طول نهر النيل، ووديان النهر الأصفر في أفريقيا الغربية، وعلى امتداد شواطىء المتوسط، فضلاً عن مدن في أمريكا الوسطى، وفي الأنديز في أمريكا الجنوبية.

كان تطور الزراعة هو المقدمة التي أفضت إلى بناء المدن، حيث مكن فائض الإنتاج أفراد المجتمع من التخصص بمهن متنوعة عدا الزراعة. ويمكن تعريف المدينة في الحقيقة بأنها المكان الذي تقطنه أعداد كبيرة من البشر بشكل دائم، ولا يختص هؤلاء السكان بإنتاج طعامها فحسب، بل يمارسون مهناً متنوعة. وقد مكّن اختراع المحراث، منذ حوالي ستة إلى خمسة آلاف عام، المزارعين من تحقيق فائض هائل في الإنتاج، الأمر الذي عزز مسيرة المدن التطورية.

كانت معظم المدن القديمة صغيرة مقارنة مع المدن الحديثة، وغالباً ما اقتصرت على تجمعات سكنية تضم بضعة آلاف من الأشخاص قرب المراكز الزراعية أو على طرق التجارة الرئيسية. إلا أن هناك مدينتين تعتبران استثناءً للقاعدة السابقة وهما شانغان في الصين (بنيت حوالي 800 ميلادية) وبغداد في العراق (بنيت حوالي 900 ميلادية) حيث وصل تعداد سكان كل منهما إلى حوالي مليون نسمة مما يجعلهما أكبر من العديد من مدن اليوم، في حين لم يتجاوز عدد سكان أثينا في أيام مجدها مئتي ألف نسمة.

\ حتى مئتي عام خلت لم يكن هناك إلا مدينة واحدة يفوق تعداد سكانها المليون نسمة وهي بكين في الصين، إلا أنه مع بدايات القرن العشرين أصبح عدد مثل هذه المدن ستة عشر مدينة يفوق تعداد سكان كل منها المليون نسمة، وكان السبب في تضخم المدن هذا هو الثورة الصناعية التي دفعت بالعديد من الأشخاص إلى المدن بحثاً عن فرص العمل، كما وفرت هذه الثورة البنية التحتية اللازمة لتوسع المدن، واليوم هناك 300 مدينة حول العالم يفوق تعداد سكان كل منها المليون نسمة.

### 2.3. عملية التمدن

على الرغم من عراقة ظاهرة المدن وتأصلها في التاريخ الإنساني، إلا أن مصطلح التمدن يعتبر من المصطلحات الحديثة، حيث يشير هذا المصطلح إلى الأعداد الهائلة من البشر الذين ينزحون إلى المدن، وتأثير هذه المدن بدورها على المجتمع. إن ظاهره التمدن، وفق تعريفها هذا، هي ظاهرة ذات أبعاد عالمية. فحتى أوائل القرن التاسع عشر لم تكن نسبة سكان المدن تتجاوز 3% من سكان العالم، أما اليوم فتصل هذه النسبة إلى 47% موزعة كما يلي:

75% من سكان الدول الصناعية المتقدمة و40% من سكان الدول النامية. يعود النمو المدهش الذي شهدته وتشهده المدن إلى الثورة الصناعية، حيث وفرت هذه الثورة البنية التحتية التي يمكنها تلبية احتياجات مئات الألوف وحتى ملايين البشر الذين يعيشون في مساحة صغيرة نسبياً هي المدينة.

تتمركز جاذبية المدن في عوامل الجذب التي تمثلها حياة المدينة، فبسبب تنوع أنماط العمل وتقسيماته فيها، فإن المدن توفر العديد من فرص العمل، فضلاً عما يترافق مع هذا التنوع من مصادر ترفيه متعددة تمثل إغراءً لا يقاوم للقادمين من المناطق الريفية ذك الخلفية الثقافية الأقل غنى، كما أن المدينة توفر العقلية، أي أنها تمنح سكانها الفرصة ليتحرروا من سيطرة المجتمعات المغلقة التي يعرف جميع أفرادها بعضهم بعضاً، والقوانين الصارمة التي تفرضها الحياة في القرى أو البلدات الصغيرة.

تنمو بعض المدن إلى الحد الذي يمكنها من التأثير على إقليم بكامله، وفي الحقيقة لا يصلح إطلاق اسم مدينة على مثل هذه المدن، لذا يطلق عليها اسم الحاضرة أو العاصمة (metropolis)، يطلق هذا المصطلح على المدن المركزية التي عادة ما تكون محاطة بعدد من المدن الأصغر حجماً والضواحي التابعة لها. ترتبط هذه المدن مع بعضها البعض بشبكة من وسائط النقل والاتصالات، وغالباً ما يعتمد اقتصادها على بعضها البعض، كما قد ترتبط سياسياً في بعض الأحيان حيث تشكل كتلة واحدة ذات حدود مميزة، ذات كيان سياسي إقليمي مستقل نوعاً ما في إطار السياسة العامة للدولة.

قد تستمر بعض الحواضر بالنمو والتطور متحولة إلى ميغالوبوليس (metropolis)، أي بعبارة أخرى إلى مدن ضخمة محتشدة، حيث يُستخدم مصطلح ميغالوبوليس لوصف منطقة متداخلة محتشدة تتضمن على الأقل حاضرتين مع كافة المدن والضواحي التابعة لهما.

### 3.3. نماذج نمو المدن

درس علماء الاجتماع في جامعة شيكاغو في العشرينات من القرن الماضى الطرق المتباينة للحياة في المدينة، وقد أطلق أحد هؤلاء العلماء وهو روبرت بارك (Robert Park) اسم الإيكولوجيا البشرية (Human Ecology) على العلم الذي يصف كيفية تكيف بني البشر مع البيئة التي يعيشون فيها (يعرف هذا المصطلح أيضاً باسم إيكولوجيا المدن – Urban Ecology)، ويهتم علماء الإيكولوجيا البشرية بشكل خاص بدراسة نماذج نمو المدن وطرق تطورها، حيث أن هناك أربعة نماذج رئيسية تحكم نمو المدن وتطورها وهذه النماذج هي:

- نموذج المنطقة متحدة المراكز
- نموذج القطاع
- النموذج متعدد النوى
- النموذج الطرفي

نموذج المنطقة متحدة المراكز: اقترح عالم الاجتماع إرنست برغس (Ernest Burgest) نموذج المناطق متحدة المراكز كأساس نظري لشرح كيفية نمو المدن، حيث لاحظ برغس أن المدن عادة ما تتسع انطلاقا من مركزها، بشكل مناطق أو دوائر متحدة المركز، تمثل المنطقة الأولى، أي المنطقة المركزية، المنطقة الاقصادية المركزية أي مركز المدينة التجاري (أو بعبارة أخرى وسط البلد)، في حين تعتبر المنطقة الثانية التي تحيط بالمنطقة منطقة انتقالية، حيث تشتمل على الأبنية السكنية متعددة الغرف والمنازل الخربة الآيلة للسقوط، وقد اعتبر برغس هذه المنطقة بمثابة معقل الفقر والأمراض في كل مدينة، وعلى العكس من المنطقة الثانية، فإن المنطقة الثالثة هي المنطقة التي انتقل إليها العمال الأكثر قدرة اقتصادية وذلك هرباً من جو المنطقة الانتقالية وفي نفس الوقت البقاء على مقربة من أعمالهم. تضم المنطقة الرابعة الشقق الأكثر غلاءً، الفنادق الفخمة، الفيلات والمنازل المفردة، فضلاً عن المناطق الحصرية التي يقطنها أثرياء المدينة، أما المنطقة الخامسة فمخصصة لسكنى القادمين إلى المدينة من مناطق أخرى، حيث تتألف من الضواحي، أو المدن التابعة للمدينة الأم والتي تنمو حولها.

نموذج القطاع: لاحظ عالم الاجتماع هومر هويت (Homer Hoyt) أن مناطق المدينة المتمركزة لا تشكل دوائر مغلقة، مما دفعه لتعديل نموذج برغس، بحيث يمكن لكل منطقة أن تضم أكثر من قطاع – قطاع لمنازل لطبقة العاملة، قطاع للمنازل الفخمة، وقطاع للأعمال وهكذا، وتتنافس كل هذه القطاعات ضمن نفس الأرض. من الأمثلة عن هذا التنافس الديناميكي الظاهرة التي يطلق عليها علماء الاجتماع اسم دورة الانتهاك – الارث، حيث يزداد عدد العمال المهاجرين إلى المدينة وأبناء الطبقات الفقيرة الذين يقطنون المناطق ذات الأجرة المنخفضة لدرجة أنهم يفيضون ويتسربون إلى المناطق المجاورة. الأمر الذي يدفع أبناء الطبقات الوسطى الذين يسكنون هذه الأماكن إلى الانتقال إلى المناطق المجاورة الأغلى بسبب انزعاجهم من

هؤلاء القادمين الجدد، ويتكرر الأمر في كل طبقة، حيث تنتقل الطبقة الأصلية إلى مناطق سكن طبقة أخرى وفي الحقيقة فإن نهايتي هذه الحلقة لا يلتقيان أبدا، لأن الطبقات الأكثر ثراءً لن تنتقل لتغزو مناطق سكن الطبقات الأفقر، بل ستنحى للانتقال إلى مناطق جديدة.

النموذج متعدد النوى: لاحظ الجغرافيان شانسي هاريس (Chauncey Harris) وإدوارد أولمان (Edward Ullman) أن لبعض المدن عدة مراكز، أو ما أطلقا عليه اسم النوى. تتضمن كل نواة من هذه النوى فعالية متخصصة، فمثلاً قد تتركز مطاعم الوجبات السريعة في نواة، وصالات بيع السيارات في نواة أخرى، وفي الحقيقة تتشكل هذه التجمعات إما لأسباب اقتصادية، حيث يمكن لأصحاب فعالية ما أن يحققوا ربحاً أكبر إذا ما تجمعوا في منطقة واحدة، مثل متاجر الثياب، كما تتشكل هذه التجمعات لأسباب تتعلق بطبيعة الفعالية مثلاً، كأن تكون بحاجة لمساحات واسعة من الأراضي، أو مصانع متخصصة.

النموذج الطرفي: طور شانسي هاريس نموذجاً آخر هو النموذج الطرفي، حيث يصف هذا النموذج تأثير الطرق السريعة الشعاعية على حركة الناس والخدمات بعيداً عن مركز المدينة باتجاه أطرافها.

## 4.3. الحياة في المدن

هناك خمسة أنماط رئيسية لسكان المدن وهذه الأنماط هي:

1. الكوزموبوليتانيون: الكوزموبوليتانيون هم سكان المدينة من الطلاب، المثقفين، الموسيقيين، الممثلين ومختلف الفنانين الذين جاؤوا إلى المدينة بسبب غناها بالفرص ولأجل المنفعة الثقافية بالمجمل.
2. العزاب: غالباً ما يأتي الشباب العزاب إلى المدينة بحثاً عن فرص العمل واللهو في آن معاً، وعادة ما تكون إقامة هؤلاء العزاب في المدن مؤقتة حيث سرعان ما ينتقلون إلى الضواحي بمجرد أن يتزوجوا وتصبح لهم عائلاتهم الخاصة لهم.
3. القرويون: غالباً ما ينزع أفراد هذه المجموعة إلى العيش في أحياء متجاورة تشكل ما يشبه القرية أو البلدة الصغيرة داخل المدينة الواسعة، ويساعد انطواءهم في إطار حلقاتهم المغلقة التي تقتصر على أفراد الأسرة والأصدقاء المقربين على عزلهم عن أسلوب حياة المدينة التي ينظرون إليها على أنها مثال الحياة المؤذية.
4. المحرومون: يعيش أفراد هذه الفئة في أحياء فاسدة تشبه أكثر ما تشبه أدغالاً مدنية منها بالقرى المدنية، تتألف هذه الفئة من الطبقات الأكثر فقراً في المجتمع إضافة إلى بعض المضطربين عاطفياً، ويمثل المحرومون قاع المجتمع من حيث الدخل، الثقافة، مهارات العمل، والمنزلة الاجتماعية، كما أنه نادراً ما تتاح الفرصة لأفراد هذه الفئة لتحسين حياتهم.

5. الواقعون في المصيدة: لا يمكن لأفراد هذه الفئة أن يحسنوا حياتهم بدورهم، فهم إما عجزوا عن تحمل تكاليف الانتقال عندما انتهكت الطبقات الأخرى أحياءهم، أو كبار بالسن لدرجة لا يرغبون معها بتغيير نمط حياتهم أو مكان سكنهم.

# الفصل الثاني عشر: التربية والتعليم

## الكلمات المفتاحية:

التربية والتعليم، النظم التربوية، المؤسسات التربوية، نظم التبادل الثقافي، نظرية التحليل الوظيفي، الوظائف الجلية، الوظائف الكامنة، المجتمع الائتماني، التكامل الاجتماعي، تحديد المسار، نظرية الصراع الطبقي، المناهج الخفية، معدل الذكاء، مبدأ المقابل.

## ملخص:

يتعرف الطلاب في هذه الوحدة على التطور التاريخي لمؤسسات التربية والتعليم في المجتمعات البشرية، كما تقارن هذه الوحدة بين أساليب التربية والتعليم المتبعة في الدول المتقدمة والنامية، كما تقارن كذلك بين مفهومي نظريتي التحليل الوظيفي والصراع الطبقي لمؤسسات التربية والتعليم، والدور الذي تلعبه في حياة المجتمعات البشرية.

## أهداف تعليمية:

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

1. التربية في المجتمعات الأولى
2. التربية من المنظور العالمي
   - التربية في الأمم الصناعية الأكثر تقدماً – اليابان
   - التربية في الأمم الصناعية – روسيا
   - التربية في الأمم النامية – مصر
3. التربية في النظريات الاجتماعية
   - نظرية التحليل الوظيفي
   - نظرية الصراع الطبقي

## المخطط:

- التربية في المجتمعات الأولى
- التربية من المنظور العالمي
- التربية في النظريات الاجتماعية

## 1. التربية في المجتمعات الأولى

حتى نتمكن من فهم النظم التربوية المعاصرة لا بد لنا أولاً من أن نلقي نظرة على المسار التاريخي الذي سلكته هذه النظم في تطورها، بدءاً بالمجتمعات البدائية وانتهاء بمجتمعات اليوم.

1. النظم التربوية في المجتمعات البدائية: لم تشكل المؤسسات التربوية في المجتمعات البدائية كيانات مستقلة، حيث لم يكن هناك في مثل تلك المجتمعات أبنية مخصصة للمدارس ولا معلمين يكسبون رزقهم من تعليم الآخرين، حيث كان الأطفال يتعلمون الأمور الضرورية في مختلف شؤونهم الحياتية وذلك وفق عملية متكاملة مع نضوجهم وتقدمهم في السن، وفي هذا السياق كانت النظم التربوية أشبه بنظم التبادل الثقافي، أي بنظم تعليم الحضارة منها بنظم التعليم الحديثة، حيث كان الأفراد ذوو المهارة بالصيد مثلاً يتولون مهمة تعليم الصغار الصيد، ولا تزال مثل هذه الطرق التربوية قيد الاستخدام في المجتمعات القبلية.
2. التربية في المجتمعات الأكثر تقدماً: تمكنت بعض المجتمعات التي استطاعت تحقيق فائض إنتاج كافٍ من تطوير مؤسسات تربوية مستقلة، كما هو الحال في بلاد الشام، الصين، اليونان، وشمال أفريقيا، حيث كرس بعض أفراد هذه المجتمعات أنفسهم لتعليم الطلاب من أبناء الميسورين. أي أن التربية استقلت في هذه المجتمعات عن عملية التبادل الثقافي تماماً، وأصبحت تعرف بأنها النظام الرسمي الذي تتبعه جماعة بشرية ما في تدريس مختلف المعارف، القيم والمهارات، وأصبحت بالتالي تقع على طرفي النقيض من نظم نقل الحضارة التي كانت تستخدم لتعليم المهارات التقليدية مثل الزراعة أو الصيد، وذلك لأن هذه المؤسسات التربوية إنما هدفت لتطوير الملكات العقلية والفكرية.
3. التربية في العصور الوسطى: إلا أن هذا الازدهار النسبي الذي شهدته النظم التربوية في الفترة المعاصرة لولادة السيد المسيح، سرعان ما خَفَتَ بريقه، حيث لم يكن نور العلم ليصل في أوروبا في العصور الوسطى أبعد من رهبان الكنيسة وقلة من أبناء النبلاء، في حين سيطر الجهل والأمية على باقي أفراد المجتمع. كما أن دراسات هؤلاء الرهبان اقتصرت على تعميق معارفهم اللاهوتية، ولم تكن دراسات جدية بهدف تطوير العلم أو الفلسفة أو الأدب.

## 2. التربية من المنظور العالمي

نناقش فيما يلي نظم التربية والتعليم في ثلاثة بلدان متفاوتة من حيث درجة تقدمها التقني والصناعي، كما سنتعرف على تأثير العوامل الاقتصادية والحضارية على هذه النظم.

### 1.2. التربية في الأمم الصناعية الأكثر تقدماً – اليابان

إن أحد المبادئ الأساسية التي تقوم عليها نظم التربية الحديثة هي أن هذه النظم لابد أن تعكس حضارة الأمة، وفي اليابان فإن معيار القيم الرئيسي هو الانتماء إلى الجماعة والتكامل معها، حيث لا يشجع اليابانيون التنافس بين أفراد مجتمعهم. وفي سوق العمل، فإن العمال الذين يوظفون معاً غالباً ما يعملون كفريق عمل واحد، ولا يتوقع من هؤلاء العمال أن يتنافسوا مع بعضهم البعض، بل على العكس، يشجعون على العمل كمجموعة متكاملة. يعكس نظام التربية الياباني أسلوب الحياة الجماعي هذا، حيث يعلم الأطفال في المدارس الابتدائية كيفية العمل كجماعة، ويتم تلقينهم نفس المهارات والمواد، ففي كل يوم يدرس كافة أطفال اليابان الذين هم في صف واحد نفس الصفحات من الكتب المدرسية نفسها.

يناقض نظام القبول الجامعي الياباني إلى حد بعيد نظام التعليم المتبع في المدارس وذلك لأن هذا النظام يتميز بتنافسية شديدة، حيث ينبغي على الطلاب اليابانيين الراغبين بالالتحاق بالجامعة أن يخضعوا لامتحان وطني لتحديد المستوى، ولا يُقبل في الجامعة إلا من يحقق نتائج جيدة في هذا الامتحان، وذلك بغض النظر عما إذا كان غنياً أو فقيراً، إلا أن علماء الاجتماع اليابانيين يؤكدون أنه على الرغم من أن امتحانات تحديد المستوى هذه مفتوحة الأبواب أمام جميع المتقدمين من مختلف الطبقات الاجتماعية، إلا أن أبناء الطبقات الغنية يبقون أوفر حظاً من أقرانهم في أن يقبلوا في الجامعات، وذلك لأن آباءهم ينفقون كميات أكبر من النقود لتحضيرهم لامتحانات القبول الجامعي.

### 2.2. التربية في الأمم الصناعية – روسيا

عمل الحزب الشيوعي السوفيتي بعد انتصاره في ثورة عام 1917 على تغيير نظام التربية والتعليم في روسيا (وبقية دويلات الاتحاد السوفيتي) بالشكل الذي يتوافق فيه مع خطة الحزب العامة، فحتى قبيل الثورة كان التعليم في روسيا مقتصرا على أبناء طبقة النخبة الثرية، إلا أن الحكومة السوفيتية الناشئة غيرت النظام القديم بمجرد وصولها إلى الحكم وتبنت نظاماً تعليمياً جديداً يتمحور حول القيم والمبادئ الاشتراكية، حيث كان الحزب ينظر إلى مؤسسات التربية والتعليم على أنها وسيلة لتعزيز هيمنته السياسية.

تميز التعليم في الاتحاد السوفيتي بمجانيته، بما في ذلك التعليم الجامعي، كما ركزت المناهج المدرسية اهتمامها على العلوم الرياضية والطبيعية، بالإضافة إلى بضعة مواد حول العلوم الاجتماعية، كما كانت كافة مؤسسات التربية والتعليم تُدار حسب تعليمات الإدارة المركزية في موسكو، التي عملت على توحيد المناهج في كافة مدارس الاتحاد، وبالإضافة إلى ذلك، فقد عززت هذه الإدارة أساليب التعليم المعتمدة على الحفظ والتسميع بشكل يلغي تدريجياً الملكات الفكرية المستقلة للطلاب.

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي دخلت الدولة الروسية في مرحلة إعادة بناء مؤسساتها التربوية والتعليمية، حيث سمحت بإنشاء المدارس والجامعات الخاصة لأول مرة في تاريخها الحديث، كما بدأ الأساتذة بتشجيع الطلاب على التفكير بأنفسهم، إلا أن هذه المؤسسات لا تزال تعاني من العديد من المشاكل، فبالإضافة إلى أن عليها إعادة تأهيل عشرات الألوف من المدرسين وتدريبهم على طرائق التربية الحديثة، فإنها تعاني من نقص في الميزانية، حيث تقلصت ميزانية معظم المدارس، كما أن رواتب المعلمين انخفضت إلى الحد الذي بالكاد يكفي ضرورات العيش.

بالرغم من كل الصعوبات التي تواجهها، إلا أن روسيا ستحقق في النهاية نظامها التربوي الذي يعكس ثقافتها الخاصة، حيث سيعظّم هذا النظام مآثر روسيا التاريخية. وسيعيد الاعتبار لقيمها الخاصة. كما أن الانتقال إلى الرأسمالية سيغير الأفكار الأساسية حول مفاهيم الربح والفقر وغيرها بحيث تعكس المفاهيم الرأسمالية عوضاً عن المفاهيم الاشتر اكية.

### 3.2. التربية في الأمم النامية – مصر

تناقض نظم التربية والتعليم في الدول النامية إلى حد كبير مثيلاتها في الدول الأكثر تقدماً، حيث لا تطبق الكثير من هذه الدول إلزامية التعليم التي تنص عليها قوانينها، حيث يتسرب العديد من الطلاب من المدارس سنوياً بحثاً عن عمل يعيلون به عائلاتهم المحتاجة، فضلاً عن أن التعليم الرسمي غالباً ما يكون أغلى من قدرة معظم أفراد الشعب.

على الرغم من أن مؤسسات التعليم في مصر توفر خمسة سنوات من التعليم الابتدائي المجاني إلا أن العديد من أبناء الطبقات الفقيرة لا يتلقون فعلياً أي تعليم يذكر، كما أن المدارس نفسها تعاني من العديد من المشاكل، مثل نقص المدرسين ذوي الكفاءات، ونقص التجهيزات وازدحام الصفوف. وكنتيجة لهذا الوضع المتردي فإن أكثر من نصف المصريين هم أميون. بعد المدرسة الابتدائية ينتقل الطلاب إلى المدرسة الإعدادية ومدتها ثلاث سنوات، ثم المدرسة الثانوية ومدتها بدورها ثلاث سنوات، يدرس كافة الطلاب في أول سنتين نفس المنهاج، ثم يتخصصون في السنة الثالثة، فيتوزعون بين فروع العلوم، الرياضيات، والفنون. يخضع كافة طلاب السنة الثانوية الثالثة لامتحان وطني في نهاية السنة تتحدد على أساسه فرص قبولهم في الجامعات.

اشتهرت مصر قبل بضعة قرون من ميلاد السيد المسيح بمراكزها التعليمية التي خرّجت العديد من أشهر العلماء من أمثال إقليدس وأرخميدس. اهتمت هذه المراكز بالفيزياء، الفلك، الهندسة، الجغرافيا، الطب، الرياضيات والفلسفة، كما كانت مكتبة الإسكندرية أكبر مكتبات العالم في ذلك العصر، واحتوت على العديد من المخطوطات فائقة الأهمية.

إلا أن مسيرة التربية والتعليم تراجعت بشكل كبير في مصر بعد هزيمتها أمام الإمبراطورية الرومانية، ولم تستعد بريقها السابق حتى يومنا هذا.

## 3. التربية في النظريات الاجتماعية

### 1.3. نظرية التحليل الوظيفي

تقوم النظرية الوظيفية على مبدأ أساسي هو أنه عندما تقوم جميع أجزاء المجتمع بوظائفها بشكل جيد، فإن الجميع يساهمون في استقرار وسلامة المجتمع. وهذه المساهمة نوعان فإما أن تكون مقصودة، ويُطلق عليها في هذه الحالة "وظائف جلية"، أو أن تكون غير مقصودة، وهنا يطلق عليها اسم "الوظائف الكامنة". نناقش فيما يلي أهم الوظائف التي تضطلع بها مؤسسات التربية والتعليم من وجهة نظر أصحاب النظرية الوظيفية.

1. تعليم المعارف والمهارات المختلفة: تعتبر هذه الوظيفة إحدى أبرز الوظائف الجلية لمؤسسات التربية والتعليم، حيث يقوم كل جيل بتعليم الجيل التالي كيف يشغل وظائف المجتمع الأساسية، وتضطلع المدارس بمهمة تربية الأجيال المثقفة والمعدة بالشكل الذي يتلاءم مع التطور التقني الذي تشهده مجتمعات اليوم بعد الصناعية.

في أغلب الأحيان لا يكون التعليم نفسه هو المهم، بل الشهادة التي تثبت خضوع المرء لهذا التعليم، وقد لاحظ عالم الاجتماع راندل كولينز (Randall Collins) أن الإنسان أصبح يعيش في إطار ما يعرف بالمجتمع الائتماني، أي أن وسيلة الفرز الأساسية في مثل هذه المجتمعات هي ما يحمله المرء من شهادات تثبت قدرته على القيام بهذا الأمر أو ذاك، ففي مثل هذا المجتمع يتمتع خريجو الجامعات بالعديد من المزايا وذلك لأن شهاداتهم الجامعية توحي لمن يريد توظيفهم بأنهم قادرون على أداء ما يطلب منهم من مهام بكفاءة وفعالية.

2. نقل القيم الحضارية: تعتبر هذه الوظيفة أخرى من الوظائف الجلية لمؤسسات التربية والتعليم، وهي العملية التي تقوم بوساطتها المدارس بنقل قيم المجتمع الأساسية من جيل لآخر، وبالتالي تقوم المدارس في المجتمعات الاشتراكية بتعزيز القيم الاشتراكية بين طلابها، في حين تغرس المدارس في المجتمعات الرأسمالية القيم الرأسمالية في نفوس وعقول طلابها.

فضلاً عن القيم الاقتصادية، فإن الولاء للوطن يعتبر من أهم القيم التي تسعى المدارس لتعزيزها في نفوس طلابها، ففي حين يتعلم الطلاب الأمريكيون أن الولايات المتحدة الأمريكية هي أفضل بلدان العالم، فإن الطلاب الروس في المقابل يتعلمون أن روسيا هي أم الدنيا، وكذلك الأمر بالنسبة للطلاب المصريين، السوريين، اليابانيين، وحتى الأفغان وطلاب بوركينافاسو.

3. التكامل الاجتماعي: تساهم المدارس في تحقيق ما يعرف بالتكامل الاجتماعي، أي أنها تساعد على صهر الطلاب في بوتقة واحدة متلاحمة ومتكاملة، فعندما يقوم الطلاب بتحية العلم مثلاً وإنشاد النشيد الوطني، فإن هذا يعزز وعيهم بالحكومة الكبرى، وإحساسهم بهويتهم القومية. يمتد تأثير هذه الوظيفة ليشمل صياغة الهوية القومية بشكل يحفظ استقرار النظام السياسي القائم، حيث تنتفي كافة أسباب الثورة لدى أبناء المجتمع إذا ما كانت المؤسسات الاجتماعية الرئيسية في هذا المجتمع معرفة بشكل واضح كأساس للرفاه الاجتماعي. تغدو هذه الوظيفة ذات أهمية خاصة في حالة الطبقات الفقرة، التي تعتبر منبع معظم الثوريين.

4. توزيع المهن: يعتبر توزيع المهن، أي تحديد من سيشغل هذه المهنة أو تلك، من الوظائف التي تقوم بها مؤسسات التربية والتعلم، ويُعدّ الاعتماد على الشهادات إحدى أكثر الطرق شيوعاً في تحديد من هم أهل لهذه المهنة أو تلك، حيث تفتح الشهادات الجامعية مثلاً أبواب الفرص أمام حملتها، وتغلقها أمام من لا يحملها. غالباً ما يتم تحقيق توزيع المهن بوساطة تحديد المسار، أي توزيع الطلاب على برامج تعليمية مختلفة استناداً إلى مقدراتهم الكامنة، ويؤثر هذا التوزيع على حياة الطلاب المستقبلية وعلى فرص العمل وعلى نظرة المجتمع إليهم.

### 2.3. نظرية الصراع الطبقي

يهتم أصحاب نظرية الصراع الطبقي بدراسة الكيفية التي تساعد بها مؤسسات التربية والتعليم طبقات النخبة المسيطرة على الحفاظ على استمرارية هيمنتها على باقي الطلاب، وهم بهذا يناقضون أصحاب نظرية التحليل الوظيفي الذين يركزون على أهمية هذه المؤسسات والدور الحيوي الذي تلعبه في المجتمعات البشرية. يؤكد أصحاب نظرية الصراع الطبقي في هذا السياق على أن مؤسسات التربية والتعليم تعيد هيكلة طبقات المجتمع، أي أن هذه المؤسسات تعزز التقسيم الطبقي الحاصل في المجتمعات. نستعرض فيما يلي كيف تساهم هذه المؤسسات في عملية إعادة هيكلة البنى الطبقية.

1. المناهج الدراسية الخفية: يشير مصطلح المناهج الخفية إلى القواعد غير المكتوبة التي تحدد السلوك والقيم التي تدرسها المدارس إضافةً إلى المناهج الرسمية، مثل طاعة السلطة ومواكبة السياق العام. يلاحظ أصحاب نظرية الصراع الطبقي ضمن هذا السياق أن هذه المناهج الخفية تساعد على تعزيز وتأكيد التمييز الطبقية واللاعدالة الاجتماعية.
2. عنونة الاختبارات – التمييز بوساطة معدل الذكاء (IQ): تلعب اختبارات الذكاء دوراً هاماً في الحفاظ على استمرارية النظم الطبقية، وذلك لأن الأسئلة المعتمدة في مثل هذه الاختبارات غالباً ما تكون منحازة إلى أبناء طبقة معينة ذات خلفية ثقافية محددة، وهي بالتالي لا تعتبر مقياساً حيادياً (بكل ما للكلمة من معنى) يحدد نسبة ذكاء الفرد بدقة، إنما هي تعكس لهذا الحد أو ذاك الفروق بين مختلف فئات المجتمع وتسهم في تعزيز هذه الفروق.
3. التمويل غير المتوازن: لا تتمتع المؤسسات التعليمية ضمن نفس البلد بميزانية واحدة، حيث تختلف ميزانية المدارس من منطقة لأخرى، الأمر الذي يؤثر على مستوى التعليم، ويعزز تفاوته من منطقة لأخرى، حيث غالباً ما نجد أن مدارس المدن الكبرى ذات ميزانية أعلى وبالتالي ذات سمعة أفضل من مدارس القرى أو المناطق النائية على سبيل المثال.
4. مبدأ المقابل (التماثل): استخدم عالما الاجتماع صامويل باولز (Samuel Bowls) وهربرت جينيتس (Herbert Ginits) مصطلح مبدأ المقابل للإشارة إلى الكيفية التي تعكس بها المدارس المجتمعات التي تنتمي إليها. ويعرف مبدأ المقابل بأن المواد التي تدرس في المدارس الوطنية إنما تقابل (أي تماثل) الخصائص المميزة للمجتمع.

5. النتيجة النهائية – الخلفية العائلية والنظام التربوي: إن النتيجة النهائية التي توصل إليها أصحاب نظرية الصراع الطبقي من دراساتهم لاختبارات الذكاء، والتمويل غير المتكافئ وغيرها من المحاور، هي أن الخلفية العائلية تلعب دوراً أهم من نتائج الاختبارات في تحديد مستقبل الطلاب، ولاسيما مستقبلهم الجامعي. حيث يعتبر أبناء العائلات الثرية الأوفر حظاً في دخول الجامعة، وذلك بغض النظر عن طبيعة النظام التعليمي أو النظام الاقتصادي القائم في مجتمع ما، كما أن الخلفية العرقية والدينية للعائلة تساهم إلى حد ما في رسم مستقبل أبنائها التعليمي.

# الفصل الثالث عشر: العولمة

## الكلمات المفتاحية:

العولمة، التغذية والتسلية (tittytainment)، التجارة الدولية، مناهضة العولمة، دولة الرفاهية، الرأسمالية، الأممية، الأرباح، رأس المال، الليبرالية الجديدة، الديمقراطية، وسائل الإعلام، الطبقة الوسطى، السلطة، صراع الحضارات، أسواق المال، المضاربين، النظرية النقدية، الواحات الضريبية، الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة (الجات)، منظمة التجارة العالمية، التحرير ، الليبرالية، الخصخصة، نظرية التكاليف النسبية.

## ملخص:

يتعرف الطلاب في هذه الوحدة على مفهوم العولمة، حيث تناقش هذه الوحدة الأفكار الأساسية المرتبطة بالعولمة، وأبرز نتائجها على حياة المجتمعات البشرية، كما نتعرف في هذه الوحدة على أبرز النواحي السياسية والاقتصادية ذات الصلة بموضوع العولمة.

## أهداف تعليمية:

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

- الأممية كشعار للرأسمالية
- الليبرالية الجديدة
- سلطة وسائل الإعلام
- عصر المدن
- صراع الحضارات
- أسواق المال
- الأزمة اللامحدودة في سوق العمل
- حرب تحرير رأس المال
- التكاليف النسبية

## المخطط:

- صرح الحضارة الجديدة
- تدهور سوق العمل
- الأممية كشعار للرأسمالية
- الليبرالية الجديدة
- الرأسمالية والديمقراطية
- سلطة وسائل الاعلام
- عصر المدن
- تصدع العالم الواحد
- صراع الحضارات
- أسواق المال – طبقة المضاربين
- الأزمة اللامحدودة في سوق العمل
- حرب تحرير رأس المال
- القطاعات المتضررة من العولمة
- التكاليف النسبية

## 1. صرح الحضارة الجديدة

اجتمع خمسمائة من قادة العالم في مجالات السياسة والمال والاقتصاد. في أيلول من عام 1995 في فندق فيرمونت في كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية، بدعوة من آخر رؤساء الاتحاد السوفيتي السابق ميخائيل جورباتشوف، وذلك لتبيان معالم الطريق إلى القرن الحادي والعشرين، أي الطريق المفضية إلى الحضارة الجديدة، وقد توصل هؤلاء القادة إلى النتائج التالية:

- في المستقبل القريب فإن خمس قوة العمل الحالية ستكفي لتسيير شؤون معظم الشركات وإنتاج كافة السلع، وبالتالي للحفاظ على النشاط الاقتصادي الدولي، أي أنه وبعبارة أخرى فإن 80% من العمال سيصبحون عاطلين عن العمل حيث ستنتفي الحاجة إليهم (وفي الحقيقة فإن مثل هذه النسبة تعتبر بمثابة قوة عمل احتياطية في العديد من الشركات).
- يمكن تهدئة خواطر الأعداد الغفيرة من سكان الأرض، والذين سينهار مستواهم المعاشي بتأثير المتغيرات التي ستطرأ على سوق العمل، بوساطة مزيج من التسلية المخدرة والتغذية الكافية، وقد وصف زبجينو بريجنسكي (Zbigniew Brzezinski)، مستشار الأمن القومي في عهد حكومة الرئيس الأمريكي كارتر، هذه السياسة باسم tittytainment.
- رمي مسؤولية مساعدة الأخماس الأربعة الذين سيصبحون عاطلين عن العمل على المؤسسات الاجتماعية والجمعيات الخيرية، وذلك لأن قادة العالم اعتبروا أن هؤلاء العمال، وبسبب انتفاء الحاجة إليهم، قد أصبحوا خارج خارطة المستقبل الاقتصادية والسياسية.

## 2. تدهور سوق العمل

يرجع المحللون الاقتصاديون والسياسيون أسباب تدهور سوق العمل وارتفاع نسبة البطالة في الدول المتقدمة إلى ثورة المعلومات والاتصالات، وانخفاض تكاليف النقل وحرية التجارة الدولية التي حولت العالم إلى سوق واحد، الأمر الذي أدى إلى اشتداد وطأة المنافسة، ليس في سوق السلع فحسب، بل في سوق العمالة كذلك، حيث أصبحت الشركات في مثل هذه الدول تميل إلى خلق فرص عمل في بلدان أخرى أدنى أجراً.

بدأت وسائل الإعلام بالعمل على تعزيز الاتجاه السابق وذلك بالتركيز على أن دولة الرفاهية قد أصبحت تشكل تهديداً للمستقبل وأنه لا بد من شيء من اللامساواة الاجتماعية لتحقيق استمرارية المجتمع ككل.

أصبحت المؤسسات المناهضة للعولمة في وضع لا تحسد عليه، فهي من جهة تدرك خطورة الوضع القائم إلا أنها من جهة أخرى لا تملك من الأدلة والبراهين ما يكفي للثورة عليه.

## 3. الأممية كشعار للرأسمالية

إن أممية رأس المال الجديدة تحطم الأنظمة الاجتماعية التي تقوم عليها الدول الحديثة. وتستخدم لتحقيق ذلك السياسات التالية:

- التهديد بتهريب رؤوس الأموال لتجبر الحكومات على تقديم تنازلات ضريبية هائلة
- إعلان الأرباح في البلدان التي يكون فيها معدل الضريبة منخفضاً فعلاً.

لقد صارت الأممية التي كانت في ما مضى من الزمن الشعار الذي رفعه ودافع عنه قادة الحركات العمالية الاشتراكية في مواجهة تجار الحروب الرأسماليين، شعار الطرف الآخر، وفي الحقيقة فإن أممية رأس المال الجديدة تقتلع من الجذور دولاً بمجملها، بما في ذلك الأنظمة الاجتماعية التي تقوم عليها هذه الدول، وتستخدم لتحقيق ذلك مختلف الوسائل والسياسات، فهي تهدد بهروب رؤوس الأموال لتجبر الحكومات على تقديم تنازلات ضريبية هائلة، وعندما لا يجديها التهديد نفعاً فإن هذه الرأسمالية تساعد نفسها بوضع خطط ضريبية على مستوى عال جداً فالأرباح لا تعلن إلا في البلدان التي يكون فيها معدل الضريبة منخفضاً فعلاً، وهكذا تنجح هذه الرأسمالية في تحقيق أرباح خرافية. وفي نفس الوقت، يعمل الموجهون للتدفقات العالمية لرأس المال على تخفيض مستويات أجور عمالهم الدافعين للضرائب بشكل مستمر، الأمر الذي يترتب عليه انخفاض حصة الأجور من الدخل القومي على المستوى العالمي. ومن هنا نجد أنه لا توجد أي دولة في العالم بوسعها أن تتخلص بمفردها من هذه الضغوط الرهيبة التي تمارسها العولمة.

## 4. الليبرالية الجديدة

يتزامن التكامل العالمي مع انتشار نظرية اقتصادية جديدة ينصح بها عدد كبير من الخبراء والاستشاريين الاقتصاديين، هي نظرية الليبرالية الجديدة. والمقولة الأساسية لهذه النظرية الجديدة هي ببساطة: "ما يفرزه السوق صالح، أما تدخل الدولة فهو طالح".

تبنت العديد من الدول الغربية هذه السياسة الليبرالية الجديدة، بحيث أصبح "عدم تدخل الدولة" إلى جانب تحرير التجارة وحرية تنقل رؤوس الأموال، وخصخصة الشركات والمشروعات الحكومية، أسلحة استراتيجية في ترسانة الحكومات المؤمنة بأداء السوق، وفي ترسانة المؤسسات والمنظمات الدولية المسيرة من قبل هذه الحكومات، والمتمثلة في البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية، فقد غدت هذه المؤسسات الوسائل التي تحارب بها هذه الحكومات في معركتها الدائرة رحاها حتى الآن من أجل تحرير رأس المال.

## 5. الرأسمالية والديمقراطية

مرت الرأسمالية بمراحل متعددة في مسارها الزمني نلخصها فيما يأتي:

1. الرأسمالية على طريق التدمير الذاتي: على الرغم من الانتصار الظاهري الذي حققته الرأسمالية النفاثة، فإن هذه الرأسمالية تسير في طريق التدمير الذاتي الحتمي، وذلك لأنها على وشك أن تهدم الأساس الذي يضمن وجودها، وهو الدولة المتماسكة والاستقرار الديمقراطي. فالتغيير وإعادة توزيع السلطة والثروة يقضيان على الفئات الاجتماعية القديمة بسرعة لا تعطي الجديد فرصة لأن يتطور على نحو متزامن معها. وهكذا أخذت البلدان التي تعتبر حتى الآن بلدان رفاهية اجتماعية تستهلك رأسمالها الاجتماعي الذي ضمن لها حتى الآن الوحدة والتماسك.
2. نتائج سياسات تسريح العمال وحجب وسائل التكافل الأجتماعي: إن السياسيين قصيرو النظر، فقط هم الذين يعتقدون أن بإمكان المرء أن يسرح سنوياً ملايين العمال من عملهم ويحجب عنهم بالتالي وسائل التكافل الاجتماعي، وهو ما يحدث في أوروبا حالياً، من دون أن يدفع في يوم من الأيام ثمن هذه السياسة، فخلافاً لمنطق راسمي خطط المؤسسات الصناعية الكبرى، لا يوجد في المجتمعات القائمة على أسس ديمقراطية "مواطنون فائضون عن الحاجة". فهؤلاء العمال المقهورون لا زالوا يتمتعون بحق التصويت وهم بلا شك سيستغلون هذا الحق لإعادة الأمور إلى نصابها.

3. أزمة العالم اليوم: ويمكن تلخيص الأزمة التي يعاني منها العالم اليوم بما أوردته مجلة الاقتصادي (the Economist) عام 1930 (أي بعد عام واحد من انهيار البورصة الأمريكية): "إن المعضلة العظمى التي تواجه جيلنا تكمن في أن نجاحاتنا في المجال الاقتصادي تتفوق على نجاحنا في المجال السياسي، على نحو جعل الاقتصاد والسياسة لا يسيران بخطى موحدة. فاقتصادياً، أصبح العالم يتحرك كما لو كان وحدة شاملة، أما سياسياً فإنه ظل مقسماً ومجزأً. ولقد سببت التوترات الناجمة عن هذا التطور غير المتكافئ في عدد لا يحصى من الهزات والانهيارات في تعايش المجتمع الإنساني".
4. إصلاح الدولة وإعادة الأولوية للسياسة على الاقتصاد: إذاً فإن الخطوة الأولى التي ينبغي على الساسة المنتخبين القيام بها، كفاتحة لبداية قرن جديد، هي إصلاح الدولة وإعادة الأولوية للسياسة على الاقتصاد. أما إذا أُهمل تحقيق هذا المطلب فسيتحول التشابك الدرامي السريع إلى النقيض، مفضياً إلى انهيار ذي طابع عالمي.

## 6. سلطة وسائل الاعلام

أدت ثورة تقنية الاتصالات والمعلومات إلى تغيير بنية المجتمع الإنساني إلى الأبد، حيث انتفت الحدود أمام نقل الصور بين البلدان، واليوم تبث مئات المحطات الفضائية رسائلها دون أي رقيب إلى كافة المنازل حول العالم، من الصين إلى البرازيل. وفي الحقيقة فإن سلطة الإعلام تتجاوز إلى حد بعيد ما قد يتخيله الإنسان للوهلة الأولى، ويكفينا أن نعرف أنه إذا ما قدر لمليارات العالم الستة أن ينتخبوا الحياة التي يريدونها لانتخبت الغالبية العظمى منهم وبلا تردد حياة الطبقة الوسطى الأمريكية، كما تصورها مسلسلات التلفزيون الأمريكية وأفلام هوليود، ولاختارت الأقلية المطلعة من بينهم إضافة إلى ذلك مستويات الرعاية الاجتماعية التي كانت سائدة في ألمانيا الغربية قبيل انهيار جدار برلين، ولكانت التشكيلة المترفة التي تجمع بين فيلا في البحر الكاريبي والرفاهية السويدية حلم الأحلام بالنسبة لها.

## 7. عصر المدن

سواء لأغراض ذات علاقة بالعمل أو بهدف الراحة والاستجمام، تنتقل الطبقة الوسطى من أبناء المدن المزدهرة اقتصادياً من مكان لآخر على سطح المعمورة بسرعة لا مثيل لها بالتاريخ، كما أن الاستخدام المتزايد للإنترنت يزيد من حدة هذا الانتقال، حيث تغني هذه الشبكة إحساس الأفراد بأنهم مواطنون عالميون منفتحون على العالم أجمع، متناسين أن علاقاتهم العالمية هذه غالباً ما تكون ذات أفق ضيق ومحدود.

حسب ما يتوقع الإيطالي المختص بشؤون المستقبل ريكاردو بيترلا فإن السلطة ستنحصر "في أيدي مجموعة متحدة من رجالات أعمال دوليين وحكومات مدن، همها الأول تعزيز القوة التنافسية لتلك المشاريع والمؤسسات العالمية المستوطنة في مدنها". وهذا ما يشهده العالم اليوم فعلاً، ولاسيما مع نهوض النمور الآسيوية من جديد لتغزو العالم، وارتفاع نسبة التدفقات المالية إلى مدنها التي كانت إلى أمس قريب مجهولة لمعظم سكان العالم.

وهكذا وبسرعة يصعب إدراكها تتحقق العولمة، أي "انصهار العدد الهائل من الاقتصاديات القروية والإقليمية والوطنية في اقتصاد عالمي شمولي واحد لا مكان فيه للخاملين، بل يقوده أولئك الذين يقدرون على مواجهة عواصف المنافسة الهوجاء" حسبما يصف الاقتصادي إدوارد لتوك (Edward Luttwak) العصر الجديد.

## 8. تصدع العالم الواحد

لقد استحال عالمنا اليوم بتأثير العولمة ومضاعفاته إلى مجموعة من المدن ذات التقنية العالية والتي لا تبدي أدنى اهتمام بالمشاعر الإنسانية، والتي رغم أنها بثرائها لا تزال تربط العالم إلى بعضه البعض، إلا أنها لا تعدو أن تكون مجرد أجسام غريبة عما يحيط بها من مجتمع. أما بقية العالم خارج هذه المدن فهو عالم بؤس وفاقة، لا يجد سكانه ما يسدون به رمقهم إلا بالكاد.

فضلاً عن هذا، فإن الحقيقة الأساسية في عالم اليوم هي أن ما يقل عن 400 ملياردير يمتلكون ما يقارب نصف ثروة العالم أجمع، كما أن مساعدات الدول الغنية للدول النامية هي في انخفاض مستمر. بناء على هذا كله فقد كان الكاتب المصري محمد سيد أحمد على حق عندما كتب يقول: "لقد فات الأوان" وراح يصف الحال قائلاً: "لقد قضى حوار الشمال والجنوب نحبه كما قضى نحبه صراع الشرق والغرب. كذلك، أسلمت فكرة التطور الاقتصادي الروح.

فلم تعد هناك لغة مشتركة. لا، بل لم يعد هناك قاموس مشترك لتسمية المشكلات. فالمصطلحات من قبيل "الشمال والجنوب" و"العالم الثالث" و"التحرر" و"التقدم" لم يبق لها معنى".

لما كان المجتمع يزداد من الناحية الاقتصادية تفككاً، لذا يعتقد سكان العالم المرعوبون أن الخلاص السياسي إنما يكمن في العزلة والانفصال. ومن هنا فقد تعين في السنوات الماضية إضافة عشرات الدول الجديدة إلى خارطة العالم. كما أنه وخلافاً للحروب التقليدية التي عادة ما تنشب بين الدول، أصبحت رحى الحروب تدور بين الدول نفسها، وهذه الحروب لا تلقى إلا القليل من الاهتمام الدولي على الرغم من الخسائر الفادحة التي تسببها الحروب الأهلية، سواءً اقتصادياً أم بشرياً.

## 9. صراع الحضارات

كان الأستاذ في جامعة هارفارد صموئيل ب. هنتينغون قد نشر في عام 1993 بحثاً نال شهرة واسعة يطرح في عنوانه السؤال عن "صراع الحضارات". حيث طرح هذا البحث نظرية مفادها أن المستقبل لن يتحدد من خلال اختلاف النظم الاجتماعية، كما كان الحال إبان الحرب الباردة، بل سيتحدد من خلال ما يدور بين الحضارات من صراعات دينية وثقافية.

إلا أن هذه النظرية، رغم ما نالته من تقدير في الأوساط الغربية، إنما تثير العديد من الشكوك، ولاسيما أن الدول التي لا تزال ثرية حتى الآن قد راحت هي نفسها تقوم، في ظل العالم الجديد الذي لم يعد فيه للبعد الجغرافي أية أهمية تذكر في تحديد العلاقات المتينة القائمة بين المدن، بهدم ما سادها حتى الآن من نظام للتكافل الاجتماعي بسرعة تدعو للدهشة والعجب، متسببة في خلق توترات سياسية في العالم الغربي. وفي نفس الوقت تلم الثقافة العالمية الواحدة شمل النخبة دونما أهمية تذكر للانتماء القومي.

## 10. أسواق المال – طبقة المضاربين

عبر البورصات والمصارف وشركات التأمين وصناديق الاستثمار المالي وصناديق معاشات التقاعد، دخلت مسرح القوى العالمية طبقة سياسية جديدة لم يعد بوسع أحد أياً كان، سواء كان دولة أو مشرعاً أو مواطناً عادياً، التخلص من قبضتها. إنها طبقة أولئك المتاجرين بالعملات والأوراق المالية الذين يوجهون، بكل حرية، سيلاً من الاستثمارات المالية يزداد سعة في كل يوم، ويقدرون بالتالي على التحكم برفاهية أو فقر أمم برمتها دون رقابة حكومية تذكر.

في الحقيقة فقد أضحى أفراد هذه الطبقة بمثابة المدير الفعلي لاقتصاد أقطارهم، في حين لم يعد للسياسة أي دور يذكر في إدارة العملية الاقتصادية، حيث لم يترك مضاربو العملات لأصحاب القرار السياسي إلا الشكوى وتوجيه اللوم والانتقادات دون فائدة تذكر. إلا أن الحقيقة تبقى أن ما يحدث في أسواق المال هو بلا ريب النتيجة المنطقية والطبيعية للسياسات التي انتهجتها حكومات الدول الصناعية الكبرى. حيث ألغت هذه الحكومات، انطلاقاً من النظرية الاقتصادية الداعية إلى ضرورة تحرير الأسواق من القيود والحدود، منذ السبعينات وعلى نحو منتظم ودؤوب، كل الحواجز التي كانت قد مكنتها في السابق من التحكم في تنقلات النقود ورؤوس الأموال دولياً والسيطرة عليها. أي أن هؤلاء الذين يشتكون اليوم هم فعلياً من أطلق المارد من القمقم، ولم يبدؤوا بالشكوى إلا عندما لم يعد بمقدورهم السيطرة عليه.

اليوم تعزز تقنيات الاتصالات، وفي مقدمتها شبكة الإنترنت، من سيطرة المضاربين. كما تزيد من السرعة التي يحققون بها أرباحاً خيالية تفوق إلى حد كبير ميزانيات العديد من الدول. وعلى الرغم من هذا الكم الهائل من الوقائع إلا أن غالبية السياسيين لا يزالون غير مدركين أنهم قد صاروا الآن يخضعون لرقابة أسواق المال، بل حتى لسيطرتها وهيمنتها.

تتفق الصورة الاقتصادية العالمية اليوم مع نظرية الاقتصادي الأمريكي وحامل جائزة نوبل ميلتون فريدمان، وتقوم هذه النظرية التي تدعى النظرية النقدية على فكرة غاية في البساطة، وهي أن حرية انتقال رأس المال عبر جميع الحدود الدولية هي التي ستحقق استخدامه الأمثل، وبالتالي فعلى رؤوس الأموال أن تنتقل من الدول الغنية بها إلى الدول الغنية بفرص الاستثمارات. إلا أن هذه الفكرة تنطوي على العديد من المخاطر إذ أنها تجبر الحكومات على محاباة القلة القليلة من أصحاب الثروات على حساب بقية أفراد المجتمع الأمر الذي سيؤدي إلى التضحية بالعدالة الاجتماعية خوفاً من التعرض لعقاب الانفصال عن السوق العالمية.

ليس هناك ما يثبت على نحو بيّن وأكيد ميل النظام المالي العالمي لمعاداة الدول كما يثبته العدد المتزايد لما يسمى بالواحات الضريبية، التي تعبأ برؤوس الأموال الهاربة من دفع الضرائب في بلادها. وهناك اليوم حوالي مائة منطقة متناثرة حول العالم تدير منها المصارف وشركات التأمين وصناديق الاستثمار أموال زبائنها الأثرياء، وتخلصها بانتظام من قبضة أوطانها الأم، ويتعهد حماة الأثرياء هؤلاء بأن تكون الضريبة معدومة أو في أسوأ الأحوال متدنية جداً. وتأتي جزر الكيمن الكاريبية في مقدمة المناطق الحاضنة لرؤوس

الأموال، ومن بعدها يأتي كل من جزيرتي جيرسي وجورنسي الواقعتين في القنال الإنكليزي، وإماراتي لوكسمبورغ ولشتنشتاين الواقعتين في قلب القارة الأوروبية، بالإضافة إلى جزيرة جبل طارق في المتوسط. ورغم الجهود الحثيثة التي تبذلها الحكومات في سبيل إيقاف تهريب رؤوس الأموال إلى هذه الواحات إلا أن عمليات التهريب لا تزال مستمرة وذلك بموافقة ضمنية من المصارف الكبرى، وبمساعدة تقنيات المعلوماتية والاتصالات الحديثة.

## 11. الأزمة اللامحدودة في سوق العمل

تتلخص أسباب الأزمة في سوق العمل ب:

- إعادة الهيكلة
- التخلص من التعقيد والروتين
- تقليص في فرص العمل وتسريح للأيدي العاملة، أي تفاقم البطالة
- انخفاض عدد المستهلكين في مجتمع الرفاهية

إن حرية المتاجرة بالخدمات والبضائع عبر الحدود الدولية، تؤدي إلى فقدان العمل البشري لقيمته وتقضي على فرص العمل.

يتسبب الاقتصاد القائم على الجدارة العالية والتقنية المتقدمة، عن طريق إعادة الهيكلة والتخلص من التعقيد والروتين وما يتبع ذلك من تقليص في فرص العمل وتسريح للأيدي العاملة، في تفاقم البطالة وفي خفض عدد المستهلكين في مجتمع الرفاهية. وهذا سيسبب لا بد هزة اقتصادية واجتماعية يصعب التكهن بمدى خطرها. سواءً تعلق الأمر بإنتاج السيارات أو أجهزة الكمبيوتر أو بشبكة الاتصالات الهاتفية أو بالاقتصاد المالي، فإن الحال واحدة، وهي أن حرية المتاجرة بالخدمات والبضائع عبر الحدود الدولية، تؤدي إلى فقدان العمل البشري لقيمته وتقضي على فرص العمل.

## 12. حرب تحرير رأس المال

بدأت مسيرة العلاقات الاقتصادية المعولمة منذ أن كانت أوروبا لا تزال تصارع الآثار التي خلفتها الحرب العالمية الثانية، وفي عام 1984 توصلت كل من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية إلى "الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة" المسماة اختصاراً باتفاقية الجات، وذلك رغبة من هذه الدول في خلق نظام مشترك للتجارة الدولية لأول مرة في التاريخ. وقد اتفقت الدول المشاركة في الجات على تخفيض تعريفاتها الجمركية بشكل مستمر، بحيث تنتفي أية أهمية تذكر للضرائب الجمركية بالنسبة للتجارة بين الدول المتقدمة. ومنذ تأسيس منظمة التجارة العالمية المسماة اختصاراً "WTO" ومقرها جنيف، كبديل للجات، لم تعد الحكومات تتفاوض على القيود الجمركية، بل صارت تركز جهودها على العوائق الأخرى التي تحد من حرية التجارة بين الدول، كاحتكار الدول لبعض المجالات الاقتصادية.

أصبحت سياسات التحرير، الليبرالية والخصخصة أساس الاستراتيجية السياسية والاقتصادية الأوروبية والأمريكية، والتي أعلى من شأنها المشروع الليبرالي الجديد لتغدو أيديولوجية تتعهد الدول بفرضها. وأصبح حكام الدول الغربية ينظرون إلى النظام الذي يأخذ بقانون العرض والطلب على أنه أفضل الأنظمة المتاحة على الإطلاق.

## 13. القطاعات المتضررة من العولمة

إن القطاعات المتضررة هي التي ستتحمل في المستقبل القريب عبء مخاطر السوق، وتمثل على وجه الخصوص القطاعات المنتجة للسلع ذات العمل البشري الكثيف والتي تشغل كثيراً من الأيدي العاملة غير المتعلمة أو قلة من الكوادر المختصة، حيث ستواجه كافة المشاريع القائمة في هذه القطاعات منافسة الأيدي العاملة في البلدان ذات مستويات الأجور الرخيصة. إن التخلي عن الإنتاج الواسع للسلع الكثيفة العمل البشري والتحول صوب الإنتاج المعتمد على التقنية العالية، وصوب المجتمع الخدمي أصبح هو التطور الذي يراد منه تضميد الجراح التي خلفتها المنافسة الدولية وأتمتة الإنتاج. وفي الحقيقة فإن هذا الأمل لا يعول عليه، فبالرغم من النمو الدائم، فإن معظم سكان دول منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي، باستثناء اليابان، لا يجدون ما يكفي من فرص العمل ذات مستوى الأجور المناسب.

## 14. التكاليف النسبية

وفقاً للنظريات الاقتصادية السائدة ما كان يمكن أن تفضي الحال إلى ما هي عليه سوق العمل أبداً. فالتبادل الحر للسلع عبر الحدود الدولية يؤدي، حسب ما يدعيه حاملو لواء التجارة الحرة حتى هذا اليوم، إلى زيادة مستوى الرفاهية في كافة الأمم المشاركة. ولتبرير هذا الادعاء يستشهد الجميع بنظرية التكاليف النسبية التي صاغها الاقتصادي البريطاني في القرن التاسع عشر. وكان ريكاردو قد حاول آنذاك أن يوضح أن التجارة الدولية ستحقق الخير لتلك البلدان، التي هي أدنى إنتاجية مقارنة بشركائها في التجارة. وتقوم نظرية ريكاردو الذكية هذه بمجملها على فكرة بسيطة، حيث تفسر سبب ازدهار التجارة العالمية بالسلع التي يمكن لكلا الطرفين المتاجرين إنتاجها، حيث يمكن لكل طرف أن يتخصص بإنتاج سلع محددة، وهي السلع التي يمكنه أن يحقق فيها تفوقاً من حيث التكاليف المقارنة في إنتاج هذه السلع.

اليوم بعد مضي أكثر من قرن ونصف على نظرية ريكاردو، فإنها تبدو أبعد ما يمكن عن التطبيق العملي، حيث أصبح رأس المال ينتقل عبر الحدود بسرعة تفوق سرعة أي انتقال آخر، ومعنى هذا أن الفروقات النسبية في التكاليف لم تعد هي المحرك الدافع للمتاجرة، حيث صارت العبرة للتفوق المطلق في جميع الأسواق والبلدان في آن واحد.

نشاط

نقاش حول العولمة

- هل أنت مع العولمة أم ضدها (لماذا)
- ما هي برأيك أهم التأثيرات الثقافية للعولمة
- ما هو تأثير العولمة على العالم العربي

# الفصل الرابع عشر: العائلة

## الكلمات المفتاحية:

العائلة، الزواج، حفل الزفاف، المؤسسة الاجتماعية، الزوجين، الأطفال، الاصطفاء الطبيعي، الفوضى الجنسية، الأمومة، الزواج ثنائي الأصل، العلاقة الزوجية، الإنجاب، الأطفال الشرعيون، الأقارب، المهر، الدوطة، الطلاق، إنهاء الزواج، الانفصال القانوني، الزواج الاسمي، العائلة المصغرة، العائلة الموسعة، العائلة المشاع.

## ملخص:

يتعرف الطلاب في هذه الوحدة على مفهوم العائلة من حيث هي مؤسسة اجتماعية، حيث تلقي الوحدة الضوء على مفاهيم الزواج والطلاق، كما تستعرض بعض النظريات حول أصول العائلة وارتباطها بالنوع الإنساني، فضلاً عن تعداد لبعض بنى العائلات الشائعة في المجتمعات المعاصرة.

## أهداف تعليمية:

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

- العائلة والزواج
- العائلة اختراع ينفرد به بنو الإنسان
- حفل الزفاف
- استمرارية العائلة
- أصول العائلة
- وظائف العائلة
- الطلاق
- بنية العائلة

## المخطط:

- العائلة والزواج
- العائلة اختراع ينفرد به بنو الإنسان
- حفل الزفاف
- استمرارية العائلة
- أصول العائلة
- وظائف العائلة
- الطلاق
- بنية العائلة

## 1. العائلة والزواج

إن العائلة كمؤسسة اجتماعية هي الرحم الذي يغذي الأجيال الجديدة بالآراء حول المجتمع الذي ينتمون إليه وحول كافة الأمور الأخرى التي ستؤهل أبناء هذه الأجيال ليصبحوا أعضاء كاملي الأهلية في المجتمع. وتساعد العائلة، عن طريق نقل تقاليد المجتمع الثقافية من جيل إلى جيل، على الإبقاء على استمرارية ثقافة المجتمع.

يعتبر الزواج في كل المجتمعات بمثابة عبور أو انتقال من وضع إلى وضع حيث يقطع الزواج الصلة ما بين الفرد وعائلته الأولى (أي أمه وأبيه وأخوته)، وينشئ في الوقت نفسه رابطة جديدة تتكون مع تأسيس الزوجين لعائلتهما الخاصة وبدئهما بإنجاب الجيل التالي الذي سيمر بنفس الدورة. ويتمتع الزواج بعدة خاصيات تجعله علاقة غير عادية بدرجة كبيرة:

- ينشئ الزواج مجموعة من الحقوق والواجبات المتبادلة بين الطرفين المتعاقدين بالزواج، تشمل هذه الحقوق والواجبات جميع مناحي الحياة: مثل ملكية العقارات وأدوار الذكر والأنثى وتربية الأطفال والعلاقات ما فوق الطبيعية ومؤسسات المجتمع، فضلاً عن العديد من تفاصيل الحياة اليومية الاعتيادية.
- يفترض في الزواج أن يكون أبدياً، وحتى ولم يتحقق هذا الأمر في الواقع الفعلي المعاش.
- يحدد الزواج كلاً من العلاقتين الجنسية والاقتصادية للزوجين المرتبطين وفقه.
- الزواج هو الأساس الذي تبنى عليه جميع المؤسسات الأخرى في المجتمع. كما أن السلوك الذي يتعلمه الفرد داخل العائلة يصبح نموذجاً لسلوكه في قطاعات المجتمع الأخرى

## 2. العائلة اختراع ينفرد به بنو الإنسان

ما كان للعائلة أن تتطور إلى شكلها المميز إلا لأننا ننتمي إلى النوع الإنساني وذلك للأسباب التالية:

- نشأت العائلة باعتبارها أفضل حل لحاجة الإنسان المزدوجة: العناية بالأطفال لفترة طويلة نسبياً والحصول على الغذاء من خلال توزيع العمل بين المرأة والرجل وتعاونهما.
- توفر العائلة الإطار الذي تنشأ ضمنه المؤسسات الاجتماعية المعقدة التي هي علامة مميزة لحياة بني الإنسان.
- لم يكن من الممكن أن تتطور العائلة في غياب صفة إنسانية فريدة أخرى هي سيطرة العقل الواعي على الشهوة الجنسية والأنانية والنزعة العدوانية. ولابد أن هذه السيطرة هي التي طورت قدرة الإنسان على الحب الذي ينمي العلاقات الدائمة ضمن العائلة ذاتها ومع شبكة الأقارب الواسعة.

## 3. حفل الزفاف

لأن العائلة اختراع حيوي حاسم لا يمكن أن يقوم مجتمع ما بدونها، فإن الإعلان الرسمي عن تأسيس عائلة جديدة يكتسب أهمية خاصة في معظم المجتمعات. ورغم اختلاف العادات والتقاليد المتعلقة بالزواج والعائلة من مجتمع لآخر في جميع أرجاء العالم، إلا أن العادة جرت في مختلف المجتمعات على أن يبدأ كل زواج بحفلة عرس، حتى أن الناس باتوا يجدون صعوبة في تصور أي زواج يبدأ بغير هذه الطريقة، وفي الحقيقة، فإن كافة المجتمعات الإنسانية تتطلب إقامة طقوس معينة مهما كانت بسيطة، وذلك لإعلان أن رابطة ما بين شخصين قد تحولت إلى زواج. فعند أقزام أفريقيا يقوم العريس باصطياد غزال وإلقائه أمام منزل العروس بمثابة إعلان للعموم بنشوء العلاقة الجديدة. إلا أنه وبغض النظر عن طبيعة احتفال الزواج في المجتمعات المختلفة – سواءً أكان بسيطاً أم معقداً – فإن التزام العريس والعروس بالواجبات والحقوق المتبادلة يكون واحداً في مداه ونوعية تلك الحقوق والواجبات.

مهما كان حفل الزفاف خاصاً ومحدوداً يظل حدثاً اجتماعياً لأنه يؤكد التزام شخصين بقيم المجتمع الذي يعيشان فيه، وبالمقابل يكافئهما هذا المجتمع بإعلان أن اتحادهما حلال وموثق اجتماعياً، وبالتالي يثبت شرعية أطفال ينجمون عن هذا الاتحاد، وأحقية تمتعهم بجميع الحقوق المقررة لبقية أفراد المجتمع.

## 4. استمرارية العائلة

لأن العائلة تقع في قلب أو مركز المسار الذي تطورت وفقه الحياة الإنسانية، فلا يمكن اعتبار التنبؤات التي طرحت في السنوات الأخيرة حول تدهور مستقبل العائلة، وأنها مفارقة تاريخية تخطت زمانها، تنبؤات جدية، حيث لا يمكن أن تختفي العائلة كمؤسسة اجتماعية دون أن يختفي معها أسلوب الحياة الإنسانية كما نعرفه.

وفي غياب العائلة تنحل شبكة المؤسسات الاجتماعية التي بنيت استناداً إلى مفهوم العائلة، لأن العائلة من وجهة النظر هذه هي بمثابة الإسمنت الاجتماعى الذي يلصق أجزاء المجتمع ببعضها البعض ويبقيها مع ما ينبثق عنها في وحدة واحدة، وهذه الوحدة ستنحل وتذوب بمجرد أن يتلاشى مفهوم مؤسسة العائلة.

من بين التفسيرات العديدة التي طرحها العلماء لتفسير سبب استمرار العائلة كمؤسسة اجتماعية حتى يومنا هذا، نجد أن هنك تفسيراً واحداً فقط يطغى على عقولنا، وهو التفسير المبني على الاصطفاء الطبيعي، حيث يعمل أفراد كافة الأجناس الحيوانية على تطوير قدراتهم على أن يكونوا الأفضل والأنسب حسب مبدأ "صراع البقاء وبقاء الأنسب" الداروينى، ويكون ذلك عن طريق إنجاب أكبر عدد ممكن من النسل في الجيل التالي.

إلا أن الجنس البشري يتميز عن باقي الأجناس الحيوانية بأنه طور نظام الأسرة أو العائلة بحيث تحقق له من خلال هذا النظام زيادة عدد أفراده وذلك حيث تضمن العائلة للأفراد الذكور أن أبناءهم هم فعلاً من صلبهم، مما يدفعهم بالتالي للعمل على توفر كافة الظروف التي تضمن لهؤلاء الأطفال فرصة أكبر من غيرهم للبقاء والاستمرار.

## 5. أصول العائلة

أصول العائلة: لا غرابة أن تثير مؤسسة بهذا القدر من الإنسانية، الكثير من التخمين حول أصولها الأولى،. وقد حاول العديد من العلماء تلمس أصول العائلة الأولى في سلوك الحيوانات الثديية الاجتماعية مثل الأسود والذئاب وقردة البابون، إلا أن الاختلافات بين العائلة الإنسانية والمجموعة الحيوانية الثديية إنما هي عميقة لدرجة أن أي ربط بين المفهومين لا يتعدى أن يكون، في أحسن الأحوال، مجرد رابط ضعيف وغامض. ويمكن تصنيف معظم محاولات تفسير أصل العائلة في ثلاث فئات هي:

1. الفوضى الجنسية: تقدم بهذا التفسير وجميع الآراء المنبثقة عنه عدد من فلاسفة القرن التاسع عشر السياسيين، إذ افترضوا أن العلاقات بين أفراد المجموعات الإنسانية الأولى إنما كانت تجري بشكل فوضوي دون رابط وأنها استمرت كذلك لفترة من الزمن إلى أن تولد عنها علاقات ثنائية دائمة بين الذكر والأنثى.

قدم أصحاب هذا التفسير كدليل، الحرية الجنسية الشائعة في مجتمعات اليوم البسيطة والناجمة عن عادات متأصلة، واعتبروا ذلك بقية مما كان يجري في بداية عهد الإنسان. ومن المجتمعات التي كثيراً ما يستشهد بها في هذا السياق مجتمع البولينزيين حيث يسمح بالعلاقات الجنسية قبل الزواج، ومجتمع الأسكيمو حيث تشيع عادة إعارة الزوجات. أما نقاط ضعف هذه النظرية تتلخص ب:

إن السلوك الذي يعتبر زنى في مجتمعات أخرى لا يمكن اعتباره كذلك بالنسبة للمجتمعات التي تقره وتجيزه، وتقتضي الأمانة أن نقول أن للبولينزيين والأسكيمو مفاهيم صارمة جداً فيما يتعلق بالعائلة والسلوك اللائق لأعضائها، إلا أن تلك المفاهيم مختلفة تماماً عن مفاهيمنا.

إن تفسير الفوضى الجنسية يغفل إيضاح الطريقة التي حدث بها الانتقال من الفوضى الجنسية إلى العلاقات المنظمة في إطار العائلة.

2. رباط الأمومة بين الأم وطفلها: يقوم هذا التفسير على أن العائلة بدأت من الرباط بين الأم وأولادها نظراً لأن هوية الآباء الفعليين لم تكن في الغالب معروفة (أو متيقن منها).

يجد مناصروا هذا الرأي دليلاً عليه في المجتمعات التي لم تعمر طويلاً والتي كانت تنسب الأبناء لأمهاتهم وتعترف بالقرابة عن طريق الأم فقط. وفي مثل هذه المجتمعات يرث الأفراد عن طريق الإناث ويسكن العرسان عند أم العروس.

يمكن ربط العائلات التي تكون السلطة فيها للأنثى، في كل الحالات تقريباً، بالظروف البيئية ونوع التكيف الذي حققه المجتمع وليس لأي رباط قائم بين الأم وأطفالها، فالمجتمع الذي يعتمد في سد حاجاته الغذائية على زراعة إناثه للحدائق أو البساتين المحيطة بالمنازل، كما هي الحال عند الهنود الحمر في ولاية أريزونا – يحتمل أن يكون من هذا النوع، إلا أن هناك استحالة في أن تكون المجتمعات التي تقوم على صيد الذكور للطرائد من هذا النوع.

3. الزواج ثنائي الأصل: يؤكد هذا التفسير على أن العائلة نشأت من رباط موثوق بين الذكر والأنثى في بداية تاريخ الإنسان، كما كان آدم وحواء النموذج الأصلي للعائلة في الجنة.

يؤكد أصحاب هذه النظرية أنه حتى في تجمعات الإنسان الأولى كانت هناك حاجة وضرورة لأن تنجب الإناث صغاراً وأن يقوم الذكر بحماية الإثنين.

يعتبر أصحاب هذه النظرية أن الأزواج الأولى إنما نشأت لأن بني الإنسان يتمتعون بغريزة الزواج، وهذا بالتأكيد غير صحيح. وذلك لأن الغريزة هي عبارة عن طراز سلوكي تلقائي عام يشمل جميع أفراد النوع، ثم أنه رغم الأقوال الشائعة حول مفاهيم مثل غريزة حفظ الذات وغيرها، فإن من المسلم به حتى الآن أن غرائز بني الإنسان لا تشتمل على غريزة الزواج، ولو كانت هذه الغريزة موجودة بالفعل لكانت عامة وشائعة بين جميع الناس. ومن هنا نستنتج أن هذا الطرح لا يعدو أن يكون مجرد فرضية أو في أحسن الأحوال تفسيراً جزئياً لأصل العائلة الأول، إلا أن التفسير الكامل غير معروف وقد لا يعرف أبداً. وأغلب الظن أن العائلة نشأت وتطورت مع نشوء الترميز واستعمال الأدوات وصنعها وتقسيم العمل والمشاركة والتأكيد على السلوك الاجتماعى كأجزاء من العملية التكيفية المعقدة التي أدت إلى أن يصبح الإنسان إنساناً.

## 6. وظائف العائلة

### 1.6. مقدمة

وظائف العائلة: تشمل النشاطات التقليدية للعائلة المناحي التالية: الإنجاب واستمرار النوع، الاقتصاد، التربية والتعليم، الدين، الحماية، إعطاء المركز الاجتماعي، الترفيه وتوفير الصحبة (للفرد أثناء نموه وبعد بلوغه).

تغير وظائف العائلة: تختلف نشاطات العائلة اليوم كثيراً عما كانت عليه في الماضي، حيث لم تعد العائلة تقوم ببعض تلك النشاطات بالقدر الكافي، ولم تعد توليها الاهتمام اللازم، كما أن بعض النشاطات الأخرى قد تعقدت كثيراً لدرجة أنها قلما تُعتبر سلوكاً عائلياً تقليدياً. إلا أن هذه التغيرات في العائلة الحديثة لا تعبر عن أي تراجع في أهمية العائلة أو حدوث أي تمزق في النسيج الاجتماعي، بل إن ما تشهده العائلة الحديثة اليوم هو ما كان يحدث للعائلة دوماً في الماضي، أي مجرد محاولة لتحقيق تكيف العائلة مع المجتمع المتغير، وهذا أمر طبيعي لأن العائلة جزء من المجتمع، بل هي اللبنة الأساسية التي يقوم عليها.

دور العائلة في المجتمعات القديمة: في مجتمعات الماضي، كانت العائلة وحدة منتجة ومستهلكة في آن واحد. حيث كانت العائلة كلها تخرج لجمع الغذاء أو تعمل لإنتاجه بشكل تعاوني، وكثيراً ما كانت الأدوات تصنع في المنزل، وبمعنى آخر كانت العائلة تكسب عيشها بكدها وتستهلك نتاج جهودها.

دور العائلة في المجتمعات الحديثة: تحولت العائلة في المجتمعات الحديثة إلى وحدة استهلاكية بشكل أساسي، حيث انتقل عبء الإنتاج إلى المصانع، إلا أن هذا التغيير لا يعني بالضرورة انحلال العائلة واندثارها بل يدل على تحول في التوكيد على وظائفها.

وظائف العائلة في المجتمعات الحديثة: من بين الوظائف التي ما زالت تقوم بها العائلة في المجتمع الحديث، نجد أربع وظائف على قدر من الأهمية وهي:

أولاً – استمرارية المجتمع

ثانياً – اعتراف المجتمع بشرعية الأطفال

ثالثاً – ضبط السلوك الجنسي في المجتمع

رابعاً – الوظيفة الاقتصادية

## 2.6. استمرارية المجتمع

استمرارية المجتمع: توفر العائلة بنية اجتماعية تمكن المجتمع من الاستمرار، وهذا يتضمن قبل كل شيء إنجاب الصغار والعناية بهم خلال فترة الطفولة الطويلة. كما يحتاج الأطفال إلى ما هو أكثر من الرعاية والعناية، فهم بحاجة لأن يكون نموهم بشكل يجعلهم أعضاء مساهمين إسهاماً كاملاً في المجتمع، ويجب أن يتعلم الطفل، بالإضافة للمهارات الضرورية للبقاء، الطريقة التي تعمل بها الثقافة بكاملها. ورغم أن هناك مؤسسات أخرى كالمدرسة تضطلع بهذه المهمة، إلا أن العائلة لا تزال هي العنصر الأكثر فعالية في تأهيل الأطفال الاجتماعي، حيث أنها المصدر الأول للتمييز بين الصواب والخطأ، والمرجعية الأولى التي يستقي منها الطفل آراءه حول العالم.

## 3.6. اعتراف المجتمع بشرعية الأطفال

اعتراف المجتمع بشرعية الأطفال: إن الوظيفة الهامة الثانية التي ما زالت العائلة تقوم بها هي توفير السبيل لاعتراف المجتمع بالأطفال على أنهم شرعيون وأكفاء لحمل تقاليده. وتتبع القواعد المتعلقة بشرعية الأطفال من ترخيص المجتمع للوالدين بالأبوة والأمومة بموجب معايير يحددها كل مجتمع لأفراده. تهتم المجتمعات، البسيطة والمعقدة على السواء، بأمر شرعية الأطفال، لأن الطفل الوليد غالباً ما يكون مركز علاقات هامة تشمل الأدوار التي يلعبها الوالدان الحقيقيان وشبكة أقاربهما، في العناية بهذا الوليد وتربيته، ولا يمكن لمثل هذه العلاقات أن تقوم إلا إذا كان للوليد أب معترف به، أو على الأقل ذكر راغب في أن يقوم بهذا الدور.

### 4.6. ضبط السلوك الجنسي في المجتمع

ضبط السلوك الجنسي في المجتمع: إن الوظيفة الهامة الثالثة التي ما زالت العائلة تقوم بها حتى اليوم هي ضبط السلوك الجنسي في المجتمع. وتختلف المجتمعات الإنسانية اختلافاً كبيراً في تسامحها أو تشددها فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية، ولكن حتى أكثر المجتمعات تسامحاً تضع، على الأقل، بعض المعايير والقواعد الضابطة لهذا السلوك. وتطبق هذه القواعد لما فيه مصلحة المجتمع حيث تقلل من النزاعات الجنسية بين العائلات، ومن نسب إنجاب الأطفال غير الشرعيين.

### 5.6. الوظيفة الاقتصادية

الوظيفة الاقتصادية: كانت العائلة قبيل الثورة الصناعية لا تزال وحدة الإنتاج الأساسية في المجتمع، وكان الزواج يقتضي دمج القدرات الإنتاجية أكثر من دمج القلوب، وهناك مثل فلاحي ألماني قديم يقول: "في الزواج، ليس الرجل هو الذي يتزوج الفتاة، بل الحقل يتزوج الحقل، والكرم يتزوج الكرم، والماشية تتزوج الماشية"، ويعترف المجتمع بالأهمية الاقتصادية للزواج وذلك حيث يفرض انتقال قسم من الثروة من عائلة أحد الزوجين إلى عائلة الآخر. وفي حين أن الغالبية العظمى من المجتمعات تتطلب من العريس أو أقاربه دفع مهر ما (سواء أكان نقوداً أو بضائع) إلى عائلة العروس وذلك تعويضاً لهم عن فقدانهم لخدماتها الاقتصادية. ولتأكيد حق العريس في نسب الأطفال الذين سيولدوا نتيجة هذا الزواج، نجد أن بعض المجتمعات (كما هو الحال في الهند مثلاً) لا تزال تطالب عائلة العروس بدفع مهر أو دوطة إلى عائلة العريس، وغالباً ما يكون المقصود من هذه الدوطة مساعدة العريس مالياً لتغطية نفقات العناية بالعروس، والتي تعتبرها تلك المجتمعات عبئاً اقتصادياً.

## 7. الطلاق

يمكن اعتبار الطلاق مشكلة متأصلة في الزواج نفسه حيث يتعين على كل من الذكر والأنثى، والذين قد يكون لكل منهما آماله وتطلعاته وقيمه الخاصة، أن يعيشا معاً بأقل قدر ممكن من التوتر والتعاسة. ونبين فيما يلي أهم الأجراءات والخصائص المتعلقة بالطلاق

1. الاجراءات الوقائية: طورت بعض المجتمعات طرقاً خاصة بها لتخفيف الضغوط الزوجية، حيث تشجع بعض المجتمعات أفرادها على تخفيض سقف آمالهم وتوقعاتهم المتعلقة بالزواج، فالصينيون مثلاً، يشيدون بالحياة العائلية لكنهم في نفس الوقت يحذرون أبناءهم من توقع أن يكون الزواج حباً وسعادة دائمين. كما أن بعض المجتمعات غير الصناعية تعطي لعلاقات المرء بأقاربه الأولوية على العلاقات الزوجية، مما يعطي الأقارب حق التدخل لفض النزاعات التي قد تحدث بين الزوجين.
2. إنهاء الزواج: على أن هذه الإجراءات الوقائية على تنوعها قد لا تكون كافية في بعض الأحيان، ونتيجة لذلك ما زالت العديد من الزيجات تنتهي نهايات غير سعيدة، ويختلف رد المجتمع تجاه فشل الزواج من مجتمع لآخر، فإسبانيا وإيرلندا مثلاً تسمحان بالانفصال القانوني إلا أنهما لا تجيزان الطلاق. وفي بعض المجتمعات التي تسود فيها سلطة شبكة القرابة يحافظ على الزواج بالاسم فقط حيث يخفض الزوجان التعيسان علاقتهما إلى أدنى مستوى ممكن.
3. سلبيات الطلاق: تظهر أساليب إنهاء الزواج السابقة والتي يقصد منها تخفيف الضغط الناجم عن زواج غير سعيد، أن أفراد المجتمع ينحون بشكل عام إلى تحاشي الطلاق والبحث عن حلول بديلة للتعاسة الزوجية، وهذا بدوره يوضح أهمية الحفاظ على الزواج في العديد من المجتمعات، ذلك أن الطلاق يهدد المجتمعات وبخاصة الصغيرة منها حيث ينقض الاتفاقات التي عقدت بين العائلات، كما يؤدي إلى إثارة الفرقة والبغضاء نتيجة الاختلاف على إعادة المهور أو الدوطات المدفوعة مسبقاً فضلاً عما يخلفه الطلاق من مشاكل متعلقة بحضانة الأطفال.
4. حسنات الطلاق: يعتبر الطلاق أكثر البدائل المتاحة للمجتمعات لوضع حد للنزاعات الزوجية عدلاً لكلا الطرفين، إذ أنه البديل الوحيد الذي يسمح للزوجة كما يسمح للزوج بأن يبدأ بداية جديدة وأن يتزوج مرة أخرى. كما لا يعكس الطلاق أي احتقار للمؤسسة الزوجية، وفي الحقيقة غالباً ما يكون المطلقون أكثر أفراد المجتمع تحمساً لهذه المؤسسة، حيث نجد مثلاً أنه في ربع الزيجات القائمة في الولايات المتحدة يكون أحد الطرفين مطلقاً سابقاً.

## 8. بنية العائلة

### 1.8. العائلة المصغرة

نوجز فيما يلي مفهوم العائلة المصغرة وخصائصها:

1. العائلة المصغرة: تتنوع بنية العائلة وتختلف اختلافاً جذرياً من مجتمع لآخر، وفي المجتمعات الحديثة تعتبر العائلة المصغرة أو "النووية" الشكل الأمثل للعائلة، وتتألف مثل هذه العائلة من الزوجين الذين يعيشان بشكل مستقل مع أولادهما الذين لم يتزوجوا بعد، دون وجود أقارب آخرين.
2. دور العائلة المصغرة في المجتمع: نظراً لأن العائلات المصغرة هي الأكثر شيوعاً في المجتمعات الغربية، يمكن اعتبارها اللبنة الأساسية في بناء مثل هذه المجتمعات. إلا أن هذه النظرة لا يمكن تعميمها على باقي المجتمعات، حيث أن العائلة المصغرة في الحقيقة نادرة إلى حد كبير، ولا تنتشر إلا في المجتمعات الصناعية وبعض مجتمعات الصيد والالتقاط البدائية.
3. علاقة العائلة المصغرة بالأقارب: ينصب اهتمام العائلة المصغرة على الزوجين بدلاً من شبكات الأقارب الواسعة، وهذا ينتج سلوكاً اجتماعياً من نوع خاص.

إذ أنه نظراً لضعف تأثير الأقارب على حياة الزوجين، لا يمكن لهذين الزوجين أن يطلبا من هؤلاء الأقارب العون والمساعدة بقدر كبير، كما لا تعير العائلة المصغرة عادة أذناً مصغية لمطالب الأقارب، وبسبب ضعف هذا التعاون المتبادل تقل ضغوط الأقارب على العائلة المصغرة، الأمر الذي يتيح للفرد المزيد من الحرية في اختيار شريك حياته.

### 2.8. العائلة الموسعة

نوجز فيما يلي مفهوم العائلة الموسعة وأهم خصائصها:

1. العائلة الموسعة: هي العائلة التي تعيش تحت سقفها عدة أجيال من تلك العائلة في آن واحد، ففي الصين مثلاً يعيش الزوج والزوجة مع أبنائهما العازبين وبناتهما العازبات وأولادهما المتزوجين وزوجاتهم وأولادهم الصغار وأبناء أحفادهم الذكور.
2. فوائد العائلة الموسعة: تمثل العائلة الموسعة اختراعاً اجتماعياً ذا فوائد عديدة، وذلك بغض النظر عن تركيبها الذي يختلف من مجتمع لآخر، حيث تقدم العائلة الكبيرة العون لأفرادها متى احتاجوه، وتزداد أهمية هذا التكافل العائلي في المناطق غير المدنية والمجتمعات غير الصناعية.

3. دور العائلة الموسعة في المجتمع: لا تعتبر العائلة الموسعة بدورها الشكل الأكثر شيوعاً للعائلة، وذلك لأنها تمثل تكيفاً خاصاً في المجتمعات التي تفتقر إلى مؤسسات راسخة تعمل على تنفيذ القوانين والعناية بالفقراء والعجزة وإقراض المال أو تقوم بمشاريع جماعية تعاونية. كما أن بنية العائلة الموسعة بحد ذاتها هي بنية هشة ضخمة وغير مرنة.

وهذا يفسر ندرة وجود مثل هذا النمط من العائلات حتى في المجتمعات التي تعتبر وجودها نموذجاً عائلياً مرغوباً.

4. ضعف بنية العائلة الموسعة: يفسر ضعف بنية العائلة الموسعة بالأسباب التالية:

- تحتاج العائلة الموسعة، حتى تستطيع أن تمارس دورها الفعلي، إلى المهارات الإدارية لقادة أقوياء، وغالباً ما تتمثل مثل هذه القيادة في ذكر قوي يوجه علاقات العائلة الخارجية مع العائلات الأخرى، وأنثى تدير الشؤون الداخلية لمنزل العائلة المركزي، إلا أن مثل هؤلاء القادة نادراً ما يتواجدون في كل جيل.
- كما تعاني العائلة الموسعة من نقطة ضعف أخرى، وهي أنها نظراً لأنها تميل إلى العناية بالفقراء والعجزة والمرضى من أفرادها، فغالباً ما لا تجد مثل هذه العائلة سبيلاً إلى التخلص من هؤلاء الأفراد أنفسهم والذين يشكلون عبئاً على مواردها الاقتصادية.
- إن التوسع الذي يطرأ على هذه العائلة جيلاً بعد جيل يزيد من صعوبة توفير الموارد الاقتصادية اللازمة لإعالة كافة أفراد العائلة، هذا بمعزل عن النكسات والهزات الاقتصادية التي لا بد أن تصيب مثل هذا النمط من العوائل على امتداد حياة أجيالها.

## 3.8. العائلة المشاع

العائلة المشاع: ينتشر في هذه الأيام شكل تجريبي محور من أشكال العائلة الموسعة هو "العائلة المشاع" التي تتألف من عدد من الشباب من الجنسين والذين يسعون إلى الثورة على العائلات الصغيرة التي ترعرعوا في كنفها. لا تتألف العائلات المشاع هذه من أناس تربط بينهم صلة الدم أو النسب، بل من عدة عائلات مصغرة مستقل بعضها عن بعض بالإضافة إلى عدد من الذكور والإناث غير المتزوجين الذين اختاروا العيش المشترك، وتكون الملكية في مثل هذه العائلات مشاعاً بين جميع أفرادها.

# الفصل الخامس عشر: كيف يجري علماء الاجتماع أبحاثهم

## الكلمات المفتاحية:

الحس السليم، نموذج البحث، الفرضية، المسح الإحصائي، القياسات المستترة، التحليل الثانوي، التجربة، التعريفات العملياتية، صلاحية المعطيات، موثوقية المعطيات، التحليل الوصفي، التحليل الكمي، المراقبة المباشرة، العينة، العينة العشوائية، الإدارة الذاتية، المقابلات المهيكلة، المقابلات غير المهيكلة، الأسئلة المفتوحة، الأسئلة المغلقة، الاستبيانات السببية، الارتباط، الأسبقية الزمنية، الارتباط الكاذب، المتحول المستقل، المتحول التابع، معامل الارتباط. الارتباط الإيجابي التام، الارتباط السلبي التام، القياسات المستترة، طرق البحث الكمية، طرق البحث الوصفية.

## ملخص:

يتعرف الطلاب في هذه الوحدة على مفهوم البحث الاجتماعي، وتتعرض الوحدة المنهجية إجراء هذا النوع من الأبحاث من خلال عرض النموذج النظري المتبع، وتكتفي هذه الوحدة بعرض الطرق الست للبحث، والمشكلات العملية التي قد تواجه الباحث، وتنتهي هذه الوحدة بعرض دراسة لحالة عملية.

## أهداف تعليمية:

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

1. نموذج البحث
2. أهم طرق البحث
   - المسح الإحصائي – إدارة الاستبيانات والمقابلات
   - المراقبة المباشرة
   - التحليل الثانوي
   - التجربة – السبب والنتيجة – مفهوم علاقة الارتباط
   - القياسات المستترة
3. العوامل التي يجب أخذها بالحسبان عند انتقاء طريقة البحث

## المخطط:

- مقدمة
- نموذج البحث
- طرق البحث
- انتقاء طريقة البحث الأفضل
- علم الاجتماع بين النظرية والبحث
- كيف تلتقي النظرية مع الواقع؟
- الخلاصة: ربط البحث بالنظرية

## 1. مقدمة

ما هو الموضوع الاجتماعى الذي يصلح للدراسة؟

- على المستوى الماكروي: مواضيع واسعة النطاق، كالعلاقات بين الأعراق والتعاون بين الأمم
- على المستوى الميكروي: قضايا فردية، كيفية تفاعل الناس في الشارع

ومن حيث المبدأ إن أي سلوك إنساني جدير بالدراسة

لمَ نحتاج لإجراء الأبحاث الاجتماعية؟

- هل يكفي الاعتماد على الحس السليم؟
- يجري علماء الاجتماع أبحاثاً تطال كل جوانب الحياة الاجتماعية

## 2. نموذج البحث

يتبع علماء الاجتماع، في إجراء أبحاثهم، نموذجاً من ثماني خطوات، وهي بالترتيب:

- اختيار الموضوع: حيث يقوم الباحث بتحديد الموضوع الذي يرغب بدراسته
- تعريف المشكلة: يقوم الباحث في هذه الخطوة بتأطير المشكلة وتعريفها بصيغة أكثر صورية
- مراجعة الأدبيات ذات الصلة: إذ يتوجب على الباحث العودة إلى ما أنجز من قبل حول الموضوع نفسه
- صياغة فرضية: لابد للباحث من فرضية أولية يسعى لإثباتها
- انتقاء طريقة البحث: تتوفر للباحث عدة تقنيات يمكنه أن يستخدم أياً منها، وفقاً لطبيعة المسألة والفرضية التي وضعها. وسنتناول طرق وتقنيات إجراء الأبحاث بمزيد من التفصيل لاحقاً
- جمع المعطيات
- تحليل النتائج
- مشاركة النتائج: ونقصد بها عرض النتائج على الوسط العلمي، وقد يؤدي ذلك إلى تحفيز أفكار إضافية لدى الباحثين، تدفعهم إلى وضع فرضيات جديدة، قد تنسجم مع الفرضية الأولية التي انطلق منها البحث، وقد تتعارض معها

ويبين المخطط الانسيابي الاتي خوارزمية البحث الاجتماعي المستند الى الخطوات المذكورة أعلاه
ولكن هذا النموذج مثالي، فعند إجراء الأبحاث في العالم الحقيقي، قد نقوم بإجراء خطوتين معاً، وقد نستغني كلياً عن إحدى الخطوات

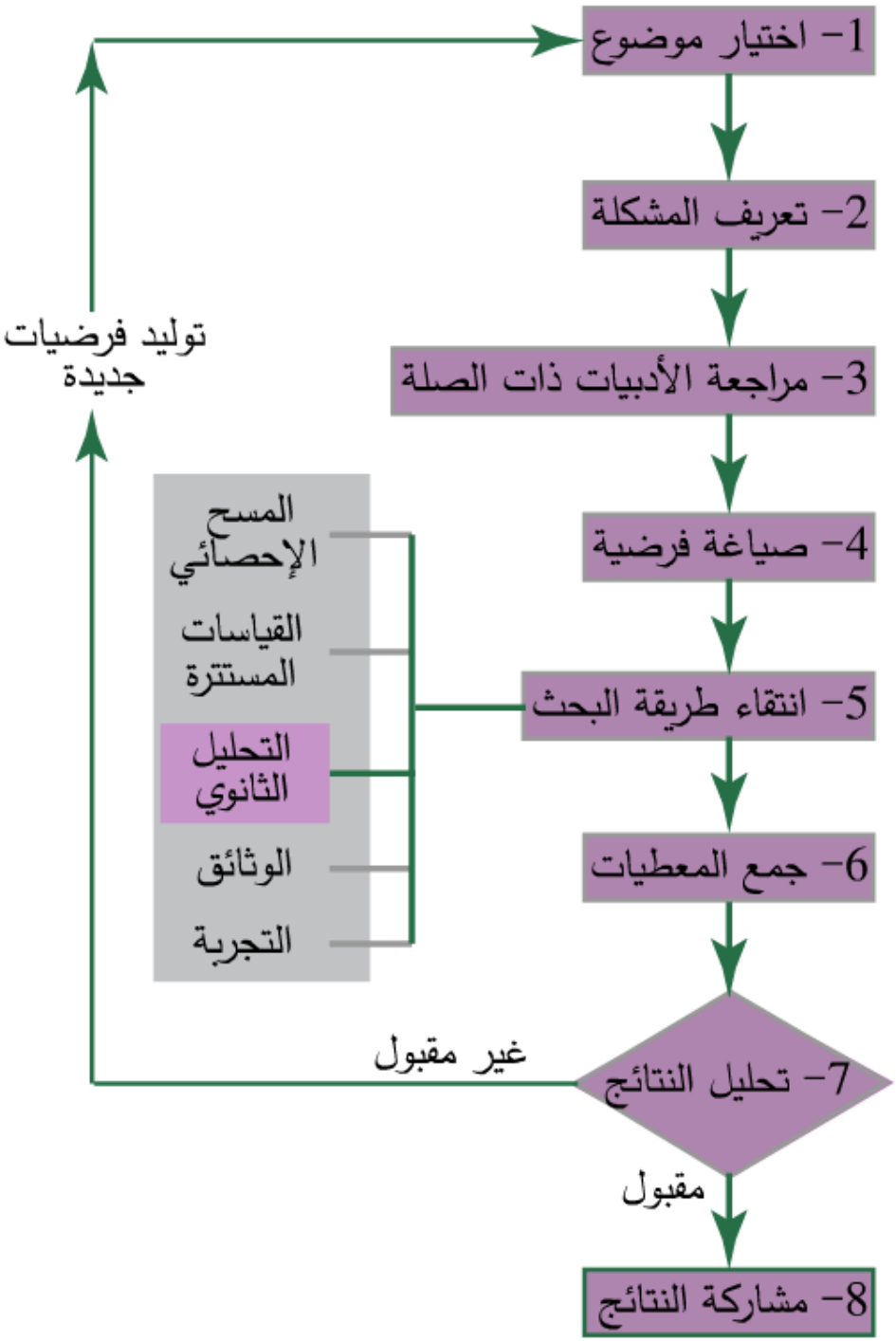

لنتناول فيما يلي كل خطوة من الخطوات السابقة بقليل من التفصيل:

1. اختيار الموضوع: يشكل انتقاء موضوع البحث الخطوة الأولى، فما هو السلوك الذي ترغب بمعرفة المزيد عنه؟

يَجري العديد من علماء الاجتماع وراء فضولهم والرغبة بالمعرفة، فيما يختار البعض موضوعاً ما لأن تمويل دراسته جيد ومجدٍ بالنسبة لهم، فيما قد يختار البعض مشكلة اجتماعية، كمشكلة العنف المنزلي، رغبة منهم بمساعدة الناس على فهمها، وربما المساعدة على حلها.

2. تعريف المشكلة: الخطوة الثانية هي تعريف المشكلة، أي تحديد ما تريد أن تعرفه عن الموضوع. ويركز علماء الاجتماع عادة على نقاط دقيقة، فيطورون لذلك أسئلة تتمحور حول جزء محدد من المشكلة.

3. مراجعة الأدبيات ذات الصلة: الخطوة الثالثة هي مراجعة وقراءة الأدبيات المتوفرة لمعرفة ما كُتب عن المشكلة من قبل، وهذا يساعد الباحث على الإحاطة بالمشكلة، وتحديد ما أصبح معروفاً عنها، وبالتالي ما يحتاج للدراسة. وقد توحي هذه القراءة للباحث بأفكار حول الأسئلة التي يجب أن يطرحها، وقد يجد الباحث في بعض الأحيان أن المشكلة قد أصبحت معروفة تماماً، وبالتالي لا يوجد مبرر لإجراء البحث.

4. صياغة فرضية: الخطوة الرابعة هي صياغة فرضية، وهي عبارة عن حكم عما تتوقع أن تجده وفقاً لتنبؤات مبنية على نظرية ما.

تتنبأ الفرضية بعلاقة بين متحولين أو أكثر، بعوامل تتغير من فرد لآخر، أو من وضع لآخر. فالحكم "يكون الرجال المنعزلون اجتماعياً أكثر استعداداً للإساءة إلى زوجاتهم من الرجال المندمجين اجتماعياً" هو فرضية. تحتاج الفرضيات إلى تعريفات عملياتية، أي إلى توصيف الطرق المناسبة لقياس المتحولات. ففي هذا المثل نحتاج إلى تعريفات عملياتية لثلاثة متحولات: العزلة الاجتماعية، الاندماج الاجتماعي، والإساءة للزوجة.

5. انتقاء طريقة البحث: الخطوة الخامسة هي اختيار طريقة البحث، أو تصميم البحث، أي تحديد الوسائل التي ستُستخدم لجمع المعطيات. ويستخدم علماء الاجتماع عادة ست طرق بحث أساسية، ويجب على الباحث أن يختار الطريقة التي تسمح بالحصول على أفضل الإجابات لأسئلته. سنستعرض هذه الطرق في الفقرة القادمة.

6. جمع المعطيات: يقوم الباحث في الخطوة التالية بجمع المعطيات، ويجب أن يهتم هنا بصلاحية هذه المعطيات، وبكلمات أخرى، أن يتأكد أن التعريفات العملياتية تقيس فعلاً ما ينوي قياسه. ففي هذا المثل يجب أن تتوثق من أنك تقيس بالفعل كلاً من العزلة الاجتماعية والاندماج الاجتماعي وإساءة المعاملة، وليس شيئاً آخر. فإساءة المعاملة مثلاً تبدو واضحة، لكن ما يعتبره البعض إساءة

لا يراه البعض الأخر كذلك، فأي وجهة نظر ستتبنى؟ بكلمات أخرى، يجب أن تكون تعريفاتك العملياتية دقيقة بحيث يكون واضحاً للجميع ما الذي تقيسه.

يجب أن تتأكد أيضاً من موثوقية المعطيات التي تجمعها، وتعني الموثوقية هنا أن يحصل أي باحث آخر يستخدم تعريفاتك نفسها، على حقائق منسجمة مع تلك التي عثرت عليها. وإذا كانت تعريفاتك العملياتية متدنية المستوى فقد تقع على نتائج غريبة، فقد تجد أن نسبة العنف بين الأزواج تصل إلى 10% فيما يجد باحث آخر أنها تصل إلى 30%، ولن يكون بحثك في هذه الحالة موثوقاً.

7. تحليل النتائج: بعد أن تجمع المعطيات لا بد من البدء بتحليلها، ويمكنك أن تختار هنا تقنية وصفية أو تقنية كمية. يمكن أن يُستخدم التحليل الوصفي لتصنيف الروايات والأفلام والبرامج التلفزيونية. والغاية هنا هي إعادة إنتاج عالم الأشخاص الذين تدرسهم. ويمكنك هنا استخدام بعض البرمجيات الحاسوبية لتنظيم المعطيات، مثل برنامج Nvivo.

أما التحليل الكمي فيُستخدم للتعامل مع الأعداد، ويمكنك باستخدام البرمجيات المتوفرة اليوم أن تختبر في ثوان قليلة معطيات كان تحليلها يحتاج إلى أيام، وربما أسابيع. يستخدم علماء الاجتماع والعديد من الطلاب الجامعيين واحداً من برنامجين أساسيين شائعي الاستخدام، هما Microcase و SPSS (الحزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية). وتقدم بعض البرمجيات الأخرى، مثلMethodologist's Toolchest، نصائح وتوجيهات حول تجميع المعطيات.

8. مشاركة النتائج: بعد تحليل المعطيات، وكخطوة أخيرة، لا بد من عرض النتائج (أو جزء منها على الأقل إذا كان نطاق البحث واسعاً). عليك في هذه المرحلة أن تكتب تقريراً تعرض فيه ما وجدته على الأوساط العلمية. يجب أن يتضمن التقرير مراجعة للخطوات الأولى التي قمت بها، إذ سيساعد ذلك الآخرين على تقييم بحثك بشكل أفضل، كما يُفضل أن يستعرض ما نُشر من قبل حول الموضوع لتبين بذلك كيف يرتبط بحثك بما أنجز سابقاً، ولتبرهن كيف يدعم بحثك النظريات المتعلقة بالموضوع، أو يعدلها، أو حتى يدحضها.

وعندما تنشر بحثك في كتاب، أو كما يجري عادة في مجلة علمية، يصبح جزءاً من الوسط العلمي، وبإضافة نتائج الأبحاث، واحداً تلو الآخر، تُبنى المعرفة العلمية.

## 3. طرق البحث

تعتمد الطريقة التي تختارها على الأسئلة التي تريد الإجابة عليها، ونلخص فيما يلي الطرق الست التي يمكن استخدامها، وهي:

### 1.3. المسح الإحصائي

أولا –.المفهوم العام للمسح الاحصائي

تُجمع المعلومات وفقاً لإجراءات معيارية بحيث يجري طرح الأسئلة نفسها، بالطريقة نفسها تقريباً، على كل فرد تستعمل عبارة "مسح إحصائي" اليوم في أغلب الأحيان لوصف وسيلة جمع المعلومات من عينة من الأشخاص. وتكون هذه "العينة" عادةً مجرد جزء صغير من المجموعات السكانية الخاضعة للدراسة.

على سبيل المثال، تخضع عينة من الناخبين لأسئلة قبل عملية انتخابية لتحديد كيف ينظر الجمهور إلى المرشحين والقضايا... وقد يُجري مصنع ما مسحاً إحصائياً للسوق المحتمل قبل إدخال منتج جديد... كما قد تفوض هيئة حكومية مؤسسةً متخصصة إجراءَ مسح إحصائي لجمع معلومات حول الحقائق التي تحتاج إليها لتقييم التشريع القائم أو لسن تشريع جديد مقترح.

وبالإضافة إلى أن للمسوح الإحصائية مجموعة متنوعة من الأهداف، يمكن أيضاً إجراؤها بطرق كثيرة، بما في ذلك عبر الهاتف أو بالبريد أو شخصياً. وبالرغم من ذلك، تتميز كافة أشكال المسح الإحصائي ببعض الخصائص المشتركة. وخلافاً للإحصاء الرسمي، حيث يخضع جميع أعضاء السكان للدراسة، يجمع المسح الإحصائي معلومات من جزء صغير فقط من مجموعة معنية من السكان، ويعتمد حجم العينة على هدف الدراسة.

وفي المسح الإحصائي الأصلي، لا يتم اختيار العينة كيفما اتفق أو فقط من الأشخاص الذين يتبرعون بالمشاركة، إنما الاختيار

يتم علمياً بحيث سيكون أمام كل شخص من المجموعة السكانية فرصة معقولة لاختياره. وهكذا يمكن أن تعكس نتائج العينة بشكل موثوق المجموعة السكانية الأوسع.

تجمع المعلومات وفقاً لإجراءات معيارية ليطرح على كل فرد الأسئلة نفسها بالطريقة نفسها تقريباً. وليس هدف المسح الإحصائي وصف أفراد معينين يشكلون عن طريق الصدفة جزءاً من العينة، إنما الحصول على لمحة عامة عن المجموعة السكانية.

إن المعيار المهني لكافة هيئات المسح الإحصائي المعروفة هي أنه يجب عدم الكشف عن هوية المجيبين الفرديين لدى الكشف عن نتائج المسح الإحصائي. ويجب تقديم كافة نتائج المسح الإحصائي على شكل موجز مجهول الهوية تماماً، مثل الجداول والرسوم الإحصائية.

### ثانيا – بعض الوسائل الشائعة لإجراء المسح الإحصائي

يمكن تصنيف المسح الإحصائي وفقاً لوسيلة جمع البيانات. والمسح الإحصائي عن طريق البريد أو المقابلة الهاتفية أو المقابلة الشخصية هي الأكثر شيوعاً. وغالباً ما يتم أيضاً استخراج البيانات من عينات السجلات الطبية وغيرها. وفي وسائل أحدث لجمع البيانات، يتم إدخال المعلومات مباشرة في أجهزة حاسوبية، إما على يد شخص متدرب على إجراء المقابلة أو بشكل متزايد على يد المجيب. وأحد الأمثلة المعروفة جيداً هو قياس مشاهدي التلفزيون الذي يتم عن طريق أجهزة موصولة بعينة من أجهزة التلفزيون التي تسجل تلقائياً القنوات التي تتم مشاهدتها.

- المقابلات الهاتفية هي وسيلة فعالة لجمع بعض أنواع البيانات ويتزايد استعمالها حالياً. وهي تتناسب جيداً مع حالات يكون فيها عامل الوقت أساسياً ومدة المسح الإحصائي محدودة
- المقابلات الشخصية في منزل أو مكتب المجيب مكلفة أكثر من المسح الإحصائي البريدي أو الهاتفي. إلا أنها قد تكون لازمة خصوصاً إذا لزم جمع المعلومات المتنوعة
- تجمع بعض المسوح الإحصائية مختلف الوسائل. فعلى سبيل المثال، قد يستعمل عامل في المسح الإحصائي الهاتف للعثور على المجيبين المؤهلين (مثل العثور على أفراد متقدمين في السن ومشتركين في برنامج الرعاية الطبية) ثم يحدد مواعيد للمقابلة الشخصية

### ثالثا – مواضيع عملية في المسح الإحصائي

لنفترض أنك تريد أن تعرف عدد النساء اللاتي يتعرضن لإساءة المعاملة كل عام. طبعاً قد يتعرض بعض الرجل الأزواج لإساءة المعاملة، لكن دعنا نركز الأن على النساء. قد يكون المسح واحدة من الطرق المناسبة لهذه الغاية، حيث تسأل الأفراد سلسلة من الأسئلة. لكن قبل أن تبدأ البحث، عليك أن تتعامل مع مواضيع عملية يواجهها معظم الباحثين، ونعرضها فيما يلي.

- اختيار عينة

من الناحية النظرية المثالية قد ترغب بمعرفة الإجابة على أسئلتك من كل النساء في العالم، لكن من الواضح أن دراسة كهذه مستحيلة بالنظر إلى الموارد المتاحة لك، ولابد لك من الناحية العملية، من حصر المجتمع الذي ترغب بدراسته.

لنفترض أن مواردك (البشرية والمالية والزمنية) تخولك التحري عن إساءة معاملة الزوجات في جامعتك فقط، ولنفترض أيضاً أن عدد طلاب هذه الجامعة كبير بحيث لا يمكنك أن تتحرى وضع كل النساء المتزوجات اللاتي في الجامعة. عليك الآن إذاً أن تختار عينة، أي مجموعة أفراد من المجتمع الذي تستهدفه الدراسة. ستؤثر كيفية انتقائك للعينة على نتائج دراستك، ولذلك تُعتبر عملية الانتقاء هذه أساسية وهامة. فالاقتصار مثلاً على دراسة حالات النساء اللاتي سجلن في صف علم الاجتماع، أو تلك اللاتي سجلن فقط في صفوف الفيزياء المتقدمة، سيؤدي بك إلى استخلاص نتائج منحرفة عن الواقع الفعلي.

وبما أنك ترغب بتعميم خلاصة بحثك على مجتمع الجامعة كله، تحتاج إلى عينة تمثل هذا المجتمع تمثيلاً جيداً، فكيف تحصل على عينة كهذه؟

قد يكون الأفضل هنا انتقاء عينة عشوائية، لكن هذا لا يعني أن تقف على زاوية طريق ضمن حرم الجامعة لتطرح أسئلتك على كل امرأة تمر قربك بالصدفة، ففي العينة العشوائية يجب أن يتمتع كل أفراد المجتمع بالفرصة نفسها للاشتراك بالدراسة. في هذه الحالة، ولأن المجتمع الذي تدرسه مؤلف من كل النساء المتزوجات اللاتي سجلن في الجامعة، يجب أن تتساوى احتمالات إدراج أية امرأة كحالة للدراسة (سواء كانت في السنة الأولى أو في سنة التخرج أو غيرها).

كيف يمكن أن تحصل على عينة عشوائية؟ تحتاج أولاً إلى قائمة بأسماء كل النساء المتزوجات في الجامعة، ثم تضع رقماً لكل اسم في القائمة ثم تعتمد على جدول أرقام عشوائية لتحديد النساء اللاتي ستدخلهن في العينة. (يمكنك الحصول على سلسلة أعداد عشوائية بالعودة إلى الجداول التي تتضمنها كتب الإحصاء، أو باستخدام برنامج حاسوبي لتوليدها).

ولأن العينة العشوائية تمثل الآن المجتمع الذي تدرسه، يمكنك أن تعمم نتائج بحثك على كل النساء المتزوجات في الجامعة، حتى أولئك اللاتي لم تشملهن الدراسة.

- **طرح الأسئلة الحيادية**

بعد أن تتخذ قرارين بشأن المجتمع الذي ستدرسه والعينة التي تمثله، عليك أن تتحقق أن أسئلتك حيادية. يجب أن تسمح أسئلتك للأفراد المستجوبين بالتعبير عن آرائهم، وإلا ستحصل على إجابات منحازة لا تستحق العناء. فإذا طرحت مثلاً سؤالاً مثل: "ألا تعتقدين أنه يجب إرسال الرجل الذي يضرب زوجته إلى السجن؟" ستدفع بالإجابة باتجاه الموافقة على الحكم بالسجن.

وتعتبر الاستبيانات والمقابلات من وسائل طرح الآسئلة الحيادية

يمكن إدارة الاستبيانات، أي قائمة الأسئلة التي ستُطرح، بطرق مختلفة. وهناك تقنيتان أساسيتان لإدارة الاستبيانات، تتمثل الأولى بالطلب إلى الأفراد أن يجيبوا عليها بمفردهم، وتسمح هذه الإدارة الذاتية بإدراج عدد أكبر من الأفراد ضمن العينة دون كلفة كبيرة، لكن بالمقابل يفقد الباحثون السيطرة على الموضوع. فهم بذلك لن يعرفوا الظروف المحيطة بكل فرد أثناء إجابته على الأسئلة، فقد يؤثر آخرون على إجاباتهم.

أما التقنية الثانية فهي المقابلة، حيث يطرح الباحث أسئلته على الأفراد وجهاً لوجه، أو عبر الهاتف أو البريد الإلكتروني مثلاً. تمتاز هذه الطريقة بأنها تسمح للباحثين بطرح السؤال عدة مرات بالطريقة ذاتها، بالمقابل تحتاج هذه الطريقة إلى الكثير من الوقت، وقد تؤدي إلى إنقاص عدد أفراد العينة. من ناحية أخرى، قد يؤثر المقابِل على ما يقوله الفرد، فبدلاً من أن يقول كل فرد ما يشعر به فعلاً، سيميل بوجود الباحث (أو من يجري المقابلة) إلى إعطاء إجابات "مقبولة اجتماعياً". وقد يرغب الشخص المستجوَب بكتابة رأيه الحقيقي على استبيان بدون اسم، ولن يكون مستعداً لقول هذا الرأي لأي شخص آخر، بل إن بعض الأفراد يميلون إلى تقديم إجابات يعتقدون أن من يجري المقابلة يرغب بسماعها

في بعض الحالات تكون المقابلات المهيكلة هي الأفضل، ويعتمد هذا النمط من المقابلات على طرح أسئلة مغلقة النهاية، وهي الأسئلة التي تلي كلاً منها قائمة الأجوبة الممكنة. تمكن إدارة هذه المقابلات بسرعة أكبر، كما تسهل ترميز (تصنيف) الإجابات بحيث يمكن إدخالها إلى برنامج حاسوبي لتحليلها.

يفضل بعض الباحثين المقابلات غير المهيكلة، والتي تعتمد على طرح أسئلة مفتوحة النهاية، وهي الأسئلة التي تترك للآخر أن يجيب بكلماته وعباراته نفسه. ومع أن هذه الأسئلة تسمح لك باستطلاع طيف الآراء بمجمله، لكنها بالمقابل تجعل مقارنة الإجابات أمراً صعباً للغاية. حاول مثلاً أن تقارن بين الإجابات المختلفة التالية، والتي حصلت عليها نتيجة طرح السؤال: "ما الذي يدفع الرجل برأيك إلى إساءة معاملة زوجته؟":

"إنهم رجال مرضى".

"أعتقد أنهم عانوا مشكلات مع أمهاتهم".

"علينا أن نشنقهم".

ويبين الجدول الآتي مثالا على هذين النوعين من الأسئلة

| سؤال مغلق النهاية | سؤال مفتوح النهاية |
|---|---|
| برأيك، أي من الإجراءات التالية يجب اتخاذه بحق من يدان بتهمة الاعتداء على زوجته؟<br>• المراقبة الصارمة<br>• السجن لفترة محددة<br>• الإلزام بتأدية خدمة اجتماعية<br>• الإخضاع لعلاج نفسي<br>• الحكم بالطلاق<br>• لا شيء – إنها مسألة عائلية تخص الزوجين | ماذا تعتقد أنه علينا أن نفعل بحق من يدان بتهمة الاعتداء على زوجته؟ |

- **بناء الثقة**

يدفعنا المثال السابق إلى التفكير بموضوع آخر على درجة عالية من الأهمية لا علاقة له بالإجراءات العلمية المتعلقة بعمليات المسح. هل تعتقد أن امرأة تعرضت للإساءة مستعدة لإعطاء أجوبة صريحة لأسئلة يطرحها عليها شخص غريب؟ فلو قمت مثلاً باعتراض طريق امرأة تسير في الشارع لتسألها إن كان زوجها قد ضربها، لن تكون لديك عندئذ أسس متينة تشجعنا على أخذ نتائج بحثك بجدية. لذلك يتوجب على الباحث أن يبني نوعاً من الثقة بينه وبين الفرد المستجوب، خاصة عندما يتعلق الأمر بمواضيع حساسة، أي تلك التي قد تحرض لدى الآخرين الإحساس بالحرج أو الخجل، أو أية عواطف حساسة أخرى.

تعلمنا التجربة أنه بعد بناء الثقة يمكن أن يتحدث المستجوب عن مواضيع شخصية وحساسة، ويمكن بناء هذه الثقة مثلاً عبر البدء بطرح أسئلة عادية وغير ذات أهمية. من الأمثلة الشهيرة التي يمكن أن نعرضها هنا مسألة حالات الاغتصاب، ففي كل عام يجري باحثون أميركيون مسحاً للجرائم، فيقابلون لهذه الغاية عينة من 100000 شخص، فيسألونهم أولاً إن كان أحدهم قد تعرض للسرقة أو السطو، وبعد بناء شكل من الثقة مع المستجوبين يطرحون على النساء أسئلة تتعلق بجرائم الاغتصاب. وقد تبين لهم أن عدد حالات الاغتصاب هو ثلاثة أضعاف العدد الذي تذكره الإحصاءات الرسمية.

### 2.3. المراقبة المباشرة

في هذه الطريقة، يشارك الباحث الوضع المدروس من خلال مراقبة ما يحدث، لكن هل يمكن تطبيق هذه الطريقة في دراسة موضوع حول إساءة معاملة الزوجات؟ من الواضح أن تطبيق هذه الطريقة لا يعني أن يجلس الباحث في منزل أحدهم ويراقب زوجته. ومع أن هذا الموضوع واسع للغاية، لكن هناك العديد من الأسئلة التي لا يمكن الإجابة عليها إلا باستخدام طريقة الملاحظة.

لنفترض أنك مهتم بدراسة أثر إساءة معاملة الزوجة، قد ترغب لذلك بمعرفة أثر المعاملة السيئة على علاقة المرأة بزوجها، أو على أحلامها وآمالها، أو على نظرتها للرجال. يمكن للملاحظة أن تلقي الضوء على أسئلة كهذه.

### 3.3. التحليل الثانوي

في هذه الطريقة يقوم الباحث بتحليل معطيات جمعها آخرون. يرغب الباحثون عادة بتجميع المعطيات بأنفسهم، إلا أن قلة الموارد، المالية خاصة، قد تجعل ذلك مستحيلاً. إضافة إلى ذلك، فقد تتضمن المعطيات الموجودة معلومات قيمة غير ذات صلة بالأهداف الأصلية للباحث الذي جمعها، ويمكنك تحليل هذه المعطيات لأهدافك الخاصة.

لهذه الطريقة مشاكلها أيضاً، إذ كيف يمكن للباحث أن يتحقق من أن المعطيات قد جُمعت وسُجلت بدقة، وأن من جمعها لم يؤثر على إجابات الأفراد المستجوبين؟

### 4.3. الوثائق

تُعتبر دراسة الوثائق، أي المصادر المكتوبة، الطريقة الرابعة التي يمكن أن يستخدمها الباحثون. فبهدف التحري عن بعض مناحي الحياة الاجتماعية يمكن للباحث أن يتفحص عدة أنواع من الوثائق، كالكتب والصحف والمذكرات اليومية والسجلات المصرفية وتقارير الشرطة وملفات دوائر الهجرة والسجلات التي تحتفظ بها المنظمات الأخرى.

فلدراسة موضوع إساءة معاملة الزوجات، يمكنك أن تتفحص تقارير الشرطة وسجلات المحاكم. يمكنك من خلال هذه الوثائق أن تعرف نسبة الشكاوى التي أدت إلى اعتقال الزوج، أو نسبة الرجال المعتقلين الذين تمت إدانتهم أو وضعهم تحت المراقبة. وتعتبر هذه الوثائق كافية إذا كان هذا ما تريد أن تعرفه عن الموضوع، أما بالنسبة للأسئلة الأخرى فقد لا تكون هذه السجلات مفيدة.

### 5.3. التجربة

يعتقد الكثير من الناس أن من يعتدي على زوجته هو مريض بحاجة إلى علاج نفسي، لكن لا أحد يعرف إن كان العلاج النفسي يؤدي بالفعل إلى نتائج جيدة. وبصراحة أكثر، لا أحد يعرف كيف يحول رجلاً كهذا إلى زوج محب، لكن في كل الأحوال من الهام أن نعرف إن كان العلاج النفسي مفيداً في هذه الحالات. قد ترغب لذلك بإجراء تجربة، فالتجارب مفيدة عندما نرغب بتحديد الأسباب والنتائج.

لنفترض أن قاضياً ما أعجبته فكرتك فأعطاك الحق بمقابلة الرجال الذين اعتقلوا بسبب الإساءة لزوجاتهم. قد تقوم لذلك بقسمة مجموعة الرجال عشوائياً إلى مجموعتين، فقد يساعدك هذا التقسيم على ضمان توزع المميزات الفردية بالتساوي بين المجموعات، ونقصد بالمميزات الفردية مميزات مثل: الوضع الفيزيولوجي (الجسماني)، عدد مرات التوقيف، درجة خطورة الجرائم المرتكبة، زمن السجن، مستوى التعليم، العمر، العرق، وما إلى هنالك من صفات فردية أخرى. وتقرر بعد ذلك أن تخضع إحدى المجموعتين. وسنسميها مجموعة التجربة، إلى شكل ما من أشكال العلاج النفسي، بينما لا تخضع المجموعة الأخرى، وسنسميها مجموعة المراقبة، لأي نوع من أنواع العلاج النفسي.

نطلق اسم المتحول المستقل على المتحول الذي يسبب تغيره تغيراً في متحول آخر، وفي هذا المثال يلعب العلاج النفسي دور المتحول المستقل، أما المتحول الآخر والذي قد يتغير تبعاً لتغير المتحول المستقل فهو سلوك الرجل، ونسميه المتحول التابع.

ولمتابعة تغير المتحول التابع تحتاج إلى استخدام تعريف عملياتي، فإما أن تعتمد على التقارير الواردة من الزوجات، وإما على السجلات التي تشير إلى إعادة توقيف أحد الرجال. لكن هذا التعريف ليس دقيقاً، فبعض النساء لن يبلغن عن الإساءة مرة أخرى، كما أنه قد لا يجري توقيف رجل أساء إلى زوجته مرة ثانية، لكنه يبقى أفضل ما يمكنك أن تقوم به

لنفترض أنك اخترت مؤشر إعادة الاعتقال كتعريف عملياتي للمتحول التابع، ووجدت أن معدل إعادة توقيف الرجال الذين خضعوا للعلاج النفسي أدنى من معدل إعادة توقيف الرجال الذين لم يتلقوا علاجاً نفسياً، يمكنك أن تستنتج عندئذ أن سبب اختلاف المعدلين هو العلاج النفسي. أما إذا لم تجد فرقاً بين المعدلين فيمكنك أن تستنتج أن العلاج النفسي لم يكن فعالاً.

نظرياً، من الأفضل اختبار عدة أنماط من العلاج النفسي، فقد يكون بعضها مفيداً، كما يمكن مثلاً أن تجرب المعالجة الذاتية بتوجيه الرجال إلى قراءة بعض المقالات أو الكتب المنتقاة، أو مشاهدة بعض الأفلام.

## أولا – الشروط التي ينبغي في العلاقة السببية

تعني السببية أن تغير قيمة متحول ما يعود إلى تغير قيمة متحول آخر، ويجب أن تتوفر في العلاقة ثلاث صفات ضرورية للقول إنها علاقة سببية: الارتباط، والأسبقية الزمنية، وغياب الارتباط الكاذب. لنحاول التحري عن هذه الصفات في العلاقة بين إساءة معاملة الزوجة والإفراط في تعاطي الكحول.

- الشرط الأول: الارتباط

لدينا متحولان يُقال إنهما مرتبطان. فإذا كان الرجل المعتدي قد شرب الكحول نقول إن هناك ارتباطاً بين شرب الكحول وفعل الاعتداء.

الاعتداء على الزوجة + شرب الكحول

يفترض بعض الناس أحياناً أن الارتباط هو نفسه السببية، فيستنتجون في حالة كهذه أن إقدام الرجل على شرب الكحول سيؤدي به إلى الاعتداء على زوجته:

شرب الكحول ⟵ الاعتداء على الزوجة

إلا أن الارتباط بين متحولين لا يعتبر إثباتاً لوجود العلاقة السببية، فقد يكون أي من المتحولين مسبباً للآخر، فقد يقدم بعض الرجال، بعد الاعتداء على زوجاتهم، على شرب الكحول:

الاعتداء على الزوجة ⟵ شرب الكحول

- الشرط الثاني: الأسبقية الزمنية

إن الشرط الضروري الثاني هو الأسبقية الزمنية (يجب أن يسبق تغير أحد المتحولين تغير المتحول الآخر). تعني الأسبقية الزمنية وقوع حدث ما قبل وقوع حدث آخر، فلكي يكون المتحول سبباً (المتحول المستقل) يجب أن يسبق تغيره المتحول الذي يتغير (المتحول التابع). فإذا لم يقدم الرجل على شرب الكحول إلا بعد الاعتداء على زوجته لا يمكن القول إن شرب الكحول سبب للاعتداء على الزوجة. ومع أن أهمية هذا الشرط واضحة، إلا أنه من الصعب تأكيده في بعض الدراسات.

- الشرط الثالث: غياب الارتباط الكاذب

قد يكون الارتباط بين متحولين كاذباً، والمسبب الفعلي هو متحول ثالث

في مثالنا: يشير بعض علماء الاجتماع إلى ما يسمونه بالثقافة الذكورية:

الاعتداء على الزوجة ⟵ الثقافة الذكورية

قد يكون المتحول الثالث مسبباً للاثنين الآخرين:

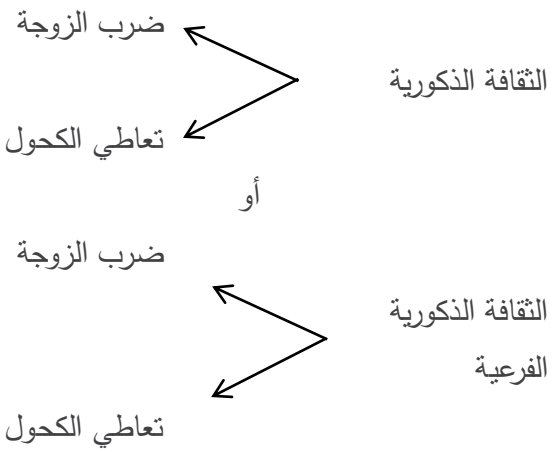


إن الشرط الضروري الثالث هو غياب الارتباط الكاذب. ويعتبر إثبات هذه الصفة صعباً للغاية، فحتى لو لاحظنا الارتباط بين المتحولين، وأثبتنا الأسبقية الزمنية لا نعرف بعد إن كان شرب الكحول هو السبب، فمن الممكن أن يكون هذا الارتباط كاذباً، فقد يكون المسبب هو متحول ثالث لا تمكن ملاحظته بسهولة. ويشير بعض علماء الاجتماع إلى ما يسمونه بالثقافة الذكورية على أنها ذلك المتحول الثالث.

الثقافة الذكورية ⟵ الاعتداء على الزوجة

ففي مجتمع تغيب عنه العدالة وتسود فيه هيمنة فئات ما على غيرها، ينظر بعض الرجل إلى المرأة على أنها كائن أدنى يمكنه أن يحملها سبب إحباطه. في الواقع، قد يكون هذا المتحول الثالث مسبباً للإفراط في شرب الكحول وللاعتداء على الزوجة.

لكن بما أن كل رجال المجتمع خاضعون للثقافة نفسها، ولا يقدم إلا بعضهم على ضرب زوجته، لا بد من وجود متحولات أخرى ذات صلة بالموضوع. فربما تؤدي بعض الثقافات الفرعية في المجتمع، والتي تشجع على العنف واحتقار المرأة، إلى ظاهرتي ضرب الزوجة وتعاطي الكحول.

في كل الأحوال، لا بد من الإشارة إلى أن السلوك البشري معقد للغاية، فمن المحتمل أن يكون للسلوك عدة مسببات، وقد تكون متداخلة أحياناً.

### ثانيا – قوة علاقة الارتباط

يعني الارتباط، ببساطة، ظهور متحولين أو أكثر معاً، وكلما تكرر ظهورهما معاً أكثر كلما كانت العلاقة بينهما أقوى.

وللإشارة إلى قوة العلاقة، يستخدم علماء الاجتماع عدداً يسمونه معامل الارتباط، فإذا ترابط متحولان دوماً، أي كانا يظهران معاً على الدوام، يقال إن بينهما ارتباطاً إيجابياً تاماً، وتكون قيمة معامل الارتباط عندئذ هي الواحد. تظهر هذه الدرجة من الارتباط في العديد من الظواهر الطبيعية، كالعلاقة بين نقص المياه وموت الأشجار، لكن ظواهر الحياة الاجتماعية أكثر تعقيداً بكثير من الظواهر الطبيعية أو الفيزيائية، وعن المستحيل أن نجد ارتباطاً بهذه الشدة بين مظاهر السلوك البشري.

قد تظهر بين متحولين أيضاً علاقة ارتباط سلبي تام، وهذا يعني أن ظهور متحول ما يترافق دوماً بغياب الآخر. ويُشار عندئذ إلى شدة هذا الارتباط بالعدد (1−). ويشكل البحث عن الارتباط بين المتحولات واحداً من أكثر المواضيع أهمية في الأبحاث الاجتماعية.

## 6.3. القياسات المستترة

يستخدم الباحثون أحياناً قياسات مستترة، وذلك بمراقبة سلوك أشخاص لا يعرفون أنهم تحت المراقبة. فعلى سبيل المثال درس بعض الباحثين معدل استهلاك الكحول في مدينة، تشير التقارير الرسمية إلى عدم استهلاك سكانها للكحول، من خلال عد الزجاجات الفارغة الملقاة في القمامة، كما قام بعضهم بقياس تقلص قطر المساحة التي يشغلها طفل في مقعده لدراسة ما تولده روايات الأشباح من خوف لديه. وقد اعتمد البعض على المنجزات التكنولوجية لإجراء قياسات مستترة، فعمدوا إلى زراعة أجهزة تعقب بالأشعة تحت الحمراء في بطاقات الشراء لتعقب حركة الزبائن ضمن المتاجر، وقد استفاد البائعون من نتائج هذه المراقبة لتوزيع المواد ضمن المتاجر بطريقة أفضل.

قد يُعتبر استخدام وسائل كهذه لإجراء بحث عن إساءة معاملة الزوجات أمراً غير أخلاقي، فمراقبة سلوك الناس لدى تواجدهم في أماكن عامة مقبولة، أما مراقبة سلوكهم في مواقفهم الخصوصية فغير مقبولة.

## 4. انتقاء طريقة البحث الأفضل

كيف يقرر الباحث الاجتماعي أي طريقة سيستخدم من بين هذه الطرق؟ هناك أربعة عوامل أساسية تؤثر في قرار الباحث:

- العامل الاول : تُعتبر الموارد عاملاً حاسماً، لذا يجب أن يلجأ الباحث إلى الطرق التي لديه ما يكفيها من الموارد، فقد يرغب الباحث مثلاً بإجراء مسح إحصائي، لكنه يجد بالمقابل أن الموارد المالية المتاحة له لا تسمح بإجراء هذا المسح، فيلجأ بالنتيجة إلى دراسة الوثائق المتوفرة.
- العامل الثاني : إمكانية الوصول إلى الأفراد موضوع الدراسة، فإذا كان أولئك الأفراد يعيشون في أماكن متباعدة من البلاد، قد يلجأ الباحث إلى إرسال الاستبيانات عبر البريد الإلكتروني، أو إلى إجراء المسح عبر الهاتف، مع أنه يفضل إجراء المقابلات وجهاً لوجه.
- العامل الثالث : يتعلق بهدف البحث، أي بالأسئلة التي يرغب الباحث بالتحري عنها والإجابة عليها، فقد تكون إحدى الطرق مناسبة لبعض الأسئلة وغير مناسبة لبعضها الآخر. فالملاحظة المباشرة مثلاً، جيدة لاستطلاع ميول وأهواء الناس، بينما يفضل استخدام التجارب للإجابة على أسئلة تهدف إلى تمييز الأسباب والنتائج.
- العامل الرابع : خلفية الباحث ونوع التدريب الذي تلقاه يلعبان دوراً هاماً في قراره .في الجامعة يدرس الطلاب عدة طرق بحث، لكنهم لن يكونوا قادرين إلا على تطبيق بعضها، ولذلك يستخدم كل منهم، بعد تخرجه، الطرق التي تدرب عليها أكثر أثناء الدراسة. ولذلك يميل الطلاب الذين تلقوا تدريباً على طرق البحث الكمية، التي تركز على الإحصاءات والأعداد والقياسات، إلى استخدام المسح الإحصائي، بينما يميل أولئك الذين تدربوا على طرق البحث الوصفية، التي تركز على الوصف والملاحظة وتفسير سلوك الأفراد، إلى استخدام طريقة المراقبة المباشرة.

قد يجد الباحث نفسه، نتيجة لطبيعة البحث الذي يجريه، في مواقف صعبة، فبعض الأبحاث تحاول الدخول إلى جوانب خاصة من حياة الناس، وتسبب لهم الإزعاج. وقد تتناول بعض الأبحاث مواضيع عامة، لكن نتائجها تشكل فيما بعد تهديداً لمن لهم دور ومصلحة في ترسيخ وضع قائم.

## 5. علم الاجتماع بين النظرية والبحث

يقول عالم الاجتماع رايت ميلس (Wright Mills, 1959) إن الأبحاث بدون نظرية لا تعدو كونها تجميع لحقائق غير مترابطة، أما النظريات بدون أبحاث فتبقى فارغة ومجردة، ولا يمكنها أن تعبر عن الحياة كما هي بالفعل.

لذلك فإن كلاً من النظرية والبحث أساسيان بالنسبة لعلم الاجتماع، إذ يجب اختبار كل نظرية، وهذا غير ممكن إلا من خلال الأبحاث. وعندما يجري علماء الاجتماع أبحاثاً غالباً ما يخلصون إلى نتائج مدهشة لا بد من شرحها، وهذا ما لا يمكن أن يكون إلا من خلال النظرية، وعندما يدرس العلماء الحياة الاجتماعية يجمعون ما بين النظرية والبحث

## 6. كيف تلتقي النظرية مع الواقع؟

يمكننا أن نتحدث بقدر ما نشاء عن نظريات البحث، لكن في كثير من الأحيان نواجه حالات واقعية تدفعنا إلى البحث عما لم تذكره النظريات. لنناقش معاً دراسة الحالة التالية.

هل من يرتكب جريمة الاغتصاب مريض؟

- هل تعتقد أن الرجل الذي يرتكب جريمة اغتصاب هو رجل مريض؟ هل هو مختلف فيزيولوجياً عن الرجال الآخرين؟
- إذا كان جوابك بالنفي، فهل لديك فرضية بديلة؟
- من بين طرق البحث التي اطلعت عليها سابقاً، ما هي الطريقة الأنسب لإجراء بحث حول هذا الموضوع، ولماذا؟
- هل تعتقد أن جنس الشخص الذي يقوم بإجراء بحث كهذا قد يؤثر على نتائج البحث؟

لم يقتنع عالما الاجتماع Diana Scully و Joseph Marolla بالتفسير التقليدي الشائع الذي يقول إن المغتصبين مرضى، أي أن لديهم تشوهات فيزيولوجية، أو بكلمات أخرى، مختلفون عن الرجال الآخرين. وقد وضعا فرضية تقول إن الاغتصاب هو سلوك بشري يشبه غيره من مظاهر السلوك، ويجري تعلمه من خلال التعامل مع الآخرين، بمعنى أن بعض الرجل يتعلمون أن ينظروا إلى الاغتصاب كسلوك جيد.

قد يكون من الأفضل لاختبار هذه الفرضية مقابلة عينة عشوائية ممن ارتكبوا جرائم اغتصاب، لكن هذا مستحيل عملياً، فليست هناك قائمة، أو قوائم، بأسماء كل أولئك الرجال، وبالتالي لا يمكن أن يكون لكل أولئك الأفراد الحظ نفسه للاشتراك بالبحث. كما أنه لا يمكن الاعتماد على سجلات السجون لانتقاء عينة عشوائية، لأن العديد من هذه الجرائم لا تُكشف ولا يوقف مرتكبوها، وبعض من ألقي البعض عليهم لم يُدانوا، وبعض من أدينوا وضعوا تحت المراقبة ولم يُسجنوا، كما أن البعض قد يكونون أبرياء. لذلك قرر العالمان مواجهة معضلة علم الاجتماع التقليدية، فإما التخلي عن الدراسة، أو إجرائها ضمن شروط غير مثالية.

لقد اختارا إجراء الدراسة، لكن عندما توفرت لهما فرصة مقابلة رجال أدينوا وهم في السجن، تخلوا عن فكرة مقابلتهم، وقاما بدلاً من ذلك بإرسال 3500 رسالة إلى أشخاص يقضون فترات أحكامهم في سبعة سجون في ولاية فرجينيا، وهي الولاية التي كانا يدرّسان فيها. وافق حوالي 25% من السجناء على إجراء المقابلة. فقام العالمان بتوزيع أولئك الرجال تبعاً للعمر، ومستوى التعليم، والعرق، وشدة الأذى الذي ألحقه كل منهم بضحيته، والسجل الإجرامي السابق.

نظراً لكون جنس الشخص الذي يجري المقابلة قد يحرف نتائج البحث، قابل كل من Scully و Marolla نصف أفراد العينة. وقد استغرق الأمر حوالي 600 ساعة ليجمعا معلومات عن السجناء تتضمن تاريخ كل منهم، النفسي والإجرامي والجنسي. وللاحتياط من المعلومات الكاذبة، قاما بالتحقق من تطابق ما يقوله كل فرد من العينة مع ما ورد في سجله. وقد استخدما اثني عشر سلماً لقياس مواقف الرجال من المرأة، وعن أنفسهم، ومن قضية الاغتصاب. وللوقوف على الحالات التي ينظر إليها الرجال على أنها حالات اغتصاب، أو تلك التي يرى الرجل أن الضحية فيها هي المسؤولة، قام العالمان بعرض تسع قصص للقاءات جنسية عنيفة وسألوا الرجال على من تقع المسؤولية في كل منها.

اكتشف Scully و Marolla أمراً يتعارض مع الحس السليم، فمعظم أولئك الرجال ليسوا مرضى على الإطلاق، ولم يتعرضوا لاستفزازات قاسية لا تمكن السيطرة عليها، كما كانت السجلات الطبية النفسية للمغتصبين مشابهة لسجلات الرجال الآخرين. وقد استنتج العالمان أن المغتصبين هم رجال معتدلون عاطفياً، لكنهم تعلموا النظر إلى الاغتصاب كسلوك مناسب في أوضاع معينة. فبعضهم أقدم على الاغتصاب عفوياً ودون نية مسبقة، فيما أقدم البعض على وضع خطة للاغتصاب.

وبالنسبة للبعض يبدو الاغتصاب كردة فعل، فيما يلجأ إليه آخرون كوسيلة للانتقام، ليس بالضرورة من المرأة.

كما وجد Scully و Marolla ما يؤكد ما كانت بعض الناشطات يشرن إليه منذ سنوات، وهو أن مبدأ السلطة، أو القوة، يشكل عنصراً أساسياً في سلوك الاغتصاب. وإليكم هنا ما قاله أحد الرجال: أعطاني الاغتصاب القدرة على فعل ما أردت فعله دون أن أشعر أنه علي أن أسعد الشريك أو أستجيب له. فقد شعرت أنني مهيمن وكل شيء تحت سيطرتي، فالاغتصاب كان بالنسبة لي يعني القدرة على ممارسة الجنس دون الاهتمام باستجابة المرأة. لقد كنت مسيطراً تماماً.

كان من المهم اكتشاف أن معظم حالات الاغتصاب ناجمة عن سلك إرادي، وأن مرتكبيها ليسوا مرضى، وأن السلطة والقوة هي الحافز وليس الرغبة والانفعال، وأن السلوك ليس ناجماً عن أمراض عقلية.

وبمقارنة العينة التي لديهم مع عينة من رجال لم يرتكبوا هذه الجريمة ووضعوا تحت المراقبة، خلص Scully و Marolla إلى نتيجة أخرى هامة: إن معظم مرتكبي جرائم الاغتصاب يؤمنون أن المرأة مسؤولة عن ذلك من خلال طريقة سلوكها والثياب التي ترتديها. كما لاحظا أن المرأة التي تتعرض للاغتصاب غالباً ما تغير نظرتها بعد الاشتراك في علاقة جنسية ودية، وأن معظم الرجال المهتمين بالاغتصاب أبرياء.

## 7. الخلاصة: ربط البحث بالنظرية

إن خلاصات كهذه أبعد بكثير من مجرد إضافة حقائق جديدة إلى ما نحفظه. إن البحث يحرض على تطوير نظريات جديدة، وبالتالي الحاجة إلى المزيد من الأبحاث. ويفترض علماء الاجتماع انه للمعتقدات دور هام في هذه الظاهرة. تسلط هذه الفرضية الضوء على الحاجة إلى تحديد الكيفية التي تنتقل بها هذه المعتقدات، وأي الثقافات الذكورية الفرعية تساعد على استمرارها؟ هل تساهم وسائل الإعلام في تغذية هذه الثقافة؟ وهل يمكن أن تساعد العائلة والتربية والدين في حماية الرجال من هذه المعتقدات؟ أم أنها تساهم في تغذيتها بصيغة ما، وإذا كان الأمر كذلك فكيف؟

لقد بدأ علماء الاجتماع بالاعتماد على هذا البحث الذي خرج على المألوف وأجري ضمن ظروف غير نموذجية. وقد تزودنا الأبحاث والنظريات التي طورها هذا البحث بمبادئ التغييرات التي يجب إجراؤها للتقليل من خطر جرائم الاغتصاب في مجتمعاتنا.

# الفصل السادس عشر: العلوم السياسية
# الجزء الأول

ISSN: 2617-989X

## الكلمات المفتاحية:

العلوم السياسية، السياسة، علم السياسة المقارن، العلاقات الدولية، النظرية السياسية، الحكومة، الإدارة العاملة، السلوك السياسي، المدرسية، العلمانية، نظام الحكم الدستوري، الدستور، الليبرالية، الديمقراطية، الاشتراكية، الديمقراطية المباشرة، الديمقراطية النيابية، حكم الأغلبية، حكم الأكثرية، التمثيل النسبي، المحافظون، الأحزاب السياسية، الدبلوماسية، الوسطاء، وزارة الخارجية، المؤتمرات الدولية، الأمم المتحدة، المعاهدة، المعاهدة الأمنية، القانون الدولي، العقوبات الدولية.

## ملخص:

يتعرف الطلاب في هذه الوحدة على ماهية العلوم السياسة، وأهم المبادئ والمفاهيم التي تتطرق لها هذه العلوم، كما تركز هذه الوحدة على الديمقراطية كمفهوم سياسي، بالإضافة إلى عرض سريع لأبرز مفاهيم العلاقات الدولية والسياسة الخارجية.

## أهداف تعليمية:

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

1. العلوم السياسية
   - تعريف العلوم السياسية
   - مجالات العلوم السياسية
   - تطور العلوم السياسية
     - البدايات الأولى والمدرسية
     - العلمانية
     - نظام الحكم الدستوري
     - الليبرالية
     - الديمقراطية والاشتراكية
2. الديمقراطية
   - التعريف والأنماط
   - مفاهيم عامة
   - مظاهر الديمقراطية
   - طريقة عمل الديمقراطية
3. العلاقات الدولية
   - تعريف العلاقات الدولية
   - الدبلوماسية
   - المؤتمرات والمنظمات الدولية
   - المعاهدات الدولية
   - القانون الدولي والعقوبات الدولية

## المخطط:

- تعريف العلوم السياسية
- مجالات العلوم السياسية
- تطور العلوم السياسية
- الديمقراطية
- العلاقات الدولية

## 1. تعريف العلوم السياسية

تعرف العلوم السياسية بأنها فرع من فروع العلوم الاجتماعية يهتم بدراسة نظرية السياسة وتطبيقاتها ووصف وتحليل الأنظمة السياسية والسلوك السياسي. وعادة ما يغلب هذه الطابع الأكاديمي على هذه الدراسات. ويحاول علماء السياسة الإجابة في هذا السياق عن أسئلة محددة، مثل: ما الأسباب التي تبرر ممارسات الدولة؟ ومن الذين تخدم الدولة مصالحهم؟.

تتناول العلوم السياسية بالدراسة والتحليل الأنماط المختلفة للحكومات والأحزاب وجماعات الضغط والانتخابات والعلاقات الدولية والإدارة العامة. تنطوي هذه الأنشطة في إطارها الفردي والجماعي على علاقات إنسانية أساسية. إضافة لهذا، يهتم هذا العلم بدراسة القيم الأساسية، مثل المساواة والحرية والعدالة والسلطة.

ونستعرض فيما يلي علاقة العلوم السياسية بالعلوم الأخرى والديمقراطية.

أولاً – علاقة العلوم السياسية بالعلوم الأخرى: ترتبط العلوم السياسية ارتباطاً وثيقاً بالعلوم الأخرى، مثل الاقتصاد والتاريخ والقانون والفلسفة وعلم الاجتماع. فالعلوم الاقتصادية تتناول المسائل المتعلقة بالتحكم والسيطرة على الموارد المادية، مثل تبادل السلع والخدمات، أما التاريخ فذو صلة وثيقة بعلوم السياسة، لأن الحوادث التاريخية تعد مادة أولية لابد للباحث السياسي من الإحاطة بها. ويقدم القانون الإطار الفكري الذي يرتكز عليه عالم السياسة في التحليل. وتربط الفلسفة العلوم السياسة بالعلوم الأخرى، كما يزود علم الاجتماع الباحث السياسي بمختلف جوانب التطور الاجتماعي ذات الأثر المباشر على الحياة السياسية.

ثانياً – العلوم السياسية والديمقراطية: ارتبطت أهمية دراسة العلوم السياسية في الأزمنة الحديثة بصعود نجم الديمقراطية وانتشارها نظاماً للحكم؛ فالعلوم السياسية تؤدي دوراً مهماً في تحليل العمليات الحكومية، حيث يناط بعالم السياسة دراسة وتحليل عمليات الأجهزة الحكومية. كما ينصب الاهتمام في هذا الصدد على الإحاطة بالحقائق الأساسية المتعلقة بالحكومة، مما يُمكِّن من تقويم الأداء الحكومي وإصلاحه. ويعد هذان العاملان من أهم مرتكزات الديمقراطية. إضافة لذلك تناط بعلماء السياسة مهمة تطوير برامج التثقيف السياسي، وتدريب الأجيال الجديدة التي بدونها لا يمكن للديمقراطية أن تزدهر.

## 2. مجالات العلوم السياسية

تنقسم العلوم السياسية إلى ستة ميادين هي:

- النظرية السياسية والفلسفة: يستخدم علماء السياسة المدخل التاريخي في دراسة هذين الميدانين، حيث يرى معظمهم أن تاريخ الفكر السياسي والفلسفة، يشكلان المنبع الأساسي الذي يجب أن تنهل منه الدراسات السياسية. ويعد الرجوع للمصادر الأساسية في النظرية والفلسفة أمراً مهماً، لأنه يمكن الدارسين من الإلمام بالأسس العامة للعلوم السياسية. وتشمل قائمة المصادر لهذا العلم مؤلفات الغربيين مثل: أفلاطون وأرسطو شيشرون وتوما الأكويني والقديس أوغسطين ومكيافيللي وتوماس هوبز وجان جاك روسو وجون لوك ومونتسكيو وإيمانويل كانط وهيجل وكارل ماركس وكتابات جيرمي بينثام وجون ستيوارت ميل. وتمكّن هذه المصادر الكلاسيكية الباحثين في العلوم السياسية من التعمق في قضايا السياسة التجريبية، بحيث يستطيعون الوصول إلى تعميمات صحيحة ودقيقة ترتكز على حقائق ثابتة، تتناول شتى المواضيع، مثل كيفية الوصول إلى السلطة والأسباب المفضية إلى انهيارها.
- علم السياسة المقارن: يرتكز فهم الحقائق والممارسات السياسية في المقام الأول على مقارنة المؤسسات والممارسات السياسية في قطرين أو أكثر. ويتخصص بعض علماء علم السياسة المقارن في مجموعة من النظريات السياسية مثل نظريات التحديث، والتنمية، والبنيوية، والثقافات، والتبعية وتطبيقها منهجياً على دول أو مناطق يختارها الباحث.
- العلاقات الدولية: يشمل هذا الفرع دراسة الدبلوماسية والقانون الدولي والمنظمات الدولية والمحركات والمؤثرات التي لها أثر مباشر أو غير مباشر في صنع السياسة الدولية. وقد ركز العلماء منذ عام 1945م على دراسة المواضيع المتعلقة بالأمم المتحدة. كما تركز هذا الاهتمام في الستينيات والسبعينات من القرن العشرين على دراسة الصين والبلدان النامية في إفريقيا وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية والشرق الأوسط وجنوب شرقي آسيا. كما أصبحت التيارات الفكرية المعاصرة التي تشمل الإمبريالية والوطنية، موضوعات مهمة في دراسة العلاقات الدولية. وقد تناول هذا الفرع من العلوم السياسية دراسة السياسات الدفاعية، والمشكلات المتعلقة بالسلم والحرب. إضافة لذلك، قام علماء السياسة بدراسة أثر الضغوط الاقتصادية على العلاقات الدولية.
- الحكومات الوطنية والعلوم السياسية: يعد هذا الفرع من المجالات التي يوليها علماء السياسة اهتماماً خاصاً يفوق اهتمامهم بدراسة الحكومات الأخرى. ويُعزى هذا الأمر لإدراكهم أهمية دراسة حكوماتهم الوطنية وتطورها.

- الإدارة العامة: تعد الإدارة العامة فرعاً أو جزءاً من دراسة علم السياسة المقارن والشؤون السياسية الداخلية. ويعزى استقلال الإدارة العامة عن ميادين العلوم السياسية إلى اتساع وتعقد أنشطة الإدارة الحكومية المعاصرة. تتناول الإدارة العامة بالدراسة عدة موضوعات، مثل: واجبات الموظفين العموميين والمحاسبة، وإدارة شؤون الأفراد. وهناك تعاون وثيق بين الموظفين العموميين وعلماء السياسة من المتخصصين في الإدارة. ويقوم هؤلاء الخبراء بدراسة الإدارات المختلفة للحكومات الوطنية، كما يحللون مدى تأثير التنظيمات والسياسات الداخلية للدوائر الحكومية في الإسهام أو إعاقة تطبيق القرارات والبرامج الحكومية.
- السلوك السياسي: يحاول الدارسون في هذا الحقل معرفة كيفية استجابة الجمهور لبعض المؤثرات السياسية. ويمكن الاستشهاد في هذا الصدد بمحاولات بعض علماء السياسة إحصاء عدد الناخبين الذين كان معيارهم لاختيار المرشح حسن المظهر الذي بدا به عندما خاطبهم عبر جهاز التلفاز. وتعكس الدراسات السلوكية التيارات الجديدة في دراسات العلوم السياسية التي تأثرت بالإسهامات والتطورات في مجال العلوم السلوكية، مثل علم دراسة الإنسان (الأنثروبولوجيا)، وعلم النفس والاجتماع. وقد طور علماء السياسة مناهج تمكّنهم من دراسة أنماط السلوك الرئيسية في السياسة. شملت هذه الدراسة عدة ميادين، مثل الاتصالات والسلوك الانتخابي والدعاية ومختلف الأنشطة السياسية الأخرى.

## 3. تطور العلوم السياسية

### 1.3. البدايات الأولى والمدرسية

أولاً – بدايات العلوم السياسية: أطلق الفيلسوف الإغريقي أرسطو على علم السياسة لقب سيد العلوم لاعتقاده أن كل العلوم قد نهلت من ينابيعه. وقد سخر عدد من العلماء لمدة طويلة من هذه الفكرة، إلا أن هذه الصورة تغيرت في عالمنا المعاصر، حيث تطابقت رؤى عدد كبير من العلماء مع مقولة أرسطو وذلك بسبب إدراكهم للأخطار التي يمكن أن تترتب على اندلاع حرب والتحكم السياسي في نتائج العلوم، يمكن أن يترتب عليها إقرار السِّلم، ومن ثمَّ يمكن أن يعد من أهم الإنجازات الإنسانية. كان أرسطو وأستاذه أفلاطون يعتقدان أن علم السياسة يولي اهتماماً كبيراً لتطوير نموذج مثالي لنظام سياسي يتسم بالاستقرار والتطبيق المطلق لقيم العدالة.

ثانياً – المدرسية: انبثقت حركة المدرسية (أو السكولاستية) من محاولة التوفيق بين الفكر الإغريقي والفلسفة المسيحية في العصور الوسطى. وانصب جل اهتمامها على التوفيق بين التراث اليوناني والمسيحي المتعلق بالسلطة والقيم الأخلاقية. ويعد القديس توما الأكويني من أشهر أنصار هذه المدرسة. وقد أولى هذا الفيلسوف القانون اهتماماً كبيراً وعده أعلى مرتبةً من المواضيع السياسية الأخرى. كما أسهم هذا الفيلسوف في أطروحته اللاهوتية التي تعد من أهم كتاباته في تطوير وشرح نظريات أرسطو بهدف التوفيق بينها وبين القيم المسيحية. وقد نوه الأكويني بأهمية بعض حقوق وواجبات الأفراد في العمليات الحكومية، كما أكد على أهمية التزام الحكومة في الحكم بين الناس طبقاً لهذه الحقوق والواجبات. ويمكن القول في هذا الصدد بأن التزامه بأهمية وضع قيود على تضخم السلطة الحكومية، وقد أسهم في وضع اللبنات الأولى للأساس الدستورية المعاصرة.

### 2.3. العلمانية

شكل مكيافيللي، الذي ذاع صيته في فلورنسا بوصفه سياسياً محنكاً، تحدياً عظيماً لنظريات العصور الوسطى الفلسفية في القرن السادس عشر الميلادي ومطلع القرن السابع عشر الميلادي، حيث استعاض هذا السياسي عن قيم المسيحية المثالية بمبادئ سياسية واقعية تستند إلى القوة السياسية في الممارسة.

تأثر الفيلسوف البريطاني هوبز بأفكار مكيافيللي. كان هوبز يرى أن محور حياة الفرد ينصب في البحث الدائم والمستمر عن السلطة. يمثل طرح هوبز للسياسة جوهر العِلمانية، والتي تعني الفصل المطلق بين السياسة والدين. ويرجع التأثر في هذا الصدد إلى إسهام ثلاثة من المفكرين في وضع الإطار المنطقي لتلك الأفكار، وهم رجل القانون الفرنسي جين بودين، وعالم السياسة الألماني جوهانس أتيسيوس، والمحامي الهولندي هوجو جروتيوس الذي وضع أسس علم القانون الدولي.

### 3.3. نظام الحكم الدستوري

تشكل القوانين أو التقاليد في مثل هذا النمط من الأنظمة السياسية قيداً على سلطات الحكومة. وقد تطورت الأنظمة الدستورية منذ منتصف القرن السابع عشر الميلادي، في مواجهة الأنظمة المتسلطة، إذ بلغت ردود الفعل إزاء النظم الاستبدادية ذروتها في بريطانيا متمثلة في ثورة 1688م.

كان لعدد من المفكرين البريطانيين أثر كبير في تطور النظريات الغربية الدستورية. ومن بين هؤلاء ريتشارد هوكر وجون ميلتون وجيمس هارينجتون وجون لوك. ويعد الأخر من أكثر المنظِّرين السياسيين أثراً في عصره، إذ ركزت كتاباته على حقوق الإنسان الأساسية، كما انعكس إسهامه في صياغة وثيقة الاستقلال الأمريكية ودستورها.

### 4.3. الليبرالية

اولاً – تطور الفلسفة الليبرالية التحررية: تأثرت الليبرالية (التحررية)، بوصفها فلسفة سياسية، في تطورها بنظريات جون لوك. وتمثل هذه الفلسفة السياسية في مضمونها، الرغبة في تغيير الأفكار والاقتراحات والسياسات، لمواجهة المشكلات المعاصرة. وقد أسهم مونتسكيو، أحد أهم المفكرين الفرنسيين الذين يطلق عليهم لقب الفلاسفة، في تطوير قاعدة عريضة لأفكار جون لوك. تطورت في أعقاب ذلك الأفكار الليبرالية التي عززها فيلسوف آخر هو جان جاك روسو. وكذلك نظريات المنفعة التي صاغها المفكر الاسكتلندي ديفيد هيوم والإنجليزي جيرمي بينثام.

ثانياً – هدف الليبرالية التحررية: إن الأهداف التي ترمي إليها السياسة هي تحقيق أعظم قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس. وقد مثل جون ستيوارت ميل أشهر الفلاسفة الاقتصاديين البريطانيين مُجمِلاً للأفكار الليبرالية، متتبعاً جذورها وتطورها.

ثالثاً – دور الفلاسفة الألمان في تطور الليبرالية: وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن ثلاثة من الفلاسفة الألمان، وهم إيمانويل كانط وجوهان غوتليب فيشته وهيجل، قدموا إسهامات في الأفكار الليبرالية التي تختلف في مضمونها عن الليبرالية الكلاسيكية. اشتملت أفكار فيشته وهيجل على مبادئ اشتراكية ووطنية، بينما انطوت أفكار الفيلسوف كانط على نظرية تسعى إلى تحقيق السِّلم العالمي من خلال تنظيم دولي. وقد عبر هذا الفيلسوف في مصنَّفه الكلاسيكي السِّلم الدائم الصادر في ستوكهلم عام 1795م عن هذه الأفكار.

### 5.3. الديمقراطية والاشتراكية

اولاً – تطور الديمقراطية: كانت نظريات روسو السياسية في بعض مضامينها تحمل بعداً أشمل من الفردية المتطرفة التي كان قد تبناها. حيث أكد في كتابه العقد الاجتماعي الصادر عام 1762م، اعتناقه الأفكار الديمقراطية التي سماها روسو اصطلاحاً الإرادة العامة. وقد انبثقت فكرة الديمقراطية من هذه الإرادة العامة تحديداً.

ثانياً – مناهج الديمقراطية: يمكن القول في هذا السياق: إن نظريات الديمقراطية قد تشعبت إلى مناهج شتى فقد تبنت الولايات المتحدة الأمريكية فكرة الليبرالية والنظم الدستورية والديمقراطية بينما سادت فكرة الديمقراطية الاشتراكية في أوروبا الغربية

ثالثاً – تطور الاشتراكية: كان للفيلسوف الاقتصادي الألماني كارل ماركس دور كبير في تطور فكرة الاشتراكية. وقد عكس هذا الفيلسوف أفكاره في كتابه البيان الشيوعي الصادر عام 1848م، والذي ألفه بالتعاون مع زميله فريدريك إنجلز.

رابعاً – مناهج الاشتراكية:

- الشيوعية – الماركسية اللينينية: استندت الشيوعية في الاتحاد السوفييتي السابق إلى التعاليم الماركسية. وقد قام لينين الذي قاد الثورة الروسية في عام 1917م بتعديلها بحيث تناسب مستجدات الساحة الروسية
- الديمقراطيون الاشتراكيون: ويمكن القول أن التعاليم الماركسية التي تبناها الديمقراطيون الاشتراكيون في عدد من دول أوروبا الغربية تختلف عن الماركسية اللينينية اختلافاً جوهرياً

## 4. الديمقراطية

### 1.4. التعريف والأنماط

اولاً – الديمقراطية: تعرف الديمقراطية بأنها شكل من أشكال الحكم، وأسلوب في الحياة، وهدف أو مثل وفلسفة سياسية. ويشير الاصطلاح أيضاً إلى البلد الذي يتخذ نوعاً من الحكم الديمقراطي. وتعني كلمة ديمقراطية حكم الشعب، وقد وصف الرئيس الأمريكي أبراهام لِنْكُولن مثل ذلك الحكم بأنه حكم الشعب بالشعب وللشعب.

ثانياً – أنماط الديمقراطية: يشارك المواطنون في الحكم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

- الديمقراطية المباشرة: يجتمع الناس في ظل الديمقراطية المباشرة في مكان واحد لينسوا قوانين مجتمعهم. وهذا ما كان يجري في الدولة – المدينة (أثينا) في اليونان القديمة
- الديمقراطية النيابية: على العكس من الديمقراطية المباشرة فإن الديمقراطية الحديثة غالباً ما تأخذ شكل ديمقراطية نيابية لأنه من الصعب جمع أفراد المجتمعات الكبيرة، كالمدن والولايات والأقاليم أو الأقطار، في مجموعة واحدة. بدلاً من ذلك، يقوم هؤلاء الأفراد باختيار عدد معين من بينهم لينوبوا عنهم في اتخاذ القرارات بشأن القوانين والأمور الأخرى. ويجوز لمجموعة النواب أن تسمى مجلساً، أو هيئة تشريعية، أو برلماناً، أو مؤتمراً

### 2.4. التوصيف العام

اولاً – حكم الأغلبية: تستند معظم نتائج الانتخابات في الأنظمة الديمقراطية على حكم الأغلبية (قاعدة الأغلبية)، أي أكثر من نصف الأصوات التي أدلي بها. وقد يُؤخذ بالأكثرية حينما يتنافس في الانتخابات ثلاثة مرشحين، أو أكثر. إذ يحصل المرشح صاحب الأكثرية على أصوات أكثر من أي من المرشحين الآخرين، وليس بالضرورة أغلبية الأصوات.

ثانياً – التمثيل النسبي: يتم انتخاب الهيئات التشريعية، في بعض البلاد، بطريقة التمثيل النسبي. يعطي التمثيل النسبي الحزب السياسي نسبة مئوية من مقاعد الهيئة التشريعية تتناسب مع نصيبه من جملة الأصوات التي أدلي بها في الانتخابات.

ثالثاً – سمات الحياة الديمقراطية: ظل الإقرار بمبادئ المساواة وحرية الفرد على مر التاريخ أهم سمات طريقة الحياة الديمقراطية، وتبعاً لذلك، في ظل الديمقراطية، ينبغي للمواطنين – وبالتساوي – أن يجدوا الحماية لأشخاصهم، وممتلكاتهم وحقوقهم. وينبغي أن يُمْنحوا فرصاً متساوية لممارسة حياتهم، وأعمالهم، وحقوقاً متساوية في المشاركة السياسية. فضلاً عن ذلك، يجب أن يطمئن الناس إلى عدم تعرضهم إلى إسراف في التدخل الحكومي، والسيطرة الحكومية بلا مبرر. كما يجب أن يكونوا أحراراً – في حدود القانون – ليعتقدوا ويسلكوا ويعبروا عن أنفسهم بحرية تامة. وتعسى المجتمعات الديمقراطية لضمان حريات معينة لمواطنيها، منها حرية الصحافة، وحرية الرأي. والأفضل أن تَكفُل للمواطنين حرية إنشاء الجمعيات، والتجمع بلا خوف من الاعتقال، أو السجن، بدون سبب قانوني، وحرية العمل والعيش أينما وكيفما أرادوا.

رابعاً – دور الدولة في النظم الديمقراطية: تنقسم المجتمعات فيما يتعلق بدور الدولة والحدود التي يمكن للدولة أن تكون فاعلة في إطارها ، فهناك من يؤيد تعميق دور الدولة وهناك من ينادي إلى تقليله وتسطيحه:

- رغب بعض الناس في الدول الديمقراطية في توسيع دور الحكومة في المجتمع كي تكون الظروف المادية أكثر تساوياً لكل الناس. من مؤيدي ذلك الاشتراكيون، والاشتراكيون الديمقراطيون
- غير أن آخرين رأوا أن توسيع دور الحكومة في مجالات معينة، مثل: تيسير المعيشة والتعليم والإسكان، من شأنه أن ينال من حرية الناس، ويخضعهم لمزيد من النظم الحكومية. ويعرف منتقدو الزيادة في التدخل الحكومي بالمحافظين. ولقد أدى الخلاف بين هاتين الفرقتين إلى إثارة واحد من أبرز موضوعات المناظرة والجدل في المجتمعات الديمقراطية الحديثة

خامساً – تطبيق المبادئ الديمقراطية: قد لا يكون من السهل تطبيق المبادئ الديمقراطية في الحياة العادية، ففي بعض البلاد التي تحكم بدستور مكتوب، كالولايات المتحدة الأمريكية، يتضمن الدستور نصوصاً تكفل حرية الرأي والصحافة والاعتقاد والاجتماع. وللمحافظة على هذه الحريات، وُجدت هيئة قضائية توازن بين مصالح الأفراد حتى لا يُلحق أحد الضرر بالآخرين، أو بالمجتمع. فمثلاً، لا تبيح حرية الرأي الكذب الضار.

### 3.4. مظاهر الديمقراطية

تختلف خصائص الديمقراطية من بلد إلى آخر، غير أن هناك مظاهر أساسية، متشابهة إلى حد ما، في كل الدول الديمقراطية:

1. الانتخابات الحرة: وهي تعطي الناس فرصة اختيار قادتهم، والتعبير عن وجهة نظرهم في المسائل المهمة. وتجري الانتخابات عادة على فترات للتأكد من أن الحكومات التي تدير شؤون البلاد، سواء كانت قومية أو محلية، تمثل اختيار الناس فعلاً. ذلك أن احتمال خروج الحكومة من السلطة بالاقتراع يبعث على الاطمئنان إلى أن أولئك الذين سبق أن انتخبوا في مناصب يولون الرأي العام اهتمامهم. تتعلق الشروط القانونية لحق الاقتراع، أو الترشيح لمنصب انتخابي عام وفي أغلب الديمقراطيات، بالعمر ومكان الإقامة والجنسية. وتتيح الممارسة الديمقراطية للناس أن ينتخبوا بالاقتراع السري دون ضغط أو رشوة. ويتطلب فرز الأصوات النزاهة، وعدم تزييف النتائج.
2. حكم الأغلبية وحقوق الأقلية: في ظل الديمقراطية، يجب – في أغلب الأحيان – أن توافق الأغلبية على القرار، قبل أن يصبح نافذاً. ويجوز أن يستخدم هذا المبدأ الذي يطلق عليه حكم الأغلبية في انتخاب مسؤولين أو إقرار سياسة عامة. وتأخذ بعض الديمقراطيات بأغلبية الأصوات. وتشترط أكثر الديمقراطيات نسبة أصوات تزيد على الأغلبية البسيطة لإجراء تغييرات أساسية، أو دستورية. تستند قاعدة الأغلبية إلى اعتبار أنه إذا كان كل المواطنين سواسية، فإن رأي الأغلبية سيكون أفضل من رأي الأقلية. والديمقراطية تجعل الموافقة الطوعية أساساً للسلطة السياسية والشرعية، وفعالية الحكم. على أن الديمقراطية معنية أيضاً بحماية الحرية الفردية، وبالحيلولة دون تعدي الحكومة على حريات الأفراد. لذلك تنص الدساتير الديمقراطية على كفالة حقوق معينة لا يجوز أن يحرم الناس منها، حتى بأغلبية كبيرة جداً. تشمل هذه الحقوق الحريات الأساسية، كحرية التعبير، وحرية الصحافة، وحرية الاجتماع. وينبغي على الأغلبية، أيضاً، الاعتراف بحق الأقلية في السعي لتصير أغلبية بالوسائل المشروعة.
3. الأحزاب السياسية: وهي جزء مهم من نظام الحكم الديمقراطي. فالتنافس بين الأحزاب في الانتخابات يعطي الانتخابات مغزاها بإتاحة الفرصة للمقترعين للاختيار بين المرشحين الذين يمثلون مختلف المصالح، ومختلف وجهات النظر. في كثير من البلدان الديمقراطية ذات نظام الحزبين كالولايات المتحدة، أو ذات نظام التعددية الحزبية – ثلاثة أحزاب أو أكثر – يشكل الحكومة الحزب الذي يكسب الأغلبية المطلقة في الانتخابات منفرداً. وقد لا تسفر الانتخابات في الدول الديمقراطية ذات التعددية الحزبية عن أغلبية لحزب منفرد. في هذه الحالة، يجوز أن يأتلف حزبان أو أكثر، فتتكون أغلبية لتشكيل حكومة ائتلافيه. يقوم الحزب، أو الأحزاب التي لا تشارك في الحكومة وفي ظل الديمقراطية بدور المعارضة المخلصة. وهي – أي المعارضة – حرة في نقد السياسات، وإجراءات الحزب الذي

يتولى السلطة. وفي الدول غير الديمقراطية كالدكتاتوريات – الحكومات الاستبدادية – قد يُعَدُّ نقد الحزب الحاكم خيانة. وغالباً لا يُسمح بقيام أي حزب غير الحزب الحاكم، ولا خيار للناس بين المرشحين.

4. تقييد السلطة: تنطوي النظم الديمقراطية على ترتيبات مختلفة، من شأنها الحد من تمادي أي شخص، أو فرع من فروع الحكومة في التسلط. ففي بعض البلاد كأستراليا، والهند، والولايات المتحدة، وكثير غيرها، حكومات اتحادية، وحكومات ولايات، أو أقاليم تتقاسم السلطة بينها. كما أن الحكومات المحلية المنتخبة، في الأنظمة الديمقراطية، تتولى المسؤولية عن خدمات محلية محددة. في كل الدول الديمقراطية، يخضع المسؤولون الحكوميون للقانون. وتساعد وسائل الإعلام المسؤولين على تحسس اتجاهات الرأي العام.

5. الحكم الدستوري: تقوم الحكومة اليمقراطية على القانون، وهو في أغلب الحالات دستور مكتوب. تبين الدساتير سلطات وواجبات الحكومة، وتحدد ما يجوز لها عمله. وتوضح كيف تُسن القوانين، وكيف يتم تنفيذها. وتحتوي بعض الدساتير على قائمة مفصلة بحقوق المواطنين، تشمل توصيفاً لحرياتهم الأساسية، وتمنع الحكومة من التعدي عليها. فبريطانيا مثلاً ليست لها وثيقة مفردة، مكتوبة تسمى الدستور، بيد أن لديها تقاليد وأعراف معينة، فضلاً عن مواثيق محددة، وكثير من القوانين جرى الأخذ بها عموماً على أنها تشكل، الأحكام الأساسية للنظام. من الخصائص الجوهرية للحكم الديمقراطي وجود هيئة قضائية مستقلة، وواجب النظام القضائي صيانة حرمة القوانين، وحقوق الأفراد، بمقتضى تلك القوانين.

### 4.4. طريقة عمل الديمقراطية

اولاً – طريقة عمل النظم الديمقراطية: ربما خطر لبعض الناس أن أشد العقبات أمام تحقيق الحرية والمساواة للفرد إنما هي معوقات ذات طبيعة سياسية. وربما رأى آخرون أن أفضل الحكم أقله تحكماً. غير أنه بمرور الزمن أيقن كثير من الناس أن توافر قدر من التنظيم الحكومي أمر ضروري لجعل الحرية الشخصية أكثر قيمة، ولترسيخ مبدأ المساواة، فضلاً عن تحسين ظروف الحياة في البلاد للناس جميعاً.

ثانياً – مشاركة المواطنين: تدعو الديمقراطية لتوسيع مشاركة الناس في مجال العمل السياسي. وفي بعض الديمقراطيات يُعدُّ إدلاء المواطنين البالغين بأصواتهم في كل الانتخابات، المحلية، والإقليمية، والقومية واجباً. كما يجب على المواطنين المؤهلين أن يرشحوا أنفسهم في الانتخابات وأن يسهموا في تطوير بلادهم، فالمواطن النشط المستنير هو ضمانة تحول دون أي فساد أو عجز في الحكومة.

ثالثاً – التعليم والديمقراطية: تؤمن الديمقراطية بأهمية التعليم، والمشاركة الواسعة في السياسة – وفقاً للمثل الديمقراطية. وهي لا تكفل، بالضرورة، صلاح الحكم، فالحكومة الصالحة تعتمد على المشاركة الصالحة. والمواطنون ذوو الإدراك الحسن، والمتعلمون تعليماً حسناً، هم القادرون على المشاركة بإيجابية أكثر. لذلك، تحتاج الديمقراطية لمواطنين متعلمين يستطيعون تدبير شؤونهم.

رابعاً – التنمية الاقتصادية والوفاق الوطني: نشأت أغلبية الديمقراطيات في مجتمعات متقدمة، ترتفع فيها نسبة التعليم، وتقل الفوارق في الثراء. ويعتقد بعض العلماء أن الديمقراطية تصلح في البلاد التي تضم طبقة متوسطة كبيرة. لقد انهارت كثير من الحكومات الديمقراطية إبان أزمات اقتصادية. حيث كانت المشكلة الأساسية وراء إخفاق هذه الديمقراطيات هي عجزها عن تحقيق القدر الكافي من الوفاق، سواء كان بين الناس أو بين قادتهم، وكثيراً ما تفاقمت واحتدمت الانشقاقات بين الطبقات والأحزاب والقادة، مما عطل عمل الحكومة المنتخبة انتخاباً حراً. فالحكومات الديمقراطية عرضة لعدم الاستقرار، حينما يتفرق الناس وتساورهم الشكوك فيما بينهم. وأحياناً، تشل الانقسامات بين الأجناس والأعراق والديانات سير الديمقراطية.

## 5. العلاقات الدولية

### 1.5. تعريف العلاقات الدولية

تدرس العلاقات الدولية العلاقات الرسمية بين الحكومات والبلدان المستقلة. ويمكن أن تكون هذه العلاقات علاقات سِلْم أو علاقات حرب. وتسعى معظم الحكومات الوطنية إلى إقامة علاقات مع بعضها عن طريق ممثِّلين خاصين يعملون على زيادة التعاون الدولي. يمكن أن يطلق مصطلح العلاقات الدولية على أنواع أخرى من الاتصال بين الدول أوسع من الاتصالات بين الحكومات. ومن هذه الاتصالات أنشطة الشركات متعددة الجنسيات، وكذلك البرامج العالمية مثل صندوق الأمم المتحدة لرعاية الطفولة (اليونيسيف). كما يطلق مصطلح العلاقات الدولية على العلاقات التجارية بين الدول، وعلى حركة الأفراد بين بلد وآخر. تهتم الحكومات بالعلاقات الدولية عن طريق التجمعات الإقليمية الاقتصادية والسياسية. مثل ذلك مجلس التعاون لدول الخليج العربية ورابطة شعوب جنوب شرقي آسيا (آسيان) والمجموعة الأوروبية، ومنظمة الوحدة الإفريقية.

تقوم الدول بالمحافظة على علاقات دولية سلمية عن طريق عدة سبل، منها استخدام الدبلوماسية. ومنها المنظمات والاجتماعات الدولية، والمعاهدات، والقانون الدولي. أو ربما تفرض بعض الدول عقوبات اقتصادية أو غيرها من العقوبات للتأثير على دول أخرى. تسعى معظم الدول – أكثر من أي وقت مضى إلى حل مشاكلها ونزاعاتها الثنائية بطرق سلمية. ويعلم زعماء هذه الدول أن الحضارة يمكن أن تندثر إذا ما تطورت الحروب المحدودة إلى حرب شاملة تُستخدم فيها الأسلحة النووية.

### 2.5. الدبلوماسية

تُعرَّف الدبلوماسية بأنها ذلك العمل اليومي الذي يقوم به السفراء والدبلوماسيون بين بلدهم والبلد المضيف. حيث يقوم المسؤولون الدبلوماسيون بإعداد المعاهدات كما يسهرون على خدمة مواطنيهم الذين يعيشون في الخارج. ويستخدم هؤلاء الدبلوماسيون كافة الطرق السلمية الممكنة مثل المفاوضات، والنقاش، لحلِّ الخلافات أو النزاعات بين الدول.

الوسطاء: غالباً ما ترسل الحكومات ممثلين دبلوماسيين إلى البلدان الأخرى. كما يمكن لطرف ثالث يسمى الوسيط أن يتوسَّط في حل خلاف بين دولتين. فمثلاً قام الجنرال الأمريكي ألكسندر هيج في عام 1982م بدور وسيط لحلّ النزاع بين الأرجنتين وبريطانيا حول جزر الفوكلاند.

لكل دولة وزارة للخارجية تقوم بالإشراف على علاقاتها مع الدول الأخرى. وتقوم هذه الوزارة بتعيين الدبلوماسيين وإرسال المبعوثين الذين يسمون القناصل إلى المدن الأجنبية، حيث يقومون بتنشيط وحماية المصالح الاقتصادية لمواطنيهم في الخارج.

### 3.5. المؤتمرات والمنظمات الدولية

اولاً – المؤتمرات الدولية: يمكن للمشاكل الدولية أن تتشعب بحيث تؤثر على أكثر من دولة في آن واحد، كما يمكن أن تظهر الحاجة لحل نزاعات متعددة في آن واحد. لذلك تقوم الدول بإرسال ممثليها إلى مؤتمرات دولية لمناقشة هذه المشاكل. وعلى سبيل المثال، فقد تبنت الأمم المتحدة سلسلة من الاجتماعات الطويلة لصياغة معاهدة دولية للتحكم في تطوير وحماية المحيطات. وفي بعض الأحيان يعقد رئيسا دولتين أو أكثر مؤتمرات قمة، فمثلاً تقوم المجموعة الأوروبية وزعماء الكومنولث بعقد اجتماعات دورية.

ثانياً – الأمم المتحدة: تنتمي معظم الدول إلى منظمة الأمم المتحدة، وترسل ممثلين لها إلى هذه المنظمة الدولية. يناقش هؤلاء الممثلون وسائل وطرق حلّ النزاع وتحقيق السلام العالمي. ويُعدُّ مجلس الأمن الوكالة الرئيسية في الأمم المتحدة المعنية بحفظ السلام، حيث يمكن أن يدعو المجلس أعضاء الأمم المتحدة لمقاطعة أيِّ دولة تهدد الأمن الدولي. ويمكن أن يطلب مجلس الأمن من أعضاء الأمم المتحدة إرسال قوات مسلحة لحفظ السلام. وعلى أي حال، فإن مجلس الأمن لم ينجح دوماً في المحافظة على السلام، ويعود ذلك في المقام الأول لعدم مقدرته على فرض إرادته وتوصياته على الدول.

### 4.5. المعاهدات الدولية

تعرف المعاهدة بأنها اتفاق رسمي بين الحكومات الوطنية. ويمكن أن تكون ثنائية فتوقع عليها دولتان، كما يمكن أن تكون متعددة يوقِّع عليها أكثر من دولتين. ويقوم الممثلون الرسميون للدول المستقلة بصياغة هذه المعاهدات. كما ينبغي أن تُصادق عليها الحكومات المعنية قبل أن يصبح من الممكن وضعها في حيز التنفيذ.

وتعتبر المعاهدات الأمنية مثالاً عن المعاهدات الدولية، حيث يمكن أن تُوقِّع الدول معاهدات تحالف لتعميق أمن بلدانها، حيث تنص هذه المعاهدات على التزام كلّ من الدولتين بحماية الدولة الأخرى في حالة تعرض أيٍّ منهما لاعتداء خارجي. في عام 1949م، وقعت الولايات المتحدة وكندا وعشر دول أوروبية أخرى على معاهدة تحالف دفاعي سُمِّيت معاهدة حلف شمال الأطلسي. وفي عام 1950م أسِّست هذه الدول الاثنتا عشرة منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو)، التي تتولى توحيد القيادة العسكرية لدول التحالف. وقد وصلت عضوية هذه المنظمة اليوم إلى خمس عشرة دولة.

بالمقابل فقد كانت هناك معاهدة تُسمى معاهدة حلف وارسو الدفاعية، وضمت الاتحاد السوفييتي (سابقاً) وست دول شيوعية أخرى في شرقي أوروبا. وقد وقعت الدول السبع على المعاهدة عام 1955م.

في عام 1975م وقَّع خمسة وثلاثون رئيس دولة اتفاقية هلنسكي، وقد سميت باسم المدينة التي وقعت فيها في فنلندا، وتعبيراً عن تحسن العلاقات بين الدول الشيوعية الأوروبية وبين الغرب، اتفق الرؤساء على تطوير العلاقات الاقتصادية والبيئية وعلاقات التعاون العلمي بين شعوبهم. وفي خضم المفاوضات التي سبقت توقيع الاتفاقية، قبل الغرب باحترام الحدود القائمة في أوروبا الشرقية. وفي مقابل ذلك، وعدت الدول الشيوعية باحترام حقوق الإنسان بما في ذلك حق الأفراد في دخول ومغادرة بلدان حلف وارسو.

### 5.5. القانون الدولي والعقوبات الدولية

اولاً – القانون الدولي: يُعرَّف القانون الدولي بأنه مجموعة القواعد الملزمة للحكومات والدول التي يجب عليها احترامها في علاقاتها مع بعضها. وقد تطوَّر جزء من هذه القواعد بحكم العادة، كما تطوَّرت أجزاء أخرى منه عن طريق المعاهدات الدولية. ويتضمن القانون الدولي أموراً عدَّة من أهمها حقوق الأفراد المسافرين خارج بلادهم، وحقوق السفن التجارية المبحرة خارج مياهها الإقليمية. وتقوم محكمة العدل الدولية، وهي وكالة من وكالات الأمم المتحدة، بالفصل في القضايا والخلافات الدولية في ضوء القانون الدولي. ولا يمكن إجبار أي دولة على الامتثال إلى التقاضي أمام هذه المحكمة، إلا بموافقة تلك الدولة نفسها.

ثانياً – العقوبات غير العسكرية: تفرض على بعض الدول لإجبارها على تغيير سياساتها وربما تكون هذه العقوبات مقاطعة اقتصادية أو حظراً تجارياً. ففي المقاطعة الاقتصادية تمنع الدولة مواطنيها من شراء منتجات الدولة الأخرى، أو تمنعهم من المشاركة في النشاطات الرياضية وغيرها من الأنشطة التي تضمها هذه الدولة. أما في الحظر التجاري، فإن الدولة توقف تعاملاتها التجارية مع الدولة الأخرى. وتتضمن العقوبات أيضاً وقف المساعدات المالية والاقتصادية.

# الفصل السابع عشر: العلوم السياسية
# الجزء الثاني

## الكلمات المفتاحية:

الأحزاب السياسية، الشيوعية، الديمقراطية الاشتراكية، التعددية الحزبية، نظم الحزبين، الحزب الواحد، أحزاب النخبة، الأحزاب الجماهيرية، الأحزاب القومية الشوفينية، الأحزاب المحافظة، الأحزاب الليبرالية، الأحزاب الحاكمة، الأحزاب المعارضة، الماركسية، نظرية قيمة العمل، اللينينية، الفاشية، النازية، اليسار، اليمين، الوسط، اليسار الاشتراكي، اليمين التقليدي، اليمين المتشدّد، اليمين المتطرّف، المحافظون الجدد، الشتراوسية، مشروع القرن الأمريكي الجديد، الحرب على الإرهاب، الإرهاب.

## ملخص:

تتابع هذه الوحدة مناقشة العلوم السياسية، حيث تلقي الضوء على مفهوم الأحزاب السياسية وتستعرض أبرز أنواعها الرئيسية، ولاسيما في أوروبا مع تركيز على الاتجاهات الجديدة في صفوف هذه الأحزاب، كما تلقي هذه الوحدة الضوء على الحرب على الإرهاب، والسياسة الأمريكية في هذا المجال.

## أهداف تعليمية:

يتعرف الطالب في هذا الفصل على:

1. الأحزاب السياسية
   - تعريف الأحزاب السياسية
   - جذور الأحزاب السياسية
   - تصنيفات الأحزاب السياسية
2. الأحزاب الماركسية – الشيوعية
   - الماركسية والشيوعية
   - الشيوعية
3. الأحزاب الفاشية
4. النازية
5. الأحزاب في أوروبا
   - مقدمة
   - أحزاب اليمين الأوروبي المتشددة
   - أحزاب اليمين الأوروبي المتطرفة
6. المحافظون الجدد
7. الحرب على الارهاب

## المخطط:

- الأحزاب السياسية
- الأحزاب الماركسية – الشيوعية
- الأحزاب الفاشية
- النازية
- الأحزاب في أوروبا
- المحافظون الجدد
- الحرب على الإرهاب

# 1. الأحزاب السياسية

## 1.1. تعريف الأحزاب السياسية

هناك تعاريف مختلفة ومتعددة للحزب السياسي ويعود ذلك إلى اختلاف وتنوع الأسس الفكرية والأيديولوجية التي تستند عليها هذه التعاريف، فمثلاً تعتبر الأحزاب الشيوعية، استناداً إلى الفكر الماركسي اللينيني، الحزب أداة الطبقة العاملة للتغيير الثوري وتحقيق دكتاتورية البروليتاريا ومن ثم المجتمع الشيوعي فيما بعد، وليس ساحة لانعتاق الطاقات الفردية الخلاقة. أما ماكس ويبر فيعتمد في تعريفه للأحزاب السياسية على البعد الاجتماعي، وحيث يرى أن الحزب عبارة عن مؤسسات اجتماعية تقوم على أساس الانضمام الطوعي، لغرض توفير القدرة لقيادته من أجل تحقيق الهدف الموضوعي وفتح أبواب الفرص أمام أعضائه لتحقيق منافعهم الشخصية.

يمكن تعريف الأحزاب السياسية بأنها عبارة عن تنظيمات ذات أهداف وطموحات سياسية وفكرية معينة، تعمل داخلها مجموعة من الناس، أعضاء وأصدقاء، ترى فيها الآلية لتحقيق طموحاتها وأمنياتها بمستقبل أفضل. كما تتسع مساحة اهتمام الحزب لتشمل كل مرافق الحياة التي يحاول إدارتها أو صياغتها أو التأثير فيها وعليها بالشكل الذي يتناسب وبرنامج عمله ونظامه الداخلي، والذي يستند بدوره على المنهج الفكري الذي يتبناه. يعتبر الحزب أيضاً بأنه حلقة الوصل بين الشعب والدولة، فهو من جهة، يوجه في مراحل عمله رغبات أعضائه، حيث يجمعهم، يرشحها ويبلورها بالشكل المناسب على شكل مطالب، ومن ثم يعرضها على الحكومة أو في البرلمان، محاولاً استعمال كل الإمكانات المشروعة والسلمية لإعطاء مطالبه هذه زخماً قوياً يعجل في تحقيقها، ومن جهة أخرى ينقل الحزب رأيه واستنتاجاته حول سياسة الدولة إلى الشعب، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى رفع سوية مساهمة الفرد الفعالة داخل المجتمع. كما يجب أن يتسم عمل ونشاط الحزب بالديمومة وألا يقتصرا على الفترة الانتخابية فقط.

دور الحزب

- حلقة وصل بين الشعب والدولة
- توحيد الآراء المختلفة والتعبير عنها
- المراقبة والمحاسبة
- رفع مستوى الوعي السياسي
- المساهمة والمشاركة في عملية صنع القرار السياسي

الشروط المتوجبة في المنظمة لتصبح حزبا

- تؤثر بشكل واضح في تكوين الرغبة السياسية
- يستمر تأثيرها السياسي لفترة زمنية طويلة ويمتد ليشمل مساحة واسعة
- تساهم في الحياة السياسية بشكل فعال
- لا يقل عدد أعضائها عن الحد الذي تفقد فيه مصداقيتها في تحقيق برنامج عملها
- تمتلك القدرة على الاستمرار بالعمل
- تستطيع المشاركة في الانتخابات للحصول على أكبر عدد من النواب داخل البرلمان

## 2.1. جذور الأحزاب السياسية

تعتبر ظاهرة الأحزاب والتنظيمات السياسية ظاهرة حديثة عود جذورها إلى منتصف القرن التاسع عشر، حيث بدأ مفهوم الحزب يتبلور في أوروبا ويحل محل الرابطات الأممية والحركات العالمية الفكرية بعد أن نشر ماركس وإنجلز "البيان الشيوعي" عام 1848م والذي حمل عنوان "بيان الحزب الشيوعي"، واستمرت تجارب تأسيس مختلف الأحزاب السياسية كالأحزاب الاشتراكية الثورية أو الاشتراكية الشيوعية حتى مجيء لينين الذي ضاع في كتابه الشهير "ما العمل؟" وبالاستناد إلى أفكار ماركس، تفسيره الخاص حول مفهوم الحزب الماركسي الثوري وتأكيده على التغيير الثوري لتحقيق دكتاتورية البروليتاريا كهدف سياسي للدولة، والمركزية الديمقراطية كقاعدة تنظيمية داخل الحزب. وقد سيطر هذا الحزب على السلطة في روسيا القيصرية عام 1917 وأقام نظام الحزب الواحد، والذي أصبح تجربة احتذت بها الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية وفرضته على شعوبها بعد الحرب العالمية الثانية وبدعم الاتحاد السوفييتي آنذاك.

بالضد من التوجه الشيوعي تكونت في نهايات القرن التاسع عشر أحزاب الاشتراكية الديمقراطية والأحزاب المحافظة والليبرالية الأخرى، التي اعتمدت الأسلوب الديمقراطي والصراع داخل البرلمان لتحقيق الهدف والوصول إلى السلطة التشريعية والتنفيذية. وقد طبقت هذه الأحزاب نظام التعددية الحزبية في أوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية واستطاعت من خلاله تحقيق منجزات ضخمة على كل المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية.

أما النظام المتبع في الولايات المتحدة الأمريكية فهو نظام الحزبين والذي تعود بداياته إلى عام 1850، حيث تميزت تنظيمات الأحزاب فيه، و على عكس الشيوعية أو الاشتراكية الديمقراطية، بليبراليتها ولا مركزيتها. حيث لم تعتمد مثل هذه الأحزاب على التنظيم الهرمي المركزي الذي ينفذ القرارات الصادرة من القيادة بصورة حرفية، و بل على نظام يتألف من لجان انتخابية تنشط خلال فترات الانتخابات.

### 3.1. تصنيفات الأحزاب السياسية

يمكن تمييز الأحزاب بحسب المعايير التالية:

1. التمييز حسب الدرجة التنظيمية:

- أحزاب النخبة: تضم في صفوفها شخصيات معروفة ومؤثرة إلا أنها لا تعتمد على قاعدة جماهيرية واسعة. تتميز علاقاتها التنظيمية بالمرونة إلا أن ارتباط الأعضاء بالحزب يبقى ضعيفاً. تندرج الأحزاب المحافظة في أوروبا وأمريكا تحت هذا النوع من الأحزاب.
- الأحزاب الجماهيرية: تتميز هذه الأحزاب بعدد أعضائها الكبير وقوة ارتباطهم بالحزب، كما تمتاز علاقة أعضاء الحزب مع بعضهم البعض ومع القيادة بالقوة والمتانة. تعتبر الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية من هذا النوع.

2. التمييز حسب الأهداف الاجتماعية السياسية:

- الأحزاب القومية الشوفينية: يرفض هذا النوع من الأحزاب قواعد اللعبة الديمقراطية ويتميز بعدائه لبقية الأحزاب الديمقراطية.
- الأحزاب المحافظة: تنتشر مثل هذه الأحزاب في معظم البلدان الأوروبية وتتميز بتأثير الكنيسة على برامجها.
- الأحزاب الليبرالية: تسعى هذه الأحزاب إلى تمثيل التوجه الليبرالي في مجتمعاتها سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي، وتدعوا إلى كل ما من شأنه أن يعزز حرية الإنسان ويوسع مساحة إبداعاته الفردية، كما ترى هذه الأحزاب أن كل ذلك لا يمكن تحقيقه إلا في إطار المجتمعات الديمقراطية والاقتصاد الحر. يمكن تصنيف معظم الأحزاب الأوروبية كأحزاب ليبرالية.

3. التمييز حسب الوظيفة في النظام السياسي:

- الأحزاب الحاكمة: هي تلك الأحزاب التي استطاعت بعد الانتخابات تشكيل الحكومة، بالأغلبية أو بالائتلاف.
- الأحزاب المعارضة: هي تلك الأحزاب التي لم تستطع تشكيل الحكومة بسبب عدم فوزها بالانتخابات أو لعدم قدرتها على الدخول في الائتلاف.

## 2. الأحزاب الماركسية – الشيوعية

### 1.2. الماركسية والشيوعية

تعرف الماركسية بأنها الممارسة السياسية والنظرية الاجتماعية المبنية على أعمال كارل ماركس الفكرية، بالاشتراك مع فريدريك إنجلز. تأثر ماركس بكل من فلسفة هيجل، والاقتصاد السياسي لآدم سميث، والنموذج الاقتصادي لديفيد ريكاردو، وبالاشتراكية الفرنسية في القرن التاسع عشر ليطوّر نظرية نقد اجتماعي وصفها بأنها علمية وثورية.

تبنّت العديد من الجماعات حول العالم، منذ وفاة ماركس عام 1883، النظرية الماركسية كأساس فكري لتوجهاتها السياسية وسياساتها التنظيمية. إلا أن تطلعات وأفكار هذه الجماعات لم تكن بالضرورة متطابقة، ويمكن اعتبار انقسام الفكر الماركسي بين مؤيدي الديمقراطية الاشتراكية وبين الشيوعيين أول الانقسامات الهامة التي واجهها هذا الفكر، حيث اعتبر مؤيدو الديمقراطية الاشتراكية أن الانتقال إلى الاشتراكية يمكن أن يتم في إطار ديمقراطي. فقد تطورت الديمقراطية الاشتراكية في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، وأدت مع الوقت إلى تخلي الحزب عن جذوره الماركسية، في حين اعتبر الشيوعيون أن الانتقال إلى المجتمع الاشتراكي لا يمكن أن يتحقق إلا عبر الثورة.

### 2.2. الشيوعية

هي نظرية اجتماعية وحركة سياسية ترمي إلى السيطرة على المجتمع ومقدراته وتوزيع هذه المقدرات بالتساوي بين أفراد المجتمع بحيث لا يمتاز فرد عن آخر. يعتبر كارل ماركس الأب الروحي للنظرية الشيوعية.

دافع العديد من المثقفين الغربيين عن أفكار مشابهة لفكرة الشيوعية على مر التاريخ. ففي القرن الرابع اقترح أفلاطون وضع ملكية العقار بيد طبقة مثقفة من المجتمع وذلك ليزيح أسباب التناحر على ملكية العقارات عن كاهل طبقات المجتمع الدنيا. وفي العام 1534م، قام المدعو جون من مدينة لايدين بتحويل مدينة منستير إلى مجتمع أطلق عليه اسم "القدس الجديدة" وابتدع فكرة تعدد الأزواج والزوجات إلى أن هجم الكاثوليك على تلك المدينة مما أدى إلى حدوث مذبحة في المدينة ونهاية حلم المدعو جون. في القرن التاسع عشر وإبان الثورة الصناعية، سئم الكثيرون من الانحطاط والاضطهاد الذين ألمّا بالناس نتيجة اللهث وراء لقمة العيش فاعتزلوا المجتمع، ونذكر هنا روبرت أوين الذي اعتزل المجتمع وكوّن مجتمعاً صغيراً أسماه نيو هارموني في ولاية إنديانا الأمريكية وكان المجتمع الصغير الذي أنشأه يتخذ طابعاً شيوعياً.

قدم كل من كارل ماركس وفريدريك إنجلز الشيوعية كحركة ثورية إلا أنهما لم يشيرا إلى ضرورة أن تتبلور هذه الحركة في بقعة معينة من العالم حيث من الممكن أن تنتشر وتتطور في العالم. كما وصف الرجلان التاريخ – بحلوه ومرّه – بأنه صراع بين طبقات المجتمع، حيث نجد أنه في كل مجتمع تشرف طبقة صغيرة متنفّذة على عملية الإنتاج والعطاء بينما لا يسهم السواد الأعظم من المجتمع إلا قليلاً في قيادة عجلة المجتمع الاقتصادية والإنتاجية. واعتبر كارل ماركس أن الرأسمالية التي كانت تتحكم وتسيّر عجلة الاقتصاد في عصره إنما تفعل ذلك بصورة غير منصفة.

وضع ماركس ما أطلق عليه اسم نظرية قيمة العمل لتفصيل الكيفية التي يستغل بها البرجوازيون الطبقة الكادحة وتوضيح الطريقة التي يشتري بها أرباب الأعمال وقت العامل عن طريق دفع راتب مقطوع لهذا العامل ومن ثمّ يقوم ربّ العمل ببيع السلعة التي يصنعها العامل بفارق ربح! كان كارل ماركس يرى في العملية آنفة الذكر إجحافاً بحق العامل وأن هناك خللاً في تطبيق العدالة بين ما يجنيه العامل من عائد متمثّل في راتبه المقطوع وبين الربح الفاحش الذي يجنيه أرباب العمل.

اعتقد ماركس أنّها مجرد مسألة وقت حتى يعي العمّال في شتّى بقاع الأرض أهدافهم المشتركة في تحقيق العدالة الاجتماعية ومن ثم سيتّخذ هؤلاء العمّال الخطوة الأولى في الإطاحة بأرباب أعمالهم وتقسيم الثروة بينهم وعزل البرجوازيين من معادلة الرّبح وأن هذا التصرّف سيكون تلقائياً وحتمياً!

استناداً إلى نظرية كارل ماركس، سيتحوّل العالم الرأسمالي إلى عالم اشتراكي وفي النهاية سيصل به المطاف إلى الشيوعية. إلا أن العالم الرأسمالي، في بداية القرن العشرين، لم يكن قريباً على الإطلاق من نظرية ماركس بل على العكس، كان هذا العالم قويّاً أيما قوة مما أحدث شرخاً بين أتباع ماركس وأطروحاته النظرية. حيث اعتبر بعض أتباع مارك أنه بالإمكان تحقيق المجتمع الاشتراكي بدون الحاجة للقيام بثورة وسمّيت هذه الفكرة بالاشتراكية الديمقراطية. أمّا بالنسبة للينين، فكان يقول أن ماركس لم يقدّر قوة الرأسمالية الإمبريالية كما ينبغي وهناك حاجة للقيام بثورة عمّالية تأخذ السلطة من البرجوازيين وتسير باتّجاه تطبيق المبدأ الشيوعي وهذا أفضل تعريف للشيوعية.

## 3. الأحزاب الفاشية

اشتق مصطلح الفاشية "fascism" من الكلمة الإيطالية fasces، وهي تعني حزمة من الصولجانات كانت تُحمَل أمام الحكام في روما القديمة دليلاً على سلطاتهم. وفي تسعينيات القرن التاسع عشر بدأت كلمة فاشيا "fascia" تستخدم في إيطاليا للإشارة إلى جماعة أو رابطة سياسية عادة ما تتكون من اشتراكيين ثوريين.

استخدم موسوليني هذا المصطلح لوصف الجماعة البرلمانية المسلحة التي شكّلها في أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها قدم موسوليني في زيه الفاشي مؤشراً على أن مصطلح "fascisma" إنما بدأ يمثل معان أيديولوجية واضحة. عادة ما يفتقر توظيف مصطلحي "fascism" والفاشي "fascist" إلى الدقة، فكثيراً ما يُستخدم هذان المصطلحان بغية الإساءة السياسية للخصوم السياسيين واتهامهم بالدكتاتورية ومعاداة الديمقراطية. فعلى سبيل المثال أصبح "الفاشي" و"الديكتاتور" لفظين يطلقان بشكل متبادل على كل مَن يتبنى أو يعبر عن آراء منافية أو مخالفة للمنظومة القيمية للأيديولوجية الليبرالية أو مؤسساتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والحق أنه لا تجوز مساواة الفاشية بأساليب القمع الخالص؛ فقد ساهم نطاق معين من النظريات والقيم في رواج الفكر الفاشي، كما أن الأنظمة الفاشية التي ظهرت في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين قدمت صيغاً من الحكم والإدارة السياسية التعاضدية التي يجب دراستها بمعزل عن الطبيعة السلطوية للأنظمة الفاشية نظراً لأهميتها التعاضدية في نظريات الإدارة السياسية.

## 4. النازية

تعرف النازية بأنها فكر وأيديولوجية حزب العمال القومي الاشتراكي الألماذي (NSDAP أو Nazi)، تحت قيادة الفوهرر (القائد أو الموجه) أدولف هتلر. ويستخدم هذا المصطلح عادة للإشارة إلى ما يتعلق بالحكم الديكتاتوري في ألمانيا النازية بين الأعوام 1933 و 1945 أو ما يعرف باسم ("الرايخ الثالث" أي المملكة الثالثة)، واللفظ مأخوذ من كلمة Nationalsozialismus الألمانية والتي تعني "قومية – إشتراكية". آمن أتباع النازية بأن العرق الآري متفوق على الأجناس والعروق الأخرى من البشر. وسوقوا للتفوق العنصري الألماني كدولة مركزية قوية. تعتبر النازية خارجة عن القانون في ألمانيا الحديثة، إلا أن ذيولها لا تزال ناشطة إلى حد ما تحت لواء ما يسمى بالنازيين الجدد.

هناك علاقة ارتباط قوية بين النازية والفاشية، إلا أن مصطلح النازية يستخدم عادة لوصف الفكر والسياسة في ألمانيا النازية وحدها، بينما تحمل الفاشية معنى أكثر عمومية، للإشارة إلى طيف أعرض من الحركات السياسة التي وجدت في الكثير من الدول، وتصنف النازية عادة كشكل من أشكال الفاشية.

## 5. الأحزاب في أوروبا

### 1.5. مقدمة

يمكن تمييز المعالم التالية في الخارطة الحزبية الأوروبية:

1. اليسار الاشتراكي أو الشيوعي وريث الشيوعية كما في ألمانيا الموحدة وبلدان أوروبا الشرقية، والأحزاب الشيوعية التقليدية في بلدان أوروبية أخرى مثل فرنسا وإيطاليا. اليسار من الاشتراكيين والديمقراطيين الاشتراكيين، وغالب أحزابه سلك نهج ما سمّي الطريق الثالث بزعامة الحزب الديمقراطي الاشتراكي في ألمانيا وحزب العمال في بريطانيا، مع ميل سياسي واقتصادي شديد نحو اليمين تحت شعار "أحزاب الوسط" ومع التخلّي عن كثير من الضمانات الاجتماعية التاريخية.
2. اليمين التقليدي من المحافظين والمسيحيين والأحرار، وقد أصبحت أحزابه في هذه الأثناء أقرب إلى الرأسمالية المتشدّدة، مع تبنّي العولمة دون تحفظ كتحفظات اليسار عليها.
3. اليمين المتشدّد أو أحزاب أقصى اليمين، وقد أصبح أبرز ما يميزها عن اليمين التقليدي تبنيها للدعوات القومية، وهي المشاركة فعلا في اللعبة الديمقراطية، رغم الخلط المتعمّد – غالباً – بينها وبين اليمين المتطرّف.
4. اليمين المتطرّف الذي لا تمثله أحزاب رسمية إلا نادراً، فغالبها محظور، مثل النازيين جدد، أو حليقي الرؤوس، أو جماعات العنف اليميني، أو الجماعات العنصرية.

والملاحظ في هذه المعالم ضمور وجود أحزاب الخضر بعد أن كانت تمثل قطاع المحافظة على البيئة وحركة السلام ومناهضة التسلّح، وغابت هذه الدعوات في مناهج الأحزاب الأخرى وفي نشاط المنظمات غير الحكومية، هذا مقابل ما قد يضاف إلى هذه المعالم في المستقبل المنظور، كاتجاه وليد يمثل "مناهضي العولمة" مما تنامى بقوة لاسيما في فرنسا، واحتل موقع دعوات البيئة وحركة السلام على مستوى جيل الشبيبة، ولا يستبعد أن تظهر تشكيلات حزبية له في عدد من البلدان الأوروبية.

### 2.5. أحزاب اليمين الأوروبي المتشددة

تتفق جميع أحزاب اليمين الأوروبي المتشدد على فكرة واحدة، وهي أن المهاجرين وأبناءهم وأحفادهم وما سيخلفونه من نسمات في المستقبل هم مصدر الشر ومنطلق جميع المشاكل في أوروبا.

وقد استطاعت تشكيلات اليمين الأوروبي المتشددة أن تصبح في الربع الأخر من القرن الماضي من أهم القوى السياسية الأوروبية.

عرفت أوروبا مع منتصف الثمانينيات من القرن الماضي موجة انتشار الأحزاب اليمينية المتشددة. وهو انتشار حرك داخلياً الخريطة السياسية الأوروبية لطلوع نجم اليمين المتشدد على حساب التشكيلات السياسية التقليدية، كما أثار خارجياً جملة من ردود الأفعال لاستهداف هذا اليمين المتشدد الشرائح الاجتماعية غير الأوروبية التي تسكن في أوروبا. وتتفق جميع أحزاب اليمين الأوروبي المتشدد على فكرة واحدة، وهى أن المهاجرين وأبناءهم وأحفادهم وما سيخلفونه من نسمات فى المستقبل هم مصدر الشر ومنطلق جميع المشاكل في أوروبا. كما يغلب على زعماء أحزاب اليمين المتشدد الأوروبي سلاطة اللسان والنزول في الخطاب إلى مستوى السجال البذيء والتنابز بالألقاب. وقد عرف ذلك عن يورغ هايدر في النمسا وعن جيانفرانكو فيني في إيطاليا وجان ماري لوبن في فرنسا.

استطاعت تشكيلات اليمين الأوروبي المتشددة أن تصبح في الربع الأخير من القرض الماضي من أهم القوى السياسية الأوروبية. فمنذ منتصف الثمانينيات أصبح حزب الكتلة الفلاماندية، الحزب البلجيكي المعروف بين صفوف المجموعة الفلاماندية، التشكيلة السياسية الثالثة على مستوى اليمين الأوروبي المتشدد. حصل هذا الحزب في حزيران من عام 1999 على 15% من الأصوات خلال الانتخابات التشريعية. ويوجد 11 عضواً من اليمين المتشدد البلجيكي في البرلمان و5 أعضاء في مجلس الشيوخ. وفي ألمانيا ومنذ الحرب العالمية الثانية استطاع اتحاد الشعب الألماني أن يحصل في نيسان 1999 على نسبة 12.9% من أصوات الناخبين في اقتراع على مستوى "ساكس – أنهالت".وفي النمسا تضاعفت قوة حزب الحرية النسماوي أربع مرات منذ رئاسة يورغ هايدر له عام 1986 وقد دخل في ائتلاف حكومي في 4 فبراير/ شباط 2000 في سابقة تاريخية لم تعرفها أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية. وفي الدانمارك تحالف حزب الشعب الدانماركي وحزب التقدم المتشددان وحصلا على نسبة 16.8% من الأصوات في الانتخابات التشريعية عام 1998. وفي تشرين الثاني 2001 أظهر الاقتراع بالدانمارك أن حزب الشعب الدانماركي المتشدد بزعامة السيدة بيا كجاريغارد سجل فوزه بنسبة 12%.وفي فرنسا، وقبل أن يبدأ الصراع الداخلي بين لوبن وميغريه، استطاعت الجبهة الوطنية أن تحصد أكثر من 14.38% من أصوات الناخبين الفرنسيين في الانتخابات الرئاسية عام 1988، كما تقدم لوبن إلى الشوط الثاني مع جاك شيراك في انتخابات نيسان 2002 وحصل على 19.9% من أصوات الناخبين الفرنسيين في الدور الأول و17.8% في الدور الثاني.

وفي إيطاليا نجح حزب الجامعة الشمالية في الحصول على 10.1% من الأصوات في الانتخابات التشريعية في عام 1996. وفي النرويج حصل حزب التقدم برئاسة كارل آي هاغن "Carl I. Hagen" وهو حزب يميني متشدد على 15.3% في تشريعيات 1997. كما فاز بنسبة 14.7% في انتخابات أيلول 2001 وأصبح ثالث قوة سياسية بعد حزب العمال النرويجي وحزب المحافظين. وفي هولندا وخلال الانتخابات التشريعية في 15 أيار 2002 استطاع حزب "بيم فورتوين" اليميني أن يحصد 26 مقعدا من أصل 150. وفي بريطانيا استطاع الحزب الوطني البريطاني برئاسة "نيك جريفين" أن يحصل على ثلاثة مستشارين بلديين بضواحي مانشستر في انتخابات 2 أيار 2002.

### 3.5. أحزاب اليمين الأوروبي المتطرفة

تكتسب مصطلحات اليمين واليسار في أوروبا صبغة علمية منذ نشأتها التلقائية الأولى بعد جلوس أصحاب الاتجاه الرأسمالي المحافظ يميناً وأصحاب الاتجاه الاشتراكي العمالي يساراً في المجالس النيابية البريطانية، حتى أصبح ذلك تقليداً متبعاً. واختلفت معالم الخارطة الحزبية من بلد أوروبي إلى آخر، مع اختلاف التعامل مع أحزاب تمثل أقصى اليمين أو أقصى اليسار، فغابت أو غُيبت في بعض البلدان، وظهرت فكانت جزءاً من الحياة السياسية والائتلافات الحكومية في بلدان أخرى، كما هو الحال مع الشيوعيين في فرنسا وإيطاليا، أو حزب الشعب اليميني في سويسرا والأحرار في النمسا. والجدير بالذكر أن معظم الأحزاب الاشتراكية – وإن انبثقت من محاضن الشيوعية – حملت عنوان "اليسار" الأوروبي وكانت في واقع الحياة السياسية أحزاباً رأسمالية المناهج، مع فارق التركيز على الضمانات الاجتماعية والدعوة الأممية بالمقارنة مع الأحزاب "اليمينية" من المحافظين والمسيحيين والأحرار، التي ربطت المنهج الرأسمالي غالباً بخليط من القيم المسيحية الكنسية والتصوّرات العلمانية.

بدأت هذه الصورة العامة في أوروبا تتبدل في الثمانينيات الميلادية مع ظهور معالم الاهتراء في المعسكر الشرقي من جهة وظهور ما عرف بالرأسمالية المتشدّدة في الغرب من جهة أخرى، والتي حملت عنوان الريغانية نسبة إلى الرئيس الأميركي الأسبق رونالد ريغان، والتاتشرية نسبة إلى رئيسة الوزراء البريطانية سابقاً مارغريت تاتشر. وفي تلك الفترة نفسها انحسرت موجة التجمعات اليسارية المتطرفة التي لجأت إلى العنف، مثل بادر– ماينهوف في ألمانيا والألوية الحمراء في إيطاليا وغيرها، وبدأت موجة ظهور تجمعات يمينية متطرّفة، كانت موجودة من قبل، ولكنها بدك تكسب الأنصار في أوروبا أكثر مما مضى، امتداداً لحركة مماثلة في الولايات المتحدة الأميركية. وكان العنصر الرئيسي المشترك بين هذه التجمعات هو التعصّب القومي، وهو ما ساهم في توجيه العنف ضد الأجانب وذوي الأصول الأجنبية في البلدان الأوروبية.

بشكل عام بدأت أوروبا تميل إلى اليمين بصورة مطّردة وضاعفت سرعتها بعد سقوط الشيوعية، وانعكس ذلك في السياسات الرسمية والمناهج الاقتصادية والاجتماعية ومثل بالتالي مناخاً عامّاً يساهم في تفسير أسباب انحسار ظاهرة التطرف اليساري وانتشار التطرف اليميني مكانه. وللوصول إلى صورة عن نتائج ذلك ينبغي الانطلاق من عداء التطرّف اليميني وأعمال العنف الصادرة عنه تجاه الأجانب عموماً، وهو ما نبت في تربة ملائمة، كان من أبرز معالمها إلى جانب المناخ العام الذي أوجدته الرأسمالية المتشدّدة وفرضته على تطوّر معالم الخارطة الحزبية الأوروبية:

- سقوط المعسكر الشيوعي وبالتالي ضياع "جاذبية" منهجه الاقتصادي ودعوته "الأممية". ممّا ساهم في تعزيز موقع الدعوات القومية بما فيها المتعصبة على صعيد الشبيبة.
- مضاعفة سرعة مسيرة الاتحاد الأوروبي الاندماجية، ممّا أثار مخاوف شعبية على المستوى الوطني والاقليمي للمناطق المختلفة أن تكون "مركزية الأجهزة الأوروبية" على حساب الخصوصيات الوطنية والمحلية.
- ردود الفعل المضادّة في أواسط الشبيبة على الحملات اليهودية والصهيونية المتجددة لإحياء مفعول ما يسمّى "العقدة النازية" بعد رصد اضمحلاله، وقد استهدف جيل الشبيبة في المدارس وعبر وسائل الإعلام، فكانت ردود فعله منسجمة مع واقع عدم معايشته للحرب العالمية الثانية أو حتى الباردة.

## 6. المحافظون الجدد

اولاً – المحافظون الجدد: تأسس المحافظون الجدد (Neo Cons) فكرياً على يد ليو شتراوس المفكر الألماني الذي هاجر إلى أمريكا عام 1938, وأسس كأستاذ جامعي في جامعة شيكاغو ما عُرف فيما بعد بالشتراوسية الليبرالية التي كانت تمثل الجذور الأولى لفكر المحافظين الجدد الآن، الذين تم إطلاق هذا القب عليهم، من قبل الليبراليين الأمريكيين، من باب السخرية والحطِّ من قيمتهم الفكرية والسياسية.

ثانياً – أفكار الشتراوسية: كانت الشتراوسية تنادي بالأفكار التالية:

- رفض الحداثة وتفضيل المنطق على التفكير
- استخدام الدين للسيطرة على الجموع
- استعمال الكذب والخداع للمحافظة على السلطة
- فرض الدين على الجماهير وإبعاده عن الحكام
- استعمال القوة لكبح العدائية لدى البشر، من خلال دولة قوية كابحة
- الإيمان بالريادة الأمريكية الخيرة

ثالثاً – مشروع القرن الأمريكي الجديد: وفي الثمانينات، وفي عهد إدارة رونالد ريغان (1980 – 1988) لعب المحافظون الجدد الذين كانوا من الحزب الديمقراطي، ثم انضموا إلى الحزب الجمهوري دوراً سياسياً مهماً، حاثين إدارة ريغان على استعمال شدة أكثر قسوة مع الاتحاد السوفيتي من أجل إسقاط النظام الشيوعي هناك. وكان على رأس هؤلاء المحافظين الجدد دونالد رامسفيلد. ديك تشني، جيب بوش، زالماي خليل زادة، ريتشارد بيرل، دوغلاس فايث، وولفوفيتز، وغيرهم. وفي عام 1997 قدم هؤلاء للكونغرس ولإدارة الرئيس كلينتون ما سُمّي بـ "مشروع القرن الأمريكي الجديد" ولكنهم لم يلقوا آذانا صاغية من هؤلاء. وكان برنامجهم السياسي ينادي بالأفكار التالية

- زيادة ميزانية الدفاع بشكل كبر لتحديث القوات المسلحة
- تعزيز العلاقات مع الدول الصديقة الديمقراطية
- تحدي أمريكا لنظم الحكم المعادية للحرية والديمقراطية
- تعزيز ودعم الإصلاح السياسي وحرية السوق في العالم
- قبول أمريكا بالدور الفريد في الحفاظ على النظام العالمي الديمقراطي الحر
- المطالبة باستعمال القوة في القضاء على النظم الديكتاتورية في العالم ومنها العراق
- عدم حصر قيم الحرية والديمقراطية في شعب من الشعوب، أو في بلد من البلدان
- النظر إلى العالم من خلال منظار الخير والشر، ولا منظار وسطياً بينهما

رابعاً – كارثة 11 سبتمبر: ووقعت بعد ذلك كارثة 11 سبتمبر 2001 التي أضافت إلى الخطاب السياسي للمحافظين الجيد ثلاثة بنود جديدة هي:

- استعمال العصا الاستباقية
- إظهار محور الشر والتنديد به
- تقسيم العالم إلى أعداء وأصدقاء (أن تكون معنا أو ضدنا) دون وسطية

## 7. الحرب على الإرهاب

### 1.7. مقدمة

الحرب على الإرهاب وتسمى أيضاً الحرب العالمية على الإرهاب و يطلق عليها البعض تسمية الحرب الطويلة، وهي عبارة عن حملة عسكرية واقتصادية وإعلامية مثيرة للجدل تقودها الولايات المتحدة بمشاركة بعض الدول المتحالفة معها وتهدف هذه الحملة حسب تصريحات الرئيس الأمريكي جورج و.بوش إلى القضاء على الإرهاب والدول التي تدعم هذا الإرهاب. بدأت هذه الحملة عقب أحداث 11 سبتمبر 2001 التي كان لتنظيم القاعدة دور فيها وسرعان ما أصبحت هذه الحملة المحور المركزي في سياسة الرئيس الأمريكي جورج و.بوش على الصعيدين الداخلي والعالمي وشكلت هذه الحرب انعطافة وصفها العديد بالخطيرة وغير المسبوقة في التاريخ لكونها حربا غير واضحة المعالم و تختلف عن الحروب التقليدية بكونها متعددة الأبعاد والأهداف.

بدأت هذه الحرب قبيل وأثناء وعقب أحداث 11 سبتمبر 2001 حصلت سلسلة من الأحداث التي أدت تدريجياً إلى بلورة فكرة الحرب على الإرهاب ونشوء فكرة محور الشر الذي استعمله الرئيس الأمريكي جورج و.بوش لوصف دول العراق وإيران وكوريا الشمالية وأيضاً نشوء الفكرة المثيرة للجدل وهي الهجوم مع سبق الإصرار لغرض الدفاع عن النفس.

فيما يلي سلسلة من الأحداث تم ذكرها كمسوغات لبداية إعلان الحرب على الإرهاب.

في 26 شباط 1993 تم تفجير سيارة مفخخة في مرآب بناية مركز التجارة العالمية في نيويورك وأسفر هذا الانفجار عن مقتل 6 وإصابة أكثر من 1000 شخص بجروح وقام بتنفيذ هذه المهمة حسب وكالة المخابرات الأمريكية المواطن الكويتي من أصول باكستانية رمزي يوسف والذي دخل الولايات المتحدة بجواز سفر عراقي وهو ابن أخ خالد شيخ محمد أحد قياديي منظمة القاعدة والذي ثم القبض عليه في باكستان عام 2003. وحسب نفس المصدر فإن يوسف قد تعاون مع الأمريكي من أصول عراقية عبد الرحمن ياسين لوضع السيارة المفخخة في مرآب بناية مركز التجارة العالمية في نيويورك و التي كانت تزن 600 كغم من مادة تي إن تي. انفجرت المفخخة في الساعة 12:17 ظهراً بتوقيت نيويورك وفر يوسف رمزي إلى الباكستان بعد ساعات من العملية وبقي فيها إلى أن تم إلقاء القبض عليه في 7 شباط 1995 وحكم عليه بالسجن المؤبد من قبل محكمة أمريكية وهو حالياً في أحد سجون ولاية كولورادو. بالنسبة لعبد الرحمن ياسين فهو من مواليد الولايات المتحدة لأبوين عراقيين ويعتقد أنه في العراق حالياً وهو على لائحة المطلوبين من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالي.

في 7 آب 1998 تفجير سفارتي الولايات المتحدة الأمريكية في دار السلام عاصمة تنزانيا ونيروبي عاصمة كينيا وتم اتهام منظمة القاعدة بتنفيذ الهجمتين اللتين أسفرتا عن 225 قتيل وجرح أكثر من 4000 شخص وهذه الهجمة أدت إلى انتشار اسم أسامة بن لادن على النطاق العالمي وقام الرئيس الأمريكي انذاك بيل

كلينتون بإصدار أوامره في 20 آب 1998 بقصف أهداف في السودان وأفغانستان بصواريخ توما هوك وكانت من ضمن الأهداف مصنع الشفاء للأدوية في الخرطوم الذي زعمت الولايات المتحدة بأنها شركة كانت تساند أسامة بن لادن مالياً ومن الجدير بالذكر أن حكومة السودان طالبت الولايات المتحدة باعتذار رسمي ولكن لم يتم إصدار هذا الاعتذار، وكانت الأهداف في أفغانستان عبارة عن ما وصفه بيل كلينتون بمعسكرات لتدريب الإرهابيين وكان الرئيس الأمريكي في تلك الأثناء في خضم ضجة إعلامية بسبب علاقته مع مونيكا ليونسكي.

في 12 تشرين الأول 2000 تم تنفيذ إحدى العمليات الانتحارية على ناقلة عسكرية أمريكية بحرية USS Cole في ميناء عدن في اليمن وكانت الناقلة راسية في المياه اليمنية لغرض التزويد بالوقود. في الساعة 11:18 قبل الظهر بتوقيت عدن اقترب قارب صغير من الناقلة واصطدم بها محدثاً انفجاراً خلف فتحة بطول 12 متر على جانب الناقلة وقتل 17 من الملاحين وتم إصابة 39 آخرين بجروح وتم فيما بعد اكتشاف أن منفذي العملية إبراهيم الثور وعبدالله المسأواة كانوا أعضاءً في منظمة القاعدة. بعد أكثر من سنتين و بالتحديد في 3 شباط 2002 أطلقت عناصر من وكالة المخابرات الأمريكية النار على سيارة كانت تقل أبو علي الحارثي و أحمد حجازي على الأراضي اليمنية حيث اعتبرت الوكالة الاثنين من المخططين الرئيسيين للعملية.

## 2.7. تعريف الإرهاب

كلمة الإرهاب بحد ذاتها هي كلمة مثيرة للجدل إذ أن للكلمة معاني عديدة يعتمد على الانتماء الثقافي و الديني للشخص، إلا أن مفهوم الكلمة الحالي المستعمل في وكالات الأنباء الغربية هو أي عمل يستخدم العنف والقوة ضد المدنيين يهدف إلى إضعاف الروح المعنوية للعدو عن طريق إرهاب المدنيين بشتّى الوسائل. ويعتبر تعريف الإرهاب من المشاكل الكبرى في العصر الحديث ناهيك عن المشاكل في تعريف كلمات مثل الحرب أو المقاومة أو الغزو أو التحرير التي تختلف معانيها وأسلوب استخدامها حسب الاتجاهات السياسية والعقائدية للشخص. قبل إعلان الحرب على الإرهاب كان تعريف الحرب هو صراع مسلح بين القوات المسلحة لدولتين ضمن حدود واضحة المعالم مثل الحرب العالمية الأولى أو الحرب العالمية الثانية أو حرب الخليج الأولى، لكن الحرب على الإرهاب غيرت كلياً المفاهيم القديمة في تعريف الحروب. حيث لا تتحدد في هذا النوع من الحرب بقعة جغرافية معينة يمكن أن تعتبر جبهة القتال الرئيسية وحتى إذا تم تحديد حدود الصراع فإن مجرد محاولة إطلاق تسمية على الحملة يكون موضوعاً مثيراً للجدل

فعلى سبيل المثال يطلق البعض تسمية "غزو العراق 2003" على الحملة العسكرية التي أطاحت بحكم حزب البعث في العراق بينما يطلق عليه البعض الآخر "عملية تحرير العراق" ويطلق البعض تسمية المقاومة العراقية على العمليات المسلحة التي تشن على قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة والسلطات التي تشكلت عقب الحملة في العراق منذ 2003 بينما يطلق البعض الآخر تسمية العمليات الإرهابية عليها وهناك تقسيمات حتى بين المتفقين على استعمال مصطلح معين مثل "المقاومة" فالبعض يقسمها إلى تقسيمات ثانوية مثل المشروعة أو الشريفة والغير المشروعة ومن الأمثلة الأخرى هي حركة حماس في فلسطين التي تعتبر من قبل الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وإسرائيل "منظمة إرهابية" بينما يعتبرها البعض الآخر "حركة جهادية" أو "تحررية" وحتى إذا تم الاتفاق على تسمية الحرب على الإرهاب فإن هناك اختلافاً في طريقة شن هذه الحرب فعلى سبيل المثال يؤمن جورج و.بوش بمبدأ الهجوم مع سبق الإصرار لغرض الدفاع بينما يؤمن الاتحاد الروسي بالتدخل في الشيشان فقط إذا كانت هناك ضربات مباشرة على مصالحها. في تموز 2005 تخلت الإدارة الأمريكية عن استعمال مصطلح الحرب على الإرهاب وبدأت باستعمال "الصراع الدولي ضد التطرف العنيف" Global Struggle Against Violent Extremism.

فيما يلي بعض التعاريف لكلمة terrorism أو الإرهاب:

- حسب قاموس أوكسفورد السياسي Oxford Concise Dictionary of politics الإرهاب هو مصطلح لا يوجد اتفاق على معناه الدقيق حيث يختلف الأكاديميون و السياسيون على تعريفه ولكنه بصورة عامة يستخدم لوصف أساليب تهدد الحياة تستعملها مجاميع سياسية نصبت نفسها في حكم أو قيادة مجاميع غير مركزية في دولة معينة.
- الأمم المتحدة: لا يوجد لها لحد هذا اليوم تعريف للإرهاب.
- تعريف شميد (A.P. Schmid) الذي يستعمله علماء الاجتماع وفيه يعتبر الإرهاب أساليب متكررة تولد الخوف والقلق يقوم بها أفراد بإشراف مجموعات داخل دولة أو بإشراف الدولة نفسها وتكون أهداف العملية سياسية عادة وتختلف عن الاغتيالات بكونها ليست موجهة إلى شخص معين ويتم اختيار الأهداف لغرض إرسال إشارات إلى أكبر عدد من الناس والحكومات التي تمثلهم.
- تعريف الاتحاد الأوروبي: الإرهاب عبارة عن عمل عدواني متعمد يقوم بها أفراد أو مجموعات وتكون موجهة ضد دولة أو أكثر من دولة بغرض ممارسة الضغط على الحكومات بأن تغير سياساتها الدولية والداخلية والاقتصادية.
- تعريف عصبة الأمم لسنة 1937: الإرهاب هو عمل إجرامي موجه ضد حكومة معينة بغرض خلق حالة من الرعب في نفوس أشخاص أو مجموعة من الأشخاص الساكنين في تلك الدولة.

- تعريف الولايات المتحدة: أي عملية عنف تشكل خطراً على حياة الإنسان تنافي القوانين الجنائية للولايات المتحدة أو أية ولاية من الولايات الأمريكية وحدثت إما داخل حدود الولايات المتحدة أو خارجها مستهدفة لمصالح أمريكية ويكون غرض العملية إرعاب المدنيين والتأثير على الحكومة لتغيير سياستها.

### 3.7. تطور مفهوم الارهاب /الحرب على الارهاب:

اولاً – مرحلة الثورة الفرنسية: استخدم مصطلح terrorism لأول مرة في عام 1795 وكانت الكلمة فرنسية مشتقة من كلمة لاتينية terrere بمعنى التخويف واستعملت الكلمة لوصف الأساليب التي استخدمتها المجموعة السياسية الفرنسية Jacobin Club بعد الثورة الفرنسية وكانت هذه الأساليب عبارة عن إسكات واعتقال المعارضين لهذه المجموعة السياسية التي لعبت دوراً بارزاً في الثورة الفرنسية حيث كانت توجهاتها معتدلة في البداية ولكنها بدأت تنحو منحاً يسارياً بعد الثورة وكان عدد المنتمين إلى هذه المجموعة يقارب 500,000 ولكن المجموعة انحلت وقتل معظم قياديها في عام 1794.

ثانياً – بدايات القرن العشرين: في بدايات القرن العشرين كانت كلمة الإرهابي يستخدم بصورة عامة لوصف الأشخاص أو الجهات الذين لا يلتزمون بقوانين الحرب أثناء نشوب صراع معين مثل تجنب الاستهداف المتعمد للأهداف مدنية أو المدنيين ورعاية الأسرى والعناية بالجرحى، وكان التعبير يستخدم أيضاً لوصف المعارضين السياسيين لحكومة معينة وكانت كلمة إرهابي ذو معاني إيجابية من قبل المعارضين أقدم ذكر لهذه الكلمة مدونة في سيرة الكاتبة الماركسية الروسية فيرا زاسوليج (Vera Zasulich) والتي قامت باغتيال الحاكم العسكري لمدينة سانت بطرسبرغ في عام 1878 لأسباب سياسية، وقامت راسوليج بعد الاغتيال بإلقاء مسدسها وتسليم نفسها قائلة "أنا إرهابية ولست بقاتلة" وكانت راسوليج عضوة في مجموعة كانت تسمى لاسلطوية وكانت المجموعة معارضة لحكومة روسيا القيصرية.

ثالثاً – الأربعينيات: استعمل تعبير الحرب على الإرهاب لأول مرة من قبل سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين أثناء الحملة الواسعة التي قامت بها للقضاء على سلسلة من الضربات التي استهدفت مدنيين فلسطينيين والتي كانت تقوم بها منظمتي أرجون و شتيرن فقامت القوات البريطانية بحملة دعائية واسعة في الجرائد قبيل الحملة مطلقة تسمية الحرب على الإرهاب عليها.

رابعاً – السبعينات: حدث الانتشار الأوسع للتعبير نهاية السبعينيات حيث كتب التعبير War on Terrorism مكتوبة على غلاف مجلة التايم Time magazine في عام 1977 وكان عنوانا لمقال رئيسي عن المعارضين أو ما اسماهم المقال اللا سلطويين الذي كانوا من المعارضين السياسيين لحكومات الاتحاد السوفيتي وبعض الحكومات الأوروبية.

خامساً – بعد أحداث 11 سبتمبر 2001: حدثت تغييرات على المعنى الدقيق للإرهابي وتم استعمال تعبير الحرب على الإرهاب لوصف حملات متعددة الأوجه على الأصعدة الإعلامية والاقتصادية والأمنية والحملات العسكرية التي استهدفت دولا ذات سيادة وحكومات، وكان هذا الانعطاف في معاني كلمة إرهابي و تعبير الحرب على الإرهاب مصحوباً على الأغلب بإضافة وصف الشخص أو الجهة بكونه يستعمل الدين في الشؤون السياسية أو يقوم بتطبيق الدين بصورة متطرفة.

### 4.7. الأهداف

استناداً إلى منشورات معهد الدراسات الاستراتيجية، وهو معهد بريطاني تأسس عام 1958، يمكن تلخيص الأهداف الرئيسية للحرب على الإرهاب بالنقاط التالية:

- قطع الملاذ الآمن للإرهابيين للحيلولة دون إنشاء معسكرات تدريب أو رص صفوف أعضاء فيما يسمى بالمجموعات الإرهابية
- قطع تدفق الدعم المالي لما يسمى بالمنظمات الإرهابية
- إلقاء القبض على المشتبه بانتمائهم إلى ما يعتبر مجموعات إرهابية
- الحصول على المعلومات بطرق مختلفة مثل الاستجواب والتنصت والمرقبة والتفتيش
- تحسين مستوى أداء أجهزة المخابرات الخارجية والأمن الداخلي
- تقليل أو قطع الدعم عن المواطنين المتعاطفين مع ما يسمى بالمجموعات الإرهابية عن طريق تحسين المستوى المعيشي و توفير فرص العمل
- الاستعمال الكثيف لأجهزة التنصت لكي يكون اعتماد ما يسمى بالمجاميع الإرهابية على الوسائل البدائية البطيئة في التواصل و نقل المعلومات
- إقامة علاقات دبلوماسية متينة مع حكومات الدول التي تشكل جبهة للحرب ضد الإرهاب
- تظهر هذه النقاط بوضوح مدى تشعب هذا النوع من الصراع حيث أن هناك جهود عسكرية واقتصادية واستخباراتية وأمنية و دبلوماسية حكومية ودبلوماسية شعبية يجب التنسيق بينها

## 5.7. الموقف العالمي وتغيرات السياسة الأمريكية

اولاً – الموقف العالمي: بعد أقل من هي 24 ساعة على أحداث 11 سبتمبر 2001 أعلن حلف شمال الأطلسي أن الهجوم على أية دولة عضوة في الحلف هو بمثابة هجوم على كل الدول التسعة عشر الأعضاء، وكان لهول العملية أثره الكبير في حشد الدعم الحكومي لمعظم دول العالم للولايات المتحدة، كما دفع الحزبين الرئيسيين في الكونغرس ومجلس الشيوخ إلى التغاضي عن خلافاتهما الداخلية. بعد فترة قصيرة من أحداث 11 سبتمبر 2001 وجهت الولايات المتحدة أصابع الاتهام إلى تنظيم القاعدة وزعيمها أسامة بن لادن. في 16 أيلول 2001 صرح بن لادن من على شاشة قناة الجزيرة الإخبارية أنه لم يقم بتلك العملية التي وحسب تعبيره "قد يكون جماعة لهم أهدافهم الخاصة بهم وراء العملية" وفي 28 أيلول صرح بن لادن في صحيفة الأمة أنه ليس له أي علاقة بالضربة ولم يكن له علم بها.

من الجدير بالذكر أن القوات الأمريكية عثرت فيما بعد على شريط في بيت مهدم جراء القصف في جلال آباد في شباط 2001 ويظهر في الشريط أسامة بن لادن وهو يتحدث إلى خالد بن عودة بن محمد الحربي عن التخطيط للعملية وقد قوبل هذا الشريط بموجة من الشكوك حول مدى صحته، ولكن بن لادن وفي عام 2004 وفي تسجيل مصور تم بثه قبيل الانتخابات الأمريكية في 29 تشرين الأول 2004 مسؤولية تنظيم القاعدة عن الهجوم. يعتبر البعض غزو أفغانستان أول جولة عسكرية في الحرب على الإرهاب وكانت القوات المشاركة في البداية هي قوات الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وقوات التحالف الأفغاني الشمالي وهي عبارة عن مجموعة من القوات الأفغانية المختلفة المعارضة لحكومة طالبان، وانضمت إلى هذه القوات فيما بعد قوات من ألمانيا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا وباكستان وبولندا وكوريا الجنوبية. كان هناك تأييد شبه مطلق للولايات المتحدة في إعلانها الحرب على الإرهاب وحظيت عملية غزو أفغانستان 2001 بدعم كبير مقارنة بالتشتت في الآراء الذي صاحب الجولة العسكرية الثانية من الحرب على الإرهاب والتي سميت غزو العراق 2003 حيث ساندت المملكة المتحدة وإيطاليا وإسبانيا وكوريا الجنوبية وبولندا وأستراليا غزو العراق 2003 وعارضت كندا وألمانيا وفرنسا وباكستان ونيوزيلندا الجولة الثانية من الحرب على الإرهاب.

ثانياً – تحديد ساحة الحرب: بالرغم من صعوبة تحديد ساحة محددة لهذه الحرب إلا أن الولايات المتحدة اعتبرت هذه المناطق الجغرافية كجبهات لما سمي بالحرب على الإرهاب:

- جنوب آسيا و بالتحديد أفغانستان والباكستان.
- الشرق الأوسط وبالتحديد العراق والسعودية واليمن.
- جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق وبالتحديد الشيشان وجورجيا وأوزبكستان.
- جنوب شرق آسيا وبالتحديد الفيلبين وتايلاند وإندونيسيا
- أفريقيا وبالتحديد جيبوتي وأثيوبيا وإريتريا وكينيا والصومال والسودان وجمهورية تنزانيا المتحدة

ثالثاً – التغييرات في السياسة الأمريكية: وافق الكونغرس ومجلس الشيوخ الأمريكي بالإجماع وبسرعة فائقة على منح الرئيس الأمريكي جورج بوش 40 مليار دولار لحملة الحرب على الإرهاب، و20 مليار دولار إضافية لمساعدة خطوط الطيران الأمريكية في الأزمة الاقتصادية التي مرت بها عقب أحداث 11 سبتمبر، كما تم إلقاء القبض على الآلاف من الأشخاص منهم الكثير من المواطنين الأمريكيين من أصول شرق أوسطية وجرت معظم الاعتقالات بصورة غير معهودة في القوانين الجنائية الأمريكية إذ لم يتمتع المشبوهون بحق التمثيل القانوني لهم من قبل محامين.

بدأت وزارة العدل الأمريكية بحملة تسجيل لأسماء المهاجرين وطلب من المواطنين غير الأمريكيين تسجيل أسمائهم لدى دوائر الهجرة الأمريكية، وتم تمرير قانون مثير للجدل وهو قانون USA Patriot Act الذي منح صلاحيات واسعة للأجهزة الأمنية في استجواب وتفتيش واعتقال والتنصت على كل من يشتبه به دون إتباع سلسلة الإجراءات القانونية التي كانت متبعة قبل 11 سبتمبر، وتم انتقاد هذا القانون من قبل مجموعات كثيرة في الولايات المتحدة فيما بعد لكونها تعارض الدستور الأمريكي وحسب تعبيرهم ترسل إشارة إلى الإرهابيين بأنهم انتصروا لأنهم اجبروا الحكومة على أن تتصرف بشكل مشابه للدول غير الديمقراطية. دافع الرئيس الأمريكي عن القانون وصرح في 9 حزيران 2005 أنه وبفضل هذا القانون تم إلقاء القبض على 400 مشتبهاً بهم بكونهم خلايا نائمة لمنظمة القاعدة وتم إثبات التهمة على أغلبيتهم.

### 6.7. المعارضون

يرى المناهضون للحرب على الإرهاب أن الأوضاع الأمنية ازدادت سوءاً حسب تعبيرهم، وأن هناك تضخيماً لخطورة التهديدات التي تمثلها المجموعات الإرهابية، وأن هذه الحرب أدت إلى خروقات في حقوق الإنسان حتى في الولايات المتحدة نفسها، ويرى البعض أن الخطر الحقيقي لا يكمن في الإرهابيين أنفسهم إنما في الأساليب المستعملة ضدهم إذ يرى البعض بأنه من المستحيل القضاء على فكرة معينة بحملة عسكرية، وأن ما تنجح الحملات العسكرية في تحقيقه هو زيادة حدة وخطورة وانتشار الإرهاب. ويمكن تلخيص الانتقادات للحرب على الإرهاب بالنقاط التالية:

- الصعوبة في كون الجهة إما مع أو ضد الحرب على الإرهاب بحيث لا يترك هذا التصنيف المجال لتوجيه الانتقادات التي يراها البعض ضرورية
- الخسائر البشرية الكبيرة بين صفوف المدنيين فعلى سبيل المثال قتل أكثر من 3000 مدني في غزو أفغانستان 2001 وحوالي 200,000 مدني في غزو العراق 2003
- يعتبر البعض مبدأ الهجوم مع سبق الإصرار لغرض الدفاع عن النفس مبدأً خطيراً، ويتطلب أدلة دامغة وقاطعة لإثبات أن مجموعة أو دولة معينة تشكل بالفعل خطراً على أمن دولة أخرى
- تشير تقارير منظمة العفو الدولية إلى أن الكثير من الاعتقالات تمت في سجون سرية بدون توجيه تهم وبدون اللجوء إلى التسلسل القضائي والمحاكم، كما لا يتمتع هؤلاء السجناء بحق التمثيل القانوني من قبل محامين، وتستعمل في استجوابهم شتى الأساليب الوحشية التي لا تتماشى مع القوانين الدولية
- الاستنزاف الكبير للاقتصاد الأمريكي أثناء الحرب على الإرهاب الذي حول أكبر فائض في تاريخ الولايات المتحدة في عهد بيل كلينتون، إلى أكبر عجز في الميزانية في تاريخ الولايات المتحدة في عهد جورج بوش
- استمرار الحرب لفترة زمنية قد تكون طويلة جداً مع عدم تحقيق انتصار ملموس إذ لا يعتبر في هذه الحرب، وبخلاف الحروب التقليدية، قتل أو اعتقال زعماء الجهات المعادية أو تحقيق النصر العسكري بمثابة انتصار، لأنها حرب أفكار و عقائد.
- انشغال الحكومة بالحرب على الإرهاب دفعها إلى تجاهل الأزمات الداخلية في الولايات المتحدة من البطالة وسوء حالة التأمين الصحي والضمان الاجتماعي، كما تم تقليص بعض هذه الميزانيات لدعم الحرب الذي لا توجد هناك أي بوادر تبشر بقرب نهايتها.

### 7.7. المؤيدون

يمكن تلخيص وجهات نظر المؤيدين لفكرة الحرب على الإرهاب بالنقاط التالية:

- نشر الديمقراطية في الدول الغير ديمقراطية سوف يؤدي في المدى البعيد إلى زيادة استقرار العالم والقضاء على الإرهاب.
- يرى المؤيدون أن هناك مبالغة في تقدير الخسائر البشرية بين صفوف المدنيين، حيث يعتبرون المدنيين الذين يعيشون بالقرب من الإرهابيين من المتعاطفين معهم، ويقومون على الأغلب بتقديم الدعم المعنوي أو المادي أو المعلوماتي أو يقدمون الملاذ الآمن للإرهابيين، وبهذا فهم ليسوا محايدين تماماً وحسب نظرية هذه الحرب لا مكان للحياد.
- يرى المؤيدون أن هذه الحرب هي عامل رئيسي في كسر شوكة معاقل الإرهاب الرئيسية وقطع اتصالاتهم وحمل المتعاطفين معهم على التردد في الانضمام إلى صفوفهم خوفاً من أن يلحق بهم نفس المصير.
- تحقيق الديمقراطية في الشرق الأوسط، حيث يراها المؤيدون للحرب الطريقة الوحيدة للتخلص من الأفكار الدينية المتطرفة، وقد تكون هذه الديمقراطيات هشة في البداية أو تزيد من الوضع الأمني سوءاً، ولكنها في المستقبل البعيد تكون عاملاً في استقرار العالم.
- يرى المؤيدون أنه بعد إعلان هذه الحرب لم تحدث أية أعمال إرهابية كبيرة في الولايات المتحدة.
- يرى المؤيدون للحرب أن هناك نتائج إيجابية تم تحقيقها نتيجة هذه الحرب منها على سبيل المثال الانتخابات في أفغانستان والانتخابات العراقية ومحاكمة صدام حسين و تخلي ليبيا عن برنامجها لتصنيع الأسلحة النووية والانتخابات التي جرت في مصر والسعودية.